صور من حياة الرسول

٤

أمين دويدار

الفتح المبين



دار المعارف



صور من حياة الرسول

(٤)



الفتح المبين

أمين دويدار



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله الذى أعز جنده، وهزم الأحزاب وحده، والصلاة على خير مبعوث لخير أمة وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

وبعد : فإن فتح مكة كان هو المشعل الأول الذى أضاء الأرض بما رحبت ونشر دعوة النور فى أرجاء المعمورة، ففى السنة الثامنة للهجرة وفى شهر رمضان بالذات، تم فتح مكة المكرمة، وعاد إليها أبناؤها المسلمون بعد فراق مؤلم وعادت لها بهذا الفتح الأنوار الإلهية، وبهذا الفتح فرح المسلمون بنصر الله، الذى ينصر من يشاء، وحقق الله تعالى لنبيه ﷺ الفتح الموعود إذ يقول فى محكم كتابه :

﴿إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فتحًا مُبِينًا * لِيَغْفِرَ لَكَ الله ما تقدم من ذَنْبِكَ وما تأخَّر ويتمَّ نعمته عَلَيْك ويهديكَ صِراطًا مُستَقيمًا * وينْصُرَكَ الله نَصْرًا عَزِيزًا﴾.

وكان هذا العود الكريم إلى مكة الحبيبة إيذانًا بتاريخ إسلامي باهر، وتوطيدًا لأركان الحق، واستئصالاً لشأفة الشرك، وانمحى كل ما يمت إلى الباطل بصلة، وطمست معالم الجاهلية، وحطمت الآلهة التي كانت تقدس من دون الله.

وهذا ما يحدثك عنه هذا الجزء الذي بين يديك، فهو يوضح لنا آثار الفتح، وما تبعه من أحداث جسام تكشف بوضوح سماحة الرسول ﷺ التي لا يحدها حد، ولا يصورها بيان في معاملة الذين آذوه وأخرجوه من وطنه الحبيب إلى نفسه، ولكن هيهات، لقد عاد مرفوع الهامة عزيز الجانب.

وبهذا صارت كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، والله عزيز حكيم.

[دار المعارف]

الفتح المبين

عسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً

لم يقف المسلمون من رسول الله ﷺ موقفًا قطّ كان أشبه بموقفهم منه فى صلح الحديبية، ولم يعارضوا شيئاً من أعماله قط كما عارضوا ذلك الصلح، ولم يقف رسول الله ﷺ منهم موقفاً قط كان أَغْيَظَ لهم وأشد عليهم من ذلك الموقف؛ فقد أمضى الصلح على رغمهم، وعدلَ عن مشاورتهم فى ذلك الأمر الخطير، ولم يكن له فى مثل ذلك سابقة، وقابل تشدد قريش وعنادها بمنتهى التساهل والملاينة، ورد أبا جندل إلى الفتنة والعذاب ولم يكن عهد الصلح قد كتب بعد. فشعر المسلمون فى ذلك اليوم بكل معانى الغبن والمهانة، وفارت نفوسهم بكل ما يحسونه من عزة الإيمان وقوة الاعتصام بالحق، حتى ذهب عمر بن الخطاب يجادل رسول الله ﷺ فى ثورة بادية وغيظ مكظوم، ويسأل فى دهشة عن السبب الذى دعا رسول الله، صلى الله عليه وسلم، إلى قبول هذه المهانة، فيجيبه رسول الله

فى اطمئنان الواثق وثقة المطمئن : « أنا عبد الله ورسوله، لن أخالف أمره ولن يضيعنى ».

وهنا محور الارتكاز فى القضية كلها؛ فقد كان رسول الله ﷺ مأموراً بأن يفعل مايفعل، فلم يكن له أن يخالف أمر ربه وهو الذى أيده بنصره وبالمؤمنين وألف بين قلوبهم، ولم يكن له أن يشاور أصحابه أو يستجيب لعواطفهم وقد صدر الأمر إليه من العلىّ الحكيم. ولقد أحسّ صلى الله عليه وسلم ذلك، منذ بركت ناقته عند مهبط الحديبية وقال أصحابه : « خَلأت »، فقال : « ما خلأت، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة »؛ ومنذ هذه اللحظة أعد نفسه لقبول كل خطة تدعو إلى السلم، وصلاح ذات البين، ما دام أساسها تعظيم حرمات الله تعالى، وأعلن هذه العاطفة الكريمة صريحة واضحة حين قال : « والذى نفسى بيده لا تدعونى قريش اليوم إلى خطة يعظمون فيها حرمات الله، وفيها صلة الرحم، إلا أعطيتهم إياها ».

فلما بدا له من قريش رغبة فى الصلح لم يتردد فى قبولها، وجعل همه أن يصل إلى هذا الهدف وإن مشى له على الشوك. وكان الهدف فى نظره أسمى من أن يهتم فى سبيله بالصور والأشكال، وأغلى من أن يَضيع بسبب كلمة نابية أو مظهر جاف؛ ومن أجل ذلك أعرض عن كثير من جهالات قريش،

وتسامح مع رسولهم غاية التسامح، وتقبل بصدر رحب كل ما بدا منه من صلابة وعناد، ولم يُلق بالا قط إلى ما كان من أصحابه من حمية وغضب، ومضى فى القضية يعالجها بحكمته وسياسته، حتى انتهت إلى نهايتها التى يرجوها ويرجو بها الخير للإسلام والمسلمين؛ وكأنما كان صلى الله عليه وسلم ينظر بعين الغيب إلى ما وراء هذا الصلح من خير كثير.

ولقد آتى هذا الصلح ثمراته بأسرع ما كان ينتظر المسلمون، وبأعجب مما كانوا يتصورون، وكانت ثمراته طيبة مباركة حتى سماه الله تبارك وتعالى ﴿فتحاً مبيناً﴾؛ وكأنما كان باباً يقف وراءه الخير أو سدًّا يحبس خلفه الفيضان، فلما انفتح تدفق الخير تدفقاً وانساب انسياباً: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فتحاً مُبيناً * لِيغفرَ لَكَ اللّهُ ما تقَدَّمَ مِنْ ذَنْبكَ ومَا تَأَخَّرَ ويُتمَّ نِعْمَتهُ عَلَيْكَ وَيَهْديَكَ صِراطاً مُسْتقيما * وينصُرَكَ الله نصْراً عزيزاً. . . . وَعَدَكُمُ اللّهُ مَغانمَ كثيرة تَأْخُذُونها، فعَجَّلَ لكُم هذِهِ وَكَفَّ أَيْدِىَ النَّاس عنْكُم ولِتكُونَ آيةً لِلْمُؤمِنينَ ويهْدِيَكُمْ صِراطاً مُسْتقيماً * وأُخْرَى لَمْ تقْدِرُوا عَلْيها قَدْ أَحَاطَ الله بهَا وَكَانَ الله عَلى شَىءٍ قَديراً﴾[1]

(١) سورة الفتح الآيات ١، ٣، ٢٠، ٢١.

وضعت الحرب أوزارها فانفسح الطريق أمام الدعوة

وكان من ثمرات هذا الصلح - أو من مظاهر هذا الفتح - أن وضعت الحرب أوزارها بين المسلمين وقريش، وكانت قريش هى العقبة الكأداء فى طريق الإسلام منذ ظهوره، وكانت عداوتها له أصل البلاء ومنبع الشر، وكان العرب واليهود يسيرون على منهاجها فى مناوأة الإسلام وعداوته؛ وكأنما كانت هى الجذْوة التى تشعل النار فى كل ما حولها، فلما تم الصلح بينها وبين المسلمين خمدت هذه الجذوة، فخمد كل ما حولها من اللهب، وانطفأ كل ما فوقها من الشرار.

لقد أخذت قريش منذ قام النبى، صلى الله عليه وسلم، بدعوته تناصبه العداوة وتقيم فى طريقه العقبات، وتصفه بالسحر تارة، وبالكهانة تارة، وبالجنون تارة، وبالكذب تارة، وتحذر العرب فى المواسم والأسواق من شره وسحره ليقاطعوه، وتحصره وآله فى الشِّعب حتى كادوا يهلكون جوعاً، وتصب على أصحابه ألوان العذاب حتى تخرجهم من ديارهم وأموالهم، وتتآمر على قتله حتى يفر منها مهاجراً إلى المدينة، ثم تتعقبه هناك فى مهاجره فتغزوه المرة بعد المرة، وتتآمر مع اليهود عليه فيحاولون اغتياله، ويجمعون له الأحزاب ويؤلبون عليه القبائل . . وهكذا وهكذا

مما جعل حياته وحياة أصحابه جهاداً دائباً وكفاحاً مريراً . .

ثم ها هي ذى قريش بعد كبريائها وعنادها، وبعد جحودها العاق وعدائها المر، ترغب الآن في مهادنته وسلمه، وتعترف به بعد أن أنكرته، وتقفه منها موقف النظير من النظير، وترسل إليه رسولها ليفاوضه في أمر الصلح؛ فأى فرصة أحسن من هذه يمكن أن ينتهزها رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ليفسح الطريق أمام دعوة الإسلام التي ظل حياته يجاهد في سبيلها، والتي رصدت لها قريش كل مَرْصد ووقفت لها بكل سبيل؟ لقد كانت فرصة ينبغي ألا تضيع، وألا يحول دونها شيء من المظاهر التي لا قيمة لها ولا غناء فيها. ولقد انتهزها رسول الله ﷺ فأمضى الصلح بينه وبين قريش، ولم يعبأ بما هنالك من غضب الأصحاب وجهالة الأعداء؛ فضرب بذلك أروع الأمثال في الحكمة والسياسة، وقوة البصر بالأمور ودقة النظر في العواقب.

أصبح المسلمون قادرين على أن يتصلوا بالناس في ديارهم ليشرحوا لهم مبادئ الدعوة

وكان من ثمرات هذا الصلح - أو من مظاهر هذا الفتح - أن انفسح أمام المسلمين مجال العمل، ومُهِّد للدعوة طريقها لكى تصل إلى القلوب؛ فبعد أن كان المسلمون محصورين في

المدينة، منقطعين عن العرب فى البادية والحاضرة، صار من الممكن لهم أن يتصلوا بالقبائل فى منازلهم، وأن يختلطوا بالناس فى ديارهم، فيشرحوا لهم مبادئ دينهم وحقيقة دعوتهم، ويطلعوهم على ما فى هذه الدعوة من مبادئ سامية وأخلاق عالية، ومُثُل كريمة وأهداف عظيمة؛ فأخذ الناسُ - بما يرون من أعمال المسلمين وأحوالهم، وبما يسمعون ويشهدون من سيرة الرسول، صلى الله عليه وسلم، بينهم، وعظيم أخلاقه فيهم - يُقبلون على الإسلام ويسارعون إلى اعتناقه؛ ففشا الإسلام فى كثير من القبائل، وآمن به كثير من الناس، وأخذ محيطه يتسع حتى شمل مكة نفسها، وجعل عدد المسلمين يزداد حتى صار أضعافاً مضاعفة؛ ولم يمض عامان بعد الحديبية حتى دخل رسول الله، صلى الله عليه وسلم، مكة فى عشرة آلاف، وكان جيشه يوم الحديبية لا يزيد على ألف وستمائة.

وكما أخذ رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يعمل على نشر الإسلام فى بلاد العرب، أخذ يعمل على نشره فى الممالك والأقطار التى تحيط بها؛ فكتب إلى ملوكها وأمرائها يدعوهم إلى الإسلام، واختار من أصحابه رجالا يعرفهم بحسن الأداء وقوة البلاغ، فبعث بكل كتاب رجلا إلى ملك من الملوك. ومع أن أكثر هؤلاء الملوك والأمراء لم يؤمنوا، ولم يحسن بعضهم تلق

كتاب النبى ولم يكرم وفادة رسوله، فإن صوت الإسلام دوّى فى هذه الأقطار، وظل صداه يرن فى أرجائها حتى فتحها الله على المسلمين، ودان أهلها بالإسلام بعد زمن قليل لا يزيد على ثلاثين عاماً.

انعزل اليهود بهذا الصلح عن العرب فوجه النبي إليهم كل قوته فقضى عليهم

وكان من ثمرات هذا الصلح - أو من مظاهر هذا الفتح - أن ألقى النبي، صلى الله عليه وسلم، عن كاهله عبء التفكير فى قريش، وأخذ يوجه كل قوته إلى اليهود، وكانوا هم العدو الأكبر بعد قريش؛ وكانوا لا يزالون يحاولون بوسائلهم الماكرة، ويعملون بأساليبهم الخبيثة، ليزعزعوا قوة الإسلام ويقوضوا أركانه، حتى لا تقوم له دولة، أو يكون لأهله صولة؛ وكان اعتمادهم فيما يريدون من ذلك على قريش أولاً، وعلى من حولهم من قبائل العرب ثانياً. فلما وقع الصلح بين المسلمين وقريش، وكان من نتائجه ما كان من هذه الهدنة، ومن جنوح القبائل بعدها إلى السلم، صار اليهود فى شبه عزلة عن العرب، وضاقت عليهم الدائرة فانحصروا فى محيط ضيق، وتهيأت بذلك الفرصة للمسلمين للقضاء على هذا العدو الغادر، الذى

لا يؤمن شره، ولا يُرتجى خيره، وكان ما كان بعد ذلك من وقائع خيْبَرَ وفدَكَ وتَيماء، مما أعز الله به الإسلام وأذل أعداءه.

اعترفت قريش بحق المؤمنين فى زيارة البيت وأمن المستضعفون بمكة على أنفسهم

وكان من ثمرات هذا الصلح أن اعترفت قريش بحق المسلمين فى زيارة البيت، وأن تم ذلك دون قتال، وكان ذلك فوزاً عظيماً للمسلمين فى المدينة، وخيراً وبركة على المستضعفين فى مكة؛ فقد كان فى مكة رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لا يعرفهم رسول الله ﷺ ولا أصحابه، وكانوا من المستضعفين الذين لا يستطيعون الجهر بإيمانهم، ولا يجدون السبيل إلى الفرار بدينهم؛ فلو كان القتال نشب بين الفريقين لذهب ضحيته عدد من هؤلاء المستضعفين، ولقتل المؤمنون إخوتهم وهم لا يعلمون بأمرهم، فيكون فى ذلك ما يكون من الخسارة عليهم، ومن المعرَّة لهم، ومن التحرج والندم على ما كان منهم. وفى ذلك يقول الله تبارك وتعالى مُمتنًّا على رسوله وعلى المؤمنين: ﴿وهو الَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وأَيْدِيَكُمْ عنهُمْ ببَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ، وَكَانَ اللّٰهُ بمَا تعْمَلُون بَصيراً * هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسجِدِ الْحَرَامِ والْهَدْىَ مَعْكُوفاً أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلاَ رجالٌ مُؤمِنُونَ وَنِساءٌ مُؤمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تطَئُوهُمْ

فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِى رَحْمَتِهِ مَنْ يشاءُ لَوْ تزيَّلُوا لعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذاباً أَليماً ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى قُلُوبِهِمُ الحميَّةَ حَمِيةَ الجاهِلِيَّةِ فأَنزلَ اللَّهُ سكينَتَهُ على رسُولِهِ وَعَلَى المؤمنين وأَلْزمهُم كلِمَةَ التَّقْوى، وَكانُوا أَحقَّ بهَا وأَهْلَهَا وَكَانَ الله بِكُلِّ شيءٍ عليماً ﴿لَقَدْ صدق اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤيا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ المَسْجِدَ الحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمنينَ مُحلِّقِينَ رُءُوسكُمْ ومُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُون فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فجَعل مِنْ دُون ذلِكَ فتْحاً قَرِيباً﴾[1].

قريش تستغيث برسول الله

وكان الشرط الذى تألم له المسلمون غاية التألم، وتمسك به المشركون غاية التمسك.. فرجاً ومخرجاً للمستضعفين، ونكداً وخسارة على المشركين، حتى صاروا هم الذين يسعون إلى إلغائه، ويعلنون نزولهم عنه ولم يكن قد مضى عليه عام بعد.. ذلك أن أبا بصير- عتبة بن أُسَيْد الثقفى- فر إلى المدينة هارباً بدينه من قريش، فأرسلت قريش فى أثره رجلين إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، تطالبه برده إليها وفاءً بشرط الصلح بينها وبينه، فقال رسول الله، ﷺ: «يا أبا بصير، إنا قد

(١) سورة الفتح الآيات ٢٤-٢٧.

أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت، ولا يصلح لنا فى ديننا الغدر؛ فانطلق إلى قومك». فقال أبو بصير: «يا رسول الله، أتردنى إلى المشركين يفتنوننى فى دينى»؟ قال: «انطلق، فإن الله سيجعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً». فانطلق أبو بصير مع الرسولين، حتى إذا كان ببعض الطريق احتال حتى أخذ من أحد الرجلين سيفه، ثم جعل يضربه به حتى قتله. فلما رأى صاحبه ذلك فر بنفسه هارباً، حتى دخل على رسول الله المسجد مرتاعاً يقول: «قتل صاحبكم صاحبى»!.. وجاء أبو بصير فى أثره، فسلم على رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ثم قال: «وفَتْ ذمَّتُك يا رسول الله وأدَّى الله عنك؛ أسلمتنى إلى القوم وقد امتنعت بدينى أن أُفْتَن فيه». فقال له رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «اذهب حيث شئت». فلما ولّى أبو بصير قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «وَيْلُ امِّه مِسْعَرَ حَرْب لو كان معه رجال»!

وانطلق أبو بصير حتى نزل مكاناً على ساحل البحر، بين العِيص وذى المروة من أرض جُهَينة، وهناك قعد بطريق قريش، كلما مرت به تجارة لها أغار عليها. وسمع بأمر أبى نصير ناس من المستضعفين بمكة، وبلغهم ما قاله رسول، صلى الله عليه وسلم، فى أبى بصير، فجعلوا يتسللون إليه ويتجمعون حوله،

وانفلت إليهم أبو جندل بن سهيل فى سبعين راكباً أسلموا، وانضم إليهم ناس من بنى غفار وأسلم وجهينة، وطوائف من الناس ومن الأعراب، حتى بلغوا ثلاثمائة مقاتل، فأقاموا هنالك يقطعون الطريق على تجارة قريش، لا تمر بهم عير إلا أخذوها وقتلوا أصحابها. وفى ذلك يقول أبو جندل:

أبلغ قريشا عن أبى جندل ... أنّا بذى المروَة بالساحلِ

فى معشر تخفُق راياتهم ... بالبيض فيها والقنا الذُّبَّلِ(١)

يأبَوْن أن تبقى لهم رُفقةٌ ... من بعد إسلامهم الواصلِ

أو يجعلَ الله لهم مخرجاً ... والحق لا يُغلَب بالباطلِ

فيسلم المرء بإسلامه ... أو يقتلَ المرء ولم يَأْتَلِ(٢)

وضاقت قريش بهم ذرعاً، فأرسلت إلى رسول الله ﷺ تناشده بأرحامها إلا آواهم إليه، وقالوا: «لا حاجة لنا بهم، ومن خرج منا إليك فأمسكه من غير حرج عليك». فكتب صلى الله عليه وسلم كتاباً إلى أبى بصير وأبى جندل، يأمرهما بأن يقدمَا عليه، ويأمر من معهما من المسلمين أن يرجعوا إلى بلادهم وأهليهم، ولا يعترضوا لأحد مر بهم من قريش.

(١) البيض: السيوف، والقنا الذبل: الرماح المسنونة المصقولة.

(٢) لم يأتل: لم يدخر وسعاً فى الدفاع عن عقيدته.

حكمة الرسول وحسن نظره فى الأمور

وهكذا جعلت الأيام كلما مرت، تبين بُعد نظر الرسول، صلى الله عليه وسلم، وحسن سياسته وصواب رأيه، وتقنع أصحابه بأنهم كانوا متعجلين حين كرهوا ذلك الصلح الذى كان يُمناً وبركة على الإسلام والمسلمين، وتظهر للذين بَرِموا به واستثقلوا شروطه «أن النبى كان أصح منهم رأياً وأبعد مدًى، وأشد يقيناً بأن الله لن يضيعه ولن يخذله، وأن ما رآه هو الخير الكثير والفوز العظيم»[1].

«وكان أبو بكر الصديق، رضى الله عنه، يقول: «ما كان فتح أعظمَ فى الإسلام من فتح الحديبية، ولكن الناس يومئذ قصَّر رأيهم عما كان بين محمد وربه، والعباد يَعْجَلون، والله لا يعجل كعجلة العباد حتى تبلغ الأمور ما أراد.. لقد نظرت إلى سهيل بن عمرو فى حجة الوداع قائماً عند النحر، يقرِّب إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بُدْنه، ورسول الله، صلى الله عليه وسلم، ينحرها بيده، ودعا الحلاق فحلق رأسه؛ فأنظرُ إلى سهيل يلقُط من شعره، وأراه يضعه على عينيه؛ وأذكر إباءه أن

(١) لواء الإسلام - للأستاذ الشيخ محمد البنا.

يُقرّ يوم الحديبية بأن يكتب « بسم الله الرحمن الـرحيم »، وإبـاءه أن يكتب أن « محمداً رسـول الله »؛ فحمـدت الله الـذى هـداه للإسلام.. فصلوات الله وسلامه على نبى الرحمة، الـذى هـدانا به وأنقذنا به من الهلكة »[1].

« وكذلك صدَّقت الحادثات حكمة النبى وبعـد نـظره ودقـة سياسته، وأثبتت أنه إذ عقد عهـد الحـديبية وضـع حجـراً لا يُنقض فى سياسة الإسلام وانتشـاره، وهـذا هـو الفتـح المبين »[2].

---

(١) إمتاع الأسماع.

(٢) حياة محمد.

غزوة خَيْبَر

مذبحة بنى قريظة وأثرها فى نفوس اليهود

تركت مذبحة بنى قريظة فى نفوس اليهود أثرًا بالغ العمق بعيد المدى، وشعورًا مضطرب الأحاسيس مختلف النزعات، فظلوا حيارى سادرين لا يدرون ماذا يفعلون.. نارٌ مستعرة فى صدورهم من الألم والغيظ، تغشّيها طبيعة متأصلة فى نفوسهم من الجبن والخور؛ وعاطفة عنيفة من البغض والعداوة، يخالطها إحساس عميق من الخوف والرهبة؛ ورغبة قوية فى الانتقام والتشفى، يدافعها شعور قوى من الإحجام والتردد؛ ونزوع شديد إلى الحرب، يقابله حرص شديد على الحياة.. وكان لهم العذر فى هذه الحيرة، فقد تلقوا من المسلمين ضربات شديدة الوقع كانت تنزل على رءوسهم كالصواعق، وعلمتهم التجارب أن عدوهم هذا مرهوب قوى الشكيمة، وأنه فوق ذلك مؤيّد بقوة الحق، فليس من اليسير أن يغلبه غالب، ولا أن تهزمه قوة فى الأرض مهما عظمت. ولكنهم يريدون أن يطفئوا النيران المتأججة

فى صدورهم، بالانتقام من هذا العدو الذى أذلهم وأرغمهم، وفجعهم فى خيرة أبنائهم من الرجال والأبطال، ومن الزعماء والسادة.

ومع أن اليهود كانوا هم البادين دائماً بالشر، وكانت الدائرة فى كل مرة تدور عليهم، فإنهم لم يرعَوُوا ولم يزدجروا، ولم يأخذوا من الماضى عبرة للحاضر، ولم يحاولوا قط أن يطامنوا من شعور العداوة فى نفوسهم للإسلام ورسوله، وأن يعيشوا مع المسلمين فى سلام ووئام، بل هى فكرة واحدة تملَّكتهم وسيطرت على رءوسهم، وتواصَى بها زعماؤهم وسادتهم، هى القضاء على الإسلام وأهله؛ تارة يدفعهم إليها شعور الحسد والغيرة، وتارة يدفعهم إليها شعور العداوة والبغضاء، وتارة يدفعهم إليها حب الانتقام والأخذ بالثأر. وكلما رأوا رُوَاق الإسلام يمتد وقدمه ترسخ، زادت هذه الفكرة فى نفوسهم رسوخًا، فاندفعوا تحت تأثيرها يفكرون ويقدّرون، ويتخذون لتنفيذها الوسائل، ويتلمسون الأسباب، ويتحيَّنون الفرص.

عداوة قديمة متأصلة فى النفوس

وكانت الكلمة التى قالها زعيمهم حيى بن أخطب، منذ رأى رسول الله ﷺ يَقدَم المدينة، هى الدستور الذى أستنه

اليهود جميعًا : "عداوته - والله - ما بقيت".

كانت هذه الكلمة هى المبدأ الذى استمسك به اليهود منذ ذلك اليوم، والمنهج الذى سار عليه زعماؤهم ودهماؤهم، وظلت الحوادث والأيام تؤرّث نيران هذه العداوة، وتظهرها فى كل مظهر يدل على كراهيتهم لما ينال المسلمين من خير.. فمنذ نصر المسلمون على المشركين فى غزوة بدر، أخذ اليهود يصرحون بما فى نفوسهم من الألم لهذا النصر، وذهب شاعرهم كعب بن الأشرف يندب قتلى المشركين، ويحرض قريشًا على الانتقام والأخذ بالثأر، ويقع فى أعراض المسلمات بما يقول فيهن من فاحش الشعر، ويؤذى النبى ويأتمر مع اليهود عليه.

فلما لقى مصرعه على أيدى رجال من المسلمين، قام يهود بنى قينقاع يتحدَّوْن المسلمين ويعتدون على حرماتهم، ويستفزّونهم إلى الحرب بكل جارحة من القول والعمل. فلما أجلاهم المسلمون عن المدينة، قام من بعدهم بنو النضير يحاولون اغتيال رسول الله، صلى الله عليه وسلم. فلما أجلاهم عن المدينة ذهب زعيمهم حيى بن أخطب يحزّب الأحزاب على رسول الله وعلى المسلمين، ويحرض بنى قريظة على الغدر بهم فى أحرج الأوقات وأسوأ الظروف.

فلما لقى جزاءه مع رجال بنى قريظة قام من بعده أبو رافع

ـ سلام بن أبي الحُقَيْق ـ يـؤلب مـن جـديد على رسـول الله وصحبه، ويستخدم ماله ونفوذه فى تجميع القبـائل لحـربهم. فلما لقى مصرعه قام من بعده أُسَيْر بن رِزَام، فجعـل ينهـج منهجـه ويسير على خطاه، وأخذ يجتمع ببنى غطفان ليعقد معهم العقـود والاتفاقات، ليكونوا مع اليهود عند دخول أهل خيـبر فى حـرب مع المسلمين.

كان الرسول يحاول جهده أن يسالم اليهود فتغلبهم طبيعة الغدر فيهم

وهكذا كانت حياة اليهود مع المسلمين سلسلة من الضغائن والأحقاد لا تهدأ ولا تنقطع، ولكن النبى ﷺ مع هذا لم يـكن يود أن يساير اليهـود فى خصـومتهم، ولا أن يبـادلهم عـداوة بعداوة، بل كان يتلمس الفرص تلمسًا ليصلح ما بينه وبينهم؛ ولم يكن يباديهم بعدوان قط حتى يُعْذِر إليهم، وحتى يبـذل كل جهد مستطاع فى دعوتهم إلى السلام والوئام والتعاون. فلما تـولى زعامة اليهود فى خيبر أسير بن رزام هذا، وعلم رسـول الله ﷺ أنه يُعِد لحربه، رأى أن يدعوه قبلُ إلى السلم، فلعله أن يـكون أبعد نظرًا ممن سبقه من الزعماء، فينقذ قومه من سعير الحـرب التى أكلتهم. فبعث إليه عبد الله بـن رواحـة فى ثـلاثين مـن رجال الأنصار، فقدموا عليه فى خيبر فقـالوا لـه : "هـل نحـن

آمنون حتى نعرض عليك ما جئنا لـه"؟ قـال : "نعـم ، ولى منكم مثل ذلك"؟ قالوا : "نعم". ثم عرضوا عليـه أن يـترك ما عزم عليه من الحـرب، وأن يقـدّم على رسـول الله ليحـالفه ويوليه على خيبر، ويعيش أهلهـا مـع المسـلمين فى سـلام، فاستجاب لذلك أولَ الأمر، وخرج مع المسلمين فى ثلاثين رجلا من اليهود، قاصدًا إلى رسول الله، صلى الله عليـه وسـلم. فلما قطع مرحلة من الطريق ندم على خـروجه، وهـم بـالغدر بمـن أمَّنهم وأمنوه، وأهوَى إلى سيف عبد الله بـن رواحـة يـريد أن ينتزعه منه ليقتله، ففطن لذلك عبـد الله فقـال لـه : "أغـدرًا يا عدو الله"؟ ثم نزل فضربه بـالسيف ضربـة أطـاحت فخـذه بساقه، فسقط عن بعيره، ثم لم يلبث أن هلك، ومال المسلمون على من كان معه من اليهود فقتلوهم.

كان فى عزم اليهود أن يغزوا المدينة فبادرهم الرسول بالغزو فى بلادهم

ولما قام سلّام بن مِشْكَم زعيما على يهود خيبر بعد أسير بن رزام، كان رأيه فى محاربة المسلمين كرأى من سبقه مـن زعماء يهود. وهكذا ظل اليهود مقيمين على نية الغدر، مُبيِّتـين لفـكرة الانتقام، عازمين على القضاء على الإسلام بكل وسـيلة ممـكنة.

فلما تم الصلح بين رسول الله ﷺ وقريش فى الحديبية واتفقوا على أن يتهادنوا ويأمن بعضهم بعضًا، يئس اليهود من معاونة العرب لهم، وصرح سلّام بن مشكم لزعماء خيبر بأن خطرًا يتهدد كيان اليهود فى الحجاز، وأبان لهم أن الواجب عليهم أن يبادروا إلى تأليف كتلة منهم ومن يهود وادى القرى وتيماء، ثم يزحفوا على يثرب، دون أن يعتمدوا على البطون العربية فى هذه الغزوة.

"وقد علم الرسول ﷺ بما يدور فى خلد يهود خيبر، فأخذ يتهيأ لقتالهم"[1] وكانت خطته، صلى الله عليه وسلم، أن يفاجئ أعداءه قبل أن يفاجئوه، ولكن عبد الله بن أبى - فيما يقول بعض الرواة - أرسل إلى يهود خيبر يقول لهم : "إن محمدًا سائر إليكم فخذوا حذركم". فلما سمعوا بقصده أخذوا يُعِدون له، فكانوا يخرجون كل يوم فى عشرة آلاف مقاتل، متسلحين مستعدين صفوفًا ثم يقولون : "محمدًا يغزونا. . ؟ هيهات هيهات. . !" وأدخلوا أموالهم وعيالهم فى حصون « الكتيبة » وجمعوا المقاتلة فى حصون « النَّطاة ».

(١) تاريخ اليهود فى بلاد العرب.

مناطق خيبر وحصونها

وكانت بلاد خيبر مقسمة إلى ثلاث مناطق حربية : الأولى منطقة النطاة، والثانية منطقة الشِّق، والثالثة منطقة الكتيبة. وكان فى كل منطقة عدة حصون منيعة؛ فمن حصون منطقة النطاة حصن ناعم، وحصن الصعب بن معاذ، وحصن الزبير وهو حصن قُلَّة؛ ومن حصون منطقة الشق حصن أبىّ، وحصن البرىء؛ ومن حصون منطقة الكتيبة حصن الوَطِيح، وحصن السُّلالم، وحصن القَمُوص وهو حصن نِزَار. وكانت تلك الحصون منيعة على رءوس الجبال، وكان رجالها مدربين قد مارسوا القتال والنضال، وكانت جموع اليهود فى خيبر من أقوى الطوائف الإسرائيلية بأسًا، وأوفرها مالا وأكثرها سلاحًا. ولكن اليهود ـ كعادتهم ـ يخشون الحرب فى الميدان، ولا يحاربون إلا أمام الحصون، حتى إذا انهزموا عادوا إلى حصونهم وأغلقوها دونهم. وقد سجل القرآن عليهم هذه الخصلة من خصال الجبن، إذ يقول الله تعالى فى تهوين شأنهم للمؤمنين :

﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِى قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وراء جُدُرٍ

بأسُهم بينَهُمْ شَديدٌ تَحسَبُهُمْ جمِيعًا وقُلُوبُهُمْ شتَّى ذلِكَ بأنَّهَمْ قَوْمٌ لا يعْقِلُونَ﴾[1].

وعرف الرسول ﷺ فيهم هذه الطبيعة، فوضع خطته على أساسها حين صار إليهم ليغزوَهم فى عُقر دارهم.

وتقع خيبر من المدينة على نحو مائة ميل إلى الشمال، بينها وبين الشام، وهىَ مسافة تقطع بالإبل فى خمسة أيام. وكانت واحةً كبيرة خصبة، ذات حصون ومزارع ونخل كثير؛ ولم يكن سكانها مجتمعين فى صعيد واحد، بل كانوا متفرقين فى الأودية المتجاورة، يقطُنون بيوتًا حصينة وسط النخيل والحقول، وكانت لمنعة حصونها وطبيعة أرضها لا يظن اليهود أن الرسول يستطيع أن يغزوها.

كان غزو خيبر مقصورًا على من شهد الحديبية

وقد خرج صلى الله عليه وسلم إلى خيبر فى شهر المحرم من السنة السابعة (أغسطس ٦٢٨) فى ألف وستمائة من أصحابه، بينهم مائتان من الفرسان على ظهور الخيل؛ واستخلف على المدينة سِبَاع بن عَرفَطة. وكان قد استنفر مَن حوله من

(١) سورة الحشر الآية ١٤.

الأعراب ممن شهد الحديبية يغزون معه، فجاء الذين تخلفوا عنه فى غزوة الحديبية ليخرجوا معه، طمعًا فى الغنيمة، فقال لهم : « لا تخرجوا معى إلا راغبين فى الجهاد، فأما الغنيمة فلا ».. وسار صلى الله عليه وسلم بجيشه سيرًا حثيثًا فقطع المسافة على طولها فى ثلاث مراحل مجهدة، حتى بلغ أرض خيبر فى فجر اليوم الرابع. فلما بلغها نزل منها بواد يقال له « الرّجيع »، بين خيبر وغطفان، ليحول بين غطفان وبين أن يُمِدّوا أهل خيبر، وكانوا مظاهرين لهم.

ويقول بعض الرواة : إن غطفان أرادوا أن يظاهروا يهود خيبر، ولكنهم بعد ما خرجوا سمعوا صياحًا فى ديارهم، فخيل إليهم أن المسلمين قد خالفوهم إلى أموالهم وأهليهم، فرجعوا. ويقول آخرون : إن رسول الله ﷺ طلب إلى غطفان ألا يعينوا يهود خيبر، على أن يعطيهم من خيبر شيئًا سمّاه لهم. وعلى كلّ فإن غطفان لم يعينوا يهود خيبر فى هذه الغزوة، وخلّوا بين رسول الله وبينهم.

اعتصم اليهود بحصونهم حين رأوا المسلمين

ونزل صلى الله عليه وسلم قريبًا من حصون النطاة، فقال له الحباب بن المنذر : "إن أهل النطاة ليس قوم أبعَد مدًى

منهم، ولا أعدلَ رمية منهم؛ وهـم مـرتفعون علينـا وهـو أسرع لا نحطاط رميهم، ولا نأمن مـن بَيَـاتهم، يـدخلون فى خُمـر النخل؛ فتحوّل يـا رسـول الله". فقـال رسـول الله، صلى الله عليه وسلم : « أشرت بالرأى ». وتحول إلى مكان بعيد عن مدى النبل فعسكر به. وعَمَّى الله على أهل خيبر مـا كان مـن أمـر رسول الله ﷺ وجيشه، فباتوا بيَات المطمـئن الآمـن؛ حـتى إذا أصبحوا خرج عمالهم بمسَاحيهم ومـكاتلهم غـادين إلى أعمالهـم. فلما رأوا رسول الله وأصحابه قد نزلوا بسـاحتهم، أخـذوا مـن الرعب والهول، فجعلوا يصيحون : "محمد والخميس.. ! محمـد والخميس.. !" وأدبروا هـاربين إلى قـومهم، ينـذرونهم بمـا ينتظرهـم من الويل وسوء المصير. وكأنما رأى رسول الله ﷺ أن يزيد فى فزع القـوم، فصـاح فى أعقـابهم مـكبرًا : « الله أكبر، خَرِبت خيبر! إنا إذا نزلنا بسـاحة قـوم فسـاء صـباح المنذَرين »..

واستيقظ أهل خيبر على هذا الصياح المرعب، فإذا هم قـد أحيط بهم، وأصبحوا وليس لهم بد من أن يسـلموا أو يقـاتلوا إلى آخر رجل منهم؛ وأخـذت عليهـم المفـاجأة كل طـريق للهجوم، فلم يبق أمامهم وسيلة إلا الدفاع. وهنا عاد اليهود إلى طبيعتهم، فلجأوا إلى الحصون فـاعتصموا بهـا، ﴿وظنُّـوا أنهـم

مانِعَتُهم حصونُهم من الله فأتاهم الله من حيثُ لم يحتسِبُوا وقَذَفَ فى قلوبهم الرُّعبَ﴾[1].

* * *

وكان رسول الله ﷺ يعلم من طبائع اليهود شدة الحرص على المال، وأن مالهم قد يكون أحب إليهم من أنفسهم؛ فرأى أن يرهبهم بإتلاف بعض مالهم، لعلهم يسلمون إليه دون قتال؛ فأمر بقطع نخيلهم؛ فأخذ المسلمون يقطعونها حتى قطعوا نحو أربعمائة نخلة. فلما رأى تصميم اليهود على الحرب نهى عن قطع النخيل، وابتدأ القتال معهم فى حصن ناعم. وكان اليهود قد حشدوا قواتهم فى ذلك الحصن، وجعلوا قائدهم عليه سلام ابن مشكم، وأعدوا أنفسهم لمعركة طاحنة.

طبيعة القتال فى أرض خيبر

"وبدأ النبي معركة الحصار فى قتال عنيف، قريب المرمى متصل الاشتباك، واليهود يستميتون فى الدفاع عن كل شبر من الأرض، لا ينزلون عنه إلا مرغمين؛ وكلما حاولوا الخروج من الحصن دحرهم المسلمون، فارتدوا إلى الحصن ليحتموا وراء جدرانه القوية"[2].. وطال الحصار واشتد القتال حتى جُهد

(١) سورة الحشر الآية ٢

(٢) محمد القائد.

المسلمون، ومكث رسول الله ﷺ سبعة أيام يقاتل أهل هذا الحصن، وهو يعطى الراية فى كل يوم واحدًا من أصحابه، ويبعثه إلى الحصن، فيرجع ولم يصنع شيئًا، حتى فتحه الله على يد علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه.

وفى معركة هذا الحصن قتل البطل اليهودى «مَرْحَب»، وكان من أشجع شجعان اليهود؛ قتله على بن أبى طالب وهو يبارزه؛ وقيل: إن الذى قتله هو محمد بن مسلمة. وفى معركته أيضًا قتل محمود بن مسلمة أخو محمد بن مسلمة، ألقيت عليه رَحًى وهو مستند إلى جدار الحصن، يستظل به فى يوم شديد الحر. وفى أثناء هذا الحصار تُوفى زعيم اليهود سلام بن مشكم، فتولى القيادة بعده الحارث بن أبى زينب.

ولما سقط حصن ناعم فر اليهود إلى الحصن الذى وراءه - وهو حصن الصعب بن معاذ - فاعتصموا به، وقاتلوا المسلمين قتالا شديدًا، وحملوا عليهم حملة منكرة؛ فانكشف المسلمون حتى انتهوا إلى رسول الله ﷺ وهو واقف قد نزل عن فرسه؛ وثبت الحبابُ بن المنذر، رضى الله عنه، فحض رسول الله الناس على الجهاد فأقبلوا، وزحف بهم الحباب بن المنذر، فانهزم اليهود وأغلقوا الحصن عليهم؛ ولكن المسلمين اقتحموا الحصن، وجعلوا يقتلون ويأسرون حتى فتحوه عَنْوَة.

وقد وجد المسلمون فى ذلك الحصن من الشعير والتمر والسمن والزيت والعسل والمتاع شيئًا كثيرًا، وكانوا قد أصابتهم مجاعة قبل أن يفتحوه حتى أكلوا لحوم الخيل. فلما فتحه الله عليهم ووجدوا به ما وجدوا من الطعام والوَدَك[1]، خشى رسول الله ﷺ عليهم أن تشغلهم الغنيمة عن القتال، فبعث مناديًا ينادى فى الناس: أنْ «كلوا واعلِفوا ولا تَحْمِلوا»: أى لا تخرجوا بشىء منه إلى بلادكم.

خونة اليهود يدلون الرسول على مخابئهم

وفى ذلك الحصن وجد المسلمون فى بيت تحت الأرض منجنيقًا ودبابات ودروعًا وسيوفًا وكثيرًا من آلات الحرب، فانتفعوا بها فى هذه المعركة أيما انتفاع. وكان الذى دلهم عليه رجل من اليهود، أسره المسلمون وهم يحاصِرون حصن ناعم، فخاف على نفسه أن يقتل، فاستأمن رسول الله ﷺ على نفسه وأهله حتى أمنه، ثم أخبره بما كان فى حصن الصعب من آلات الحرب، ودله على مكانها حين فتح.

ولما سقط حصن الصعب بن معاذ فر اليهود إلى حصن

---

(١) الودك: السمن والزيت ونحوهما.

الزبير، وكان حصنًا منيعًا قائمًا على رأس قُلَّة[1]؛ فحاصره المسلمون ثلاثة أيام، وظل اليهود معتصمين به لا يخرجون منه، فاستعصى على المسلمين فتحه. حتى علم رسول الله ﷺ من أحدهم أن وراء الحصن جدولا يُمد أهله بالماء، فأمر بقطعه عنهم فلما قطع عنهم الماء خرجوا من الحصن، وقاتلوا عنه أشد قتال، حتى قتل يومئذ من المسلمين نفر، وأصيب من اليهود عشرة؛ ثم فتحه الله على المسلمين، فكان آخر حصن فى منطقة النطاة. وبسقوط هذا الحصن سقطت منطقة النطاة كلها فى أيدى المسلمين، وفر اليهود منها إلى منطقة الشّق، فاعتصموا بأول حصن من حصونها وهو حصن أبَىّ.

وكان حصن أبَىّ على جبل يقال له «شَمران»، فحاصره المسلمون، فقاتلهم اليهود قتالا شديدًا، وتبارز فى معركته شجعان الفريقين، ثم تحامل المسلمون على الحصن، يتقدمهم أبو دجانة الأنصارى حتى دخلوه. فهرب من فيه من المقاتلة، وجعلوا يقتحمون الجدُر إلى حصن البرىء، فتمنعوا به أشد التمنع.

وزحف رسول الله ﷺ إليهم فى أصحابه، فكانوا أشد أهل الشق رميًا بالنبال والحجارة، حتى أصاب النبل ثياب رسول الله

(١) القلة: قمة عالية.

وعَلِق بها: فأمر صلى الله عليه وسلم أن يُنْصَب عليه المنجنيق، فوقع فى قلوب أهله الرعب، فأسلموا الحصن وهربوا. وبذلك سقطت منطقة الشق كما سقطت من قبل منطقة النطاة.

وذهب اليهود إلى منطقة الكتيبة فاعتصموا فيها بحصن « القَمُوص »، وهو حصن بنى الحُقَيْق؛ وكان من الحصون المنيعة القوية، وكان تحت قيادة بعض الأشراف من بنى الحقيق، وكان فيه نساء هذه الأسرة. فتحول رسول الله ﷺ بأصحابه إلى حصن القموص فحاصره عشرين ليلة، ثم فتحه الله على يد على بن أبى طالب، رضى الله عنه. وقد سُبِى من هذا الحصن جمع من النساء والذرارى، من بينهم صفية بنت حُيَىّ؛ وقد اصطفاها رسول الله ﷺ من بين السبايا، فأعتقها وتزوجها، فكانت من أمهات المؤمنين.

سقوط خيبر

ولما افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم من حصونهم ما افتتح، وحاز من أموالهم ما حاز، انتهوا إلى حصنى الوَطِيح والسلالم، وكانا آخر حصون خيبر؛ فحاصرهم رسول الله بضع عشرة ليلة، حتى إذا أيقنوا بالهَلَكة سألوا رسول الله ﷺ أن يستسلموا بحقن دمائهم.. ونزل كنانة بن الربيع بن أبى الحقيق،

فصالح رسول الله على أن يحقن دماء من فى حصونهم من المقاتلة، ويترك الذرية لهم، ويخرجون من خيبر وأرضها بذراريهم، ويخلون بين رسول الله وبين ما كان لهم من أرض ومال وخيل وسلاح. فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم : «وبَرِئَت منكم ذمة الله وذمة رسوله إن كتمتمونى شيئًا». فصالحوه على ذلك.

وبتسليم حصنى الوطيح والسلالم سقطت خيبر كلها فى أيدى المسلمين، وغنم المسلمون ما كان فيها من غنائم كثيرة.

الصلح بين اليهود والمسلمين

ولما تم الصلح بين رسول الله، صلى الله عليه وسلم وأهل خيبر، رغبت نفوسهم عن الهجرة من بلادهم، فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخليهم ليعملوا فى الأرض ويعطوه نصف ثمارها، وقالوا له : "نحن أعلم بها منكم وأعمر لها". فأبقاهم رسول الله ﷺ، فى الأرض يعملون بها، وصالحهم على النصف، على أنه إذا شاء أن يخرجهم أخرجهم.

يهود فدك ووادى القرى يجنحون إلى السلم

ولما سمع يهود «فَدَك» بما كان من الصلح بين رسول الله ﷺ وأهل خيبر، رغبوا عن الحرب وجنحوا إلى السلم، وبعثوا

إلى رسول الله أن يصالحوه على ما صالحه عليه أهل خيبر، فأجابهم إلى ذلك. وتم الصلح بينهم وبين رسول الله، صلى الله عليه وسلم، دون قتال؛ فكانت خيبر فَيْئًا بين المسلمين لأنهم فتحوها عَنْوَة. وكانت فدك خالصة لرسول الله، صلى الله عليه وسلم، لأنهم لم يُوجِفوا عليها بخيل ولا ركاب[1].

ولما فرغ رسول الله ﷺ من أهل خيبر انصرف إلى «وادى القرى»، فحاصر أهلها ليالى حتى سلموا وأذعنوا للصلح، فصالحهم على ما صالح عليه أهل خيبر. أما يهود «تَيماء» فقبلوا الجزية من غير حرب ولا قتال. وبذلك دانت اليهود كلها لسلطان النبى، وانتهى كل ما كان لهم من سلطان فى بلاد العرب، وأصبح المسلمون بمأمن من ناحية الشمال إلى الشام، كما صاروا بعد صلح الحديبية بمأمن من ناحية الجنوب.

تقسيم الغنائم

وقسم رسول الله ﷺ غنائم خيبر بعد أن خمَّسها، فأعطى الراجل سهمًا وأعطى الفارس ثلاثة أسهم، وأعطى من خُمسه ما أراه الله؛ فأعطى أهله، وأعطى رجالا ونساء من بنى عبد المطلب، وأعطى اليتيم والسائل. أما من شهد خيبر من

(١) لم يوجفوا: لم يأخذوها بقتال.

العبيد والنساء فرَضَخ لهم[1] شيئًا من الغنيمة ولم يُسْهم لهم.

وبينما المسلمون فى فرحهم بفتح خيبر، قدم عليهم جعفر بن أبى طالب فيمن هاجر معه من المسلمين إلى الحبشة؛ فسُر رسول الله ﷺ سرورًا عظيمًا بقدومهم، وضم جعفرًا وقبله بين عينيه وقال: «ما أدرى بأيهما أنا أسَرّ[2]، بفتح خيبر، أم بقدوم جعفر»؟

---

(١) رضخ لهم: أعطاهم قليلا.

(٢) أُسر: أكثر سرورًا.

مغانم خيبر

كانت مغانم خيبر شيئًا كثيرًا جدًّا

﴿لقدْ رَضىَ الله عن المُؤمنينَ إذْ يُبايعُونَكَ تحت الشَّجرَةِ فعَلم ما فى قُلُوبهمْ فَأَنْزَل السَّكِينَةَ عَلَيْهم وَأَثَابهُمْ فَتْحًا قريبًا * وَمَغَانم كثيرةً يأْخُذُونَها وكَانَ الله عَزيزًا حكيمًا﴾[1].

فسر جمهور المفسرين «الفتح القريب» بفتح خيبر و «المغانم الكثيرة» بمغانمها. وكان فتح خيبر بعد «بيعة الرضوان» بنحو شهرين، وكانت مغانمها أكثر مغانم حصل عليها المسلمون مذ غزوا فى سبيل الله حتى ذلك اليوم؛ فقد كانت خيبر واحة خضراء فى صحراء مقفرة، وكانت أرضها غنية بالنخيل والزرع، وكانت غَلّاتها من التمر والقمح والشعير شيئًا كثيرًا، فقد رُوِى أن عبدالله بن رواحة خَرَص[2] ما فيها من التمر بأربعين ألف وَسْق، والوسق حِمل بعير؛ كما روى أن «الكتيبة» وحدها

(١) سورة الفتح آيتا ١٨، ١٩.

(٢) الخرص: تقدير الشىء وزنًا أو كيلا أو عددًا على وجه التقريب.

ـ وهى خُمس الله ورسوله ـ كان بها أربعون ألف عِذْق[1]، وكانت تُخرَص ثمانية آلاف وسق من التمر، وربما اجتمع فيها ألف صاع[2] من النوى، وكان يزرع فيها الشعير فيحصدون منه ثلاثة آلاف صاع؛ هذا إلى ما كان فيها من الأنعام والمتاع والخيل والسلاح.

روَى البخارى ـ بسنده إلى عكرمة ـ أن عائشة أم المؤمنين، رضى الله عنها، قالت: «لما فُتحت خيبر قلنا: الآن نشبع من التمر». وروَى كذلك ـ بسنده إلى سالم مولى عبدالله بن مطيع ـ أنه سمع أبا هريرة يقول: "افتتحنا خيبر فلم نغنم ذهبًا ولا فضة، إنما غنمنا الإبل والبقر والمتاع والحوائط".

وروى أبو داود ـ بسنده إلى عقبة بن عامر ـ «أن النبى، صلى الله عليه وسلم، قال لرجل: «أترضى أن أزوجك فلانة»؟ قال: "نعم". وقال للمرأة: «أترضين أن أزوجك فلانًا»؟ قالت: "نعم". فزوج أحدَهما صاحبَه، فدخل بها الرجل ولم يَفْرِض لها صَداقًا ولم يعطها شيئًا. وكان ممن شهد الحديبية، وكان مَن شهد الحديبية له سهم بخيبر. فلما حضرته الوفاة قال: "إن رسول الله زوجنى فلانة ولم أفرض لها صداقًا ولم أعطها

(١) العذق (بالفتح): النخلة بحملها، و (بالكسر) الكباسة: أى العرجون ببلحه.

(٢) الصاع: قدحان وثلث بكيل مصر.

شيئًا. وإنى أُشهدكم أنى أعطيتها من صَداقها سهمى بخيبر".

فأخذت سهمًا فباعته بمائة ألف»[1]. وهو سهم واحد من ألف وثمانمائة سهم قسمها رسول الله على أهل الحديبية.

تقسيم المغانم

قال ابن إسحاق: "كانت المقاسم على أموال خيبر على الشق ونطاة والكتيبة، فكانت الشق ونطاة فى سُهْمان المسلمين، وكانت الكتيبة خُمس الله وسهم النبى، صلى الله عليه وسلم، وسهم ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، وطُعْمَ أزواج النبى، صلى الله عليه وسلم، وطعم رجال مشوْا بين رسول الله وبين أهل فدك بالصلح.. وقُسمت خيبر على أهل الحديبية، من شهد خيبر منهم ومن غاب عنها.. وكانت عدة الذين قسمت عليهم خيبر من أصحاب رسول الله ألف سهم وثمانمائة، برجالهم وخيلهم: الرجال أربع عشرة مائة والخيل مائتا فرس، فكان لكل فرس سهمان ولفارسه سهم، وكان لكل راجل سهم".

وقسم رسول الله ﷺ الكتيبة بين قرابته ونسائه. فأطعم كل امرأة من أزواجه ثمانين - وقيل مائة - وسق من تمر، وعشرين

(١) هكذا ذكر النويرى فى نهاية الأرب. والمظنون أنها مائة ألف درهم.

وسقًا من شعير، وللعباس بن عبد المطلب مائتى وسق[1]، ولفاطمة وعلىّ ثلاثمائة وسق، ولأسامة بن زيد مائتين وخمسين وسقًا؛ وأعطى رجالا ونساء من المسلمين بحسب حاجتهم. وقد فصّل ابن إسحاق هذه الأعطيات بأسمائها وأعدادها، فبلغت مقاديرها نحو ثلاثة آلاف وسق من القمح والشعير والتمر والنوى.

هذا على اعتبار أن خيبر قسمت بكمالها بين الغانمين؛ وقد رُوى أن خيبر جميعها لم تقسم، وإنما قسم النبى ﷺ نصفها بين الناس وعزل النصف الثانى لمن نزل به من الوفود والأمور ونوائب الناس. روى ذلك أبو داود بسنده إلى سهل بن أبى حَثْمة. قال ابن كثير: "وقد احتج بهذا مالك ومن تابعه على أن الإمام[2] مخير فى الأرض المغنومة، إن شاء قسمها، وإن شاء أرصدها لمصالح المسلمين، وإن شاء قسم بعضها وأرصد بعضها لما ينويه فى الحاجات والمصالح".

وعلى هذه الرواية يكون ما ذكر من هذه الأقسام من نصف خيبر لا من خيبر كلها، مما يدل على أن خيبر كانت مغنمًا عظيمًا، فتح الله به على المسلمين أبوابًا من الخير واسعة. فإذا

---

(١) لم يفصل المقريزى فى «إمتاع الأسماع» نصيب العباس ومن بعده إن كان تمرًا أو شعيرًا أو هما معًا.

(٢) الإمام: هو أمير المؤمنين أو من ينوب عنه من الحكام.

أضيف إلى غلات خيبر ما كان من غلات فدك ووادى القرى وتيماء، تبين لنا مبلغ الغُنْم الذى أفاده المسلمون من هذا الفتح، والذى أثابهم الله به على ما كان من إخلاصهم فى بيعة الرضوان.

بهذه الغزوة أمن المسلمون شر اليهود

هذا إلى ما كان من إخضاع ذلك العدو المبين، الذى جعل سلاحه المكر والغدر، والكذب والتدليس، والدس بين المسلمين، والتشكيك فيما أنزل الله على رسوله، والتأليب على الإسلام وأهله؛ وجعل هدفه أن يقضى على هذا الدين بكل وسيلة مستطاعة. فلما خَضَد الله شوكته وأذهب صولته وأذل كبرياءه، أمن المسلمون شرّ هذا العدو، كما أمنوا شرّ قريش بصلح الحديبية؛ وهذا كل ما كان يبغيه رسول الله ﷺ من مقاتلة اليهود.

فأقامهم رسول الله فى الأرض يعملون بها وتزوج منهم صفية بنت حيى

من أجل هذا رضى صلى الله عليه وسلم أن يقيم اليهود فى أرض خيبر ويشاطرهم ثمارها، بعد أن نزل من نزل من أهلها

على الجلاء وترك الأموال[1]؛ ذلك أنه لم تكن هناك غاية يبغيها رسول الله من تقتيلهم أو إخراجهم من الأرض بعد أن ألقوْا سلاحهم، وبعد أن خُضِدت شوكتهم وأمن المسلمون جانبهم.

ولم يزل صلى الله عليه وسلم حريصًا على أن تقوم العلاقة بينه وبينهمْ على أساس من المودة والصفاء، لا على العداوة والبغضاء؛ فاتخذ فيهم صهرًا؛ واصطفى من نسائهم صفية بنت حيى، فخيرها بين أن يُعْتِقها ويتزوجها وبين أن يُلحقها بأهلها، فاختارت أن تكون له زوجة؛ فأعتقها وجعلها من نسائه، ولم يدخر وسعًا فى تطييب نفسها، وإزالة ما كان يستكن فى قلبها من كوامن العداوة، حتى رُوِى عنها أنها قالت: "كان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، من أبغض الناس إلىّ: قتل زوجى وأبى! فما زال يعتذر إلىّ ويقول: «إن أباك ألَّب علىّ العرب، وفعل وفعل..» حتى ذهب ذلك من نفسى".

عاملهم بالرفق والعدل

وكان صلى الله عليه وسلم رفيقًا بهم، حريصًا على إقامة العدل فى معاملتهم، جاهدًا فى أن يزيل من نفوسهم آثار هذه العداوة؛ فلم تكن العداوة بينه وبينهم عداوة شخصية، إنما كانت

---

(١) أى بعد أن قبلوا ذلك وسلموا به.

خلافًا على العقيدة التى غيروا فيها وبدلوا، ﴿حَسَداً من عندِ أنفُسِهم من بَعْد ما تبيَّن لهمُ الحقُّ﴾[1].

فقد رُوِى أن بلالا مر بصفية وابنة عم لها على قتلى اليهود، فصاحت ابنة عمها صياحًا شديدًا؛ فكره رسول الله ﷺ ما صنع بلال وقال: «ذهبت الرحمة منك؟ تمرّ بجارية حديثة السن على القتلى»!! فقال: "يا رسول الله، ما ظننت أنك تكره ذلك، وأحببت أن ترى مصارع قومها".. وأقسم لا يفعل ذلك أبدًا.

ورِوى أن اليهود شكَوْا إلى رسول الله ﷺ أن المسلمين يقعون فى حرثهم وبقْلهم بعد الصلح؛ فأمر رسول الله بجمع المسلمين ثم قام فيهم، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «إن يهودَ شكوا إلَّ أنكم وقعتم فى حظائرهم؛ وقد أمَّنّاهم على دمائهم وعلى أموالهم التى فى أيديهم فى أراضيهم، وعاملناهم[2]. وإنه لا تَحِلُّ أموال المعاهَدين إلا بحقها»... فكان المسلمون لا يأخذون من بقولهم شيئًا إلا بثمن.

وكان صلى الله عليه وسلم يبعث عبدالله بن رواحة إلى أهل

(١) سورة البقرة الآية ١٠٩.

(٢) عاملناهم: عاهدناهم على أن تكون الأرض لهم يعملون فيها ولنا نصف ثمارها وغلاتها.

خيبر، خارصًا[1] بين المسلمين ويهود، فيَخْرُص عليهم؛ فإذا قالوا : "تعدَّيت علينا"، قال : "إن شئتم فلكم، وإن شئتم فلنا". فتقول يهود : "بهذا قامت السموات والأرض!".

وروى البخارى - بسنده إلى أبى سعيد الخُدْرِى وأبى هريرة - أن رسول الله ﷺ استعمل رجلا على خيبر، فجاء بتمر جنيب[2]، فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم : «أكل تمر خيبر هكذا»؟ قال : "لا والله يا رسول الله، إنا لنأخذ الصاع من هذا بالصاعين، والصاعين بالثلاثة". فقال : «لا تفعل. بع الجمْع بالدراهم، ثم ابْتَعْ[3] بالدراهم جنيبًا».

وكان بين المغانم التى غنمها المسلمون من خيبر صحائفُ من التوراة، فجاء اليهود يطلبونها فأمر النبى ﷺ بتسليمها إليهم. وفى ذلك يقول الدكتور إسرائيل ولفنسن : "ويدل هذا على ما كان لهذه الصحائف فى نفس الرسول من المكانة العالية، مما جعل اليهود يشيرون إليه بالبنان، ويحفظون له هذه اليد، حيث لم يتعرض بسوء لصحفهم المقدسة، ويذكرون بإزاء ذلك ما فعله الرومان حيث تغلبوا على أورشليم وفتحوها سنة ٧٠ قبل الميلاد،

---

(١) خارصًا : مقدرًا مقادير الغلات والثمار، وقاسمها بين الفريقين.

(٢) الجنيب : أجود التمر.

(٣) ابتع : أى اشتر.

إذ أحرقوا الكتب المقدسة وداسوها بأرجلهم؛ وما فعله المتعصبون من النصارى فى حروب اضطهاد اليهود فى الأندلس، حيث أحرقوا أيضًا صحف التوراة. هذا هو البَوْن الشاسع بين الفاتحين ممن ذكرناهم وبين رسول الإسلام".

لم يحفظ اليهود الجميل وجروا على طبيعتهم فى الغدر

هل قدر اليهود كل هذا؟ وهل حفظوا هذا الجميل؟ وهل أدركوا أن رسول الإسلام لم يكن يريد بهم شرًا، وأن مبادئ الإسلام إنما تقوم على الحق والعدل واحترام الناس، وأن الإسلام يعدل فى أعدائه كما يعدل فى أوليائه؟ وهل عرفوا أن محمدًا أصدق الناس قولا، وأكثرهم عدلا، وأطهرهم قلبًا، وأرقهم عاطفة؟

لم يقدر اليهود من كل هذا شيئًا، بل ظلوا على ما هم عليه من خبث الطويَّة ونكران الجميل، وظلت قلوبهم تغلى بالحقد على رسول الله ﷺ فعادوا إلى قديم عادتهم يفكرون فى الغدر به ويتآمرون للقضاء عليه؛ فوكلوا أمر ذلك إلى امرأة من نسائهم الموتورات، فدبرت لذلك حيلة ماكرة.

قال ابن إسحاق: «فلما اطمأن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أهدت له زينب ابنة الحارث - امرأة سلام بن مشكم -

بشاة مَصْلِيَّة[1]، وقد سألت : "أى عضو من الشاة أحبُّ إلى رسول الله"؟ فقيل لها : "الذراع". فأكثرت فيها من السم، ثم سَمّت سائر الشاة ثم جاءت بها. فلما وضعتها بين يدى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، تناول الذراع، فلاكَ منها مُضْغة فلم يُسِغْهَا. ومعه بشر بن البراء بن معرور قد أخذ منها كما أخذ رسول الله، صلى الله عليه وسلم. فأما بشر فأساغها، وأما رسول الله فلفَظها ثم قال : «إن هذا العظم ليَخبرُنى أنه مسموم»! ثم دعا بها فاعترفت، فقال : «ما حملك على ذلك»؟ قالت : "بلغتَ من قومى ما لم يَخف عليك، فقلت : إن كان ملكًا استرحتُ منه، وإن كان نبيًّا فسيُخبَر". فتجاوز عنها رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ومات بِشْر من أكلته التى أكل».

اهتمام قريش بأنباء خيبر

كان فتح خيبر حدثًا عظيمًا ارتجت له قريش، وكان اهتمامها به بالغًا حدّه؛ فقد أخذت ترقب النتيجة وتتخرّص بها منذ علمت أن رسول الله ﷺ قد توجه إلى خيبر. وكانوا فى ذلك فريقين : فريق ينظر إلى قوة اليهود ومنعة حصونهم وكثرة عددهم وعدتهم، وإلى ما كان من التحالف بينهم وبين غطفان.. فيقول

(١) مصلية : مشوية.

"تظهر يهود وحلفاؤها". وفريق ينظر إلى ماضى المسلمين وما كان من قوة قلوبهم، ودقة نظامهم، وحسن تعاونهم، واستهانتهم بالموت فى سبيل عقيدتهم.. فيقول: "يظهر محمد وأصحابه".. وتحمس كل فريق لرأيه حتى كان بينهم على ذلك تراهُن عظيم، وجعلوا يتنسَّمون الأخبار ويترقبون النتائج بشوق شديد وصبر فارغ، حتى لقد كانوا يقفون بأفواه الطرق يسألون كل قادم عما كان بين محمد ويهود.

(قالوا): «وكان الحجاج بن علَاط السُّلَمى قد أسلم وشهد خيبر مع رسول الله، صلى الله عليه وسلم؛ فلما فُتحت خيبر قال: "يا رسول الله، إن لى بمكة مالا عند صاحبتى أم شيبة بنت أبى طلحة، ومال مفرّق فى تجار أهل مكة، فَأْذَنْ لى يا رسول الله". فأذن له، فقال: "إنه لابد لى يا رسول الله من أن أقول". قال: «قل». قال الحجاج: فخرجت، حتى إذا قدمت مكة وجدت بثَنِيَّة البيضاء رجالا من قريش يتسمعون الأخبار، ويسألون عن أمر رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وقد بلغهم أنه سار إلى خيبر، وقد عرفوا أنها قرية الحجاز ريفًا ومَنَعة وجمالا، فهم يتحسسون الأخبار ويسألون الركبان. فلما رأَوْنى قالوا: "الحجاج بن علاط عنده - والله - الخبر!"

(قال): ولم يكونوا علموا بإسلامى. فقالوا: "أخبرنا

يا أبا محمد، فإنه بلغنا أن القاطع[1] قد سار إلى خيبر، وهى بلد يهود وريف الحجاز". (قال) : قلت : "قد بلغنى ذلك وعندى من الخبر ما يسركم". فالْتَبَطُوا بجنْبَىْ ناقتى[2] يقولون : "إيه يا حجاج" ! (قال) : قلت : "هزم هزيمة لم تسمعوا بمثلها قط، وقتل أصحابه قتلا لم تسمعوا بمثله قط، وأسر محمد أسرًا ! وقالوا : لا نقتله حتى نبعث به إلى مكة، فيقتلوه بين أظهرهم بمن أصاب من رجالهم" !.. فقاموا وصاحوا بمكة وقالوا : «لقد جاءكم الخبر، وهذا محمد إنما تنتظرون أن يُقْدَم به عليكم فيقتل بين أظهركم» ! (قال) : قلت : "أعينونى على جمع مالى بمكة على غُرَمائى، فإنى أريد أن أقدم خيبر فأصيب من فَلِّ محمد وأصحابه، قبل أن يسبقنى التجار إلى ما هنالك". فقاموا فجمعوا لى مالى كأحثّ جمع سمعت به. (قال) : وجئت صاحبتى فقلت : "مالى ! ـ وقد كان لى عندها مال موضوع ـ لَعلى ألحق بخيبر فأصيب من فُرَص البيع قبل أن يسبقنى التجار".

(قال) : فلما سمع العباس بن عبد المطلب الخبر وجاءه عنى، أقبل حتى وقف إلى جنبى، وأنا فى خيمة من خيم التجار، فقال : «ياحجاج، ما هذا الخبر الذى جئت به» ؟ قلت : هل

(١) يعنون رسول الله، صلى الله عليه وسلم.

(٢) التبطوا : أسرعوا فأحاطوا بها.

عندك حفظٌ لما وضعتُ عنـدك»؟ قـال: «نعـم». قلـت: «فاستأخِرْ عنى حتى أفرُغ». (قال): فلما فـرغت مـن جمع كل شىء كان لى بمكة وأجمعت الخروج، لقيت العباس فقلـت: «احفظ علىّ حديثى يا أبا الفضـل - فـإنى أخشى الطلب - ثلاثًا، ثم قل ماشئت». قـال: «أفعـل». قلـت: «فـإنى - والله - تركت ابن أخيك عروسًا على بنت ملكهم - يعنى صفية بنت حيى بن أخطب - ولقـد افتتح خيبر وانتَشَل[1] ما فيها وصارت له ولأصحابه». قال: «مـا تقـول يـاحجاج»! قلت: «إى والله، فاكتمْ عنى، ولقـد أسـلمت، ومـا جئـت إلا لآخذ مالى فَرَقًا[2] من أن أغلب عليه. فـإذا مضـت ثلاث فأظهرْ أمرك، فهو - والله - على ما تحب»..

(قال): وسرت.. حتى إذا كان اليوم الثالث، لبس العباس حلة له، وتخلّق[3]، وأخذ عصـاه، ثم خـرج حـتى أتى الكعبة فطاف بها. فلما رأوه قـالوا: «يـا أباالفضل، هـذا - والله - التجلد لحرِّ المصيبة». قال: «كلا! والله الذى حلفتم بـه لقـد افتتح محمد خيبر، وتُرِك عروسًا على ابنة ملكهم، وأحرز أموالهم

---

(١) انتشل: استخرجه وأحرزه.

(٢) فرقًا: خوفًا.

(٣) تخلق: تعطر وتطيب.

وما فيها فأصبحت له ولأصحابه». قالوا: «من جاءك بهذا الخبر»؟ قال: «الذى جاءكم بما جاءكم به، ولقد دخل عليكم مسلمًا فأخذ ماله وانطلق، ليلحق بمحمد وأصحابه فيكون معه». قالوا: «ياالعباد الله!! انْفَلَت عدو الله: أما - والله - لو علمنا لكان لنا وله شأن!».. ولم يلبثوا أن جاءهم الخبر»[1].

كان انتصار المسلمين على يهود خيبر موضع دهشة الناس وعجبهم

هكذا كان وقع الخبر شديدًا على نفوس قريش، ولا شك أنه كان كذلك مذهلا وعجيبًا؛ فإن قريشًا لم تكن تتوقع أن تنهار خيبر بهذه السرعة، وهى ما هى من القوة والمنعة والحصانة، ولم تكن تظن أن محمدًا وأصحابه يبلغون من القوة هذا المبلغ العجيب.. والحق أن انتصار المسلمين على يهود خيبر يدعو إلى التفكير والتأمل؛ فقد كان اليهود من القوة الظاهرة بحيث لم يكونوا يُغْلبون: كانت عِدَّتهم عشرة آلاف مقاتل مدربين على فنون القتال؛ وكانوا أقوى الطوائف الإسرائيلية بأسًا فى الحرب، ومهارة فى الرمى، وشجاعة فى القتال؛ وكانت لهم حصونهم القوية، وآلاتهم الثقيلة، وزادهم الوفير؛ وكانت لديهم

(١) نهاية الأرب.

كل أسباب الحمية التى تدعو إلى الاستماتة فى القتال، من حماية للحُرَم، وذَوْد عن الوطن، ودفع للعدوان.. ولم يكن المسلمون فى عددهم يزيدون على ألف وستمائة، ولم يكن معهم من آلات القتال سوى السيوف والرماح والقِسِيِّ والسهام، ولم يكن وراءهم حصن يحتمون به ولا ظهر يلجأون إليه، وكانوا على ذلك فى قلة من الطعام وشح من القوت وبعد من المدد.

ومع كل هذا التباين الواضح بين الفريقين فى العدد والعدة، وفى المنعة والقوة؛ ومع هذا الفارق الملموس فى تكافؤ الفرص وتهيؤ الأسباب، انتصر المسلمون على اليهود هذا الانتصار الباهر.. أليس هذا أمرًا يدعو إلى التأمل والتفكير؟

لا شك أن ذلك النصر العجيب قد بهر قريشًا وأذهلها، وبهر معها العرب وغير العرب فى أنحاء الجزيرة. ولعل ما كان من إذعان يهود فدك وتيماء دون قتال، وما كان من انهيار وادى القرى واستسلامها بهذه السرعة، كان أثرًا من آثار هذا البَهْر الذى أخذ بألباب الناس فأذهلهم، وملأ قلوبهم بالرعب من هذه القوة الخارقة، التى لا تقوم لها كثرة ولا تعوقها حصون، ولا يحول بينها وبين الوصول إلى غاياتها شىء من الأشياء. ولقد كان يهود خيبر من الثقة بأنفسهم بحيث لا يظنون أن رسول الله يغزوهم، ﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللهِ فَأَتَاهُمُ اللهُ

مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وقَذَفَ فى قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾[1].

نعم، فقد كان الرعب الذى قذفه الله فى قلوب اليهود، من أهم العوامل فى ظهور المسلمين عليهم. وصدق رسول الله ﷺ إذ يقرر هذه الحقيقة فيقول: "نُصِرْت بالرعب مَسِيرَة شهر».. ويعجبى فى هذا المقام قول القرطبى فى تفسير قوله تعالى: ﴿وأخْرَى لم تَقْدِروا عليها قَدْ أحاط اللهُ بها﴾؛ وذلك إذ يقول - بعد أن رجَّح أنها خيبر وعدَها الله نبيَّه قبل أن يفتحها -: «معنى قد أحاط الله بها: أى أعدها لكم، فهى كالشىء الذى قد أحيط به من جميع نواحيه فهو محصور لا يفوت، فأنتم وإن لم تقدروا عليها فى الحال فهى محبوسة عليكم لا تفوتكم». وسواء أكان المقصود خيبر أم سواها مما كان من الفتوح الإسلامية بعد خيبر، فإنه تصوير دقيق لما كان من تأييد الله للمسلمين، فيا فتحه عليهم من أقطار الأرض.

قضت غزوة خيبر على استقلال اليهود ونفوذهم فى الحجاز

كان من نتائج خيبر أن قُضى قضاء تامًا على القوة السياسية والاقتصادية والدينية التى كانت لليهود فى أقاليم الحجاز، وأخذت ظلالهم تتقلّص شيئًا فشيئًا حتى امَّحت آثارهم تمامًا؛ فقد بقى

(1) سورة الحشر الآية ٢.

اليهود على عهد رسول الله ﷺ فى الأرض يعملون بها على ما عاهدهم عليه، فلما تَوَفى الله نبيَّه أقرها أبو بكر بأيديهم على المعاملة التى عاملهم عليها الرسول حتى تُوُفى؛ وأقرها عمر صَدْرًا من إمارته؛ ثم بلغ عمر أن رسول الله قال فى وجعه الذى قُبض فيه : «لا يجتمعنَّ بجزيرة العرب دينان».. ففحص عمر عن ذلك حتى بلغه الثَّبْت، فأرسل إلى اليهود فقال : «إن الله، عز وجل، قد أذن فى إجلائكم؛ فقد بلغنى أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قال : «لا يجتمعن بجزيرة العرب دينان»؛ فمن كان عنده عهد من رسول الله من اليهود فليأتنى أُنْفِذه له، ومن لم يكن عنده عهد من رسول الله من اليهود فليتجهز للجلاء».. فأجلى عمر من لم يكن عنده عهد من رسول الله ﷺ منهم. وقد أخرج عمر يهود خيبر وفدك، ولم يخرج أهل تيماء ووادى القرى لأنهما داخلتان فى الشام.. وكان عمر يرى أن ما دون وادى القرى إلى المدينة حجاز، ومن وراء ذلك الشام. «وقد بقيت الأغلبية لليهود فى وادى القرى إلى القرن الحادى عشر، وكذلك وُجدت طوائف منهم فى جهات تيماء فى القرن الثانى عشر للميلاد، ثم انعدم وجودهم فى الحجاز وأطرافها شيئًا فشيئًا، حتى اختلطوا فى بقية الأعراب واندمجوا فيهم»[1].

---

(١) تاريخ اليهود فى بلاد العرب بتصرف، والبداية والنهاية لابن كثير.

أيقن العرب بعد هذه الغزوة أن لاحيلة لهم فى مقاومة هذا الدين

وكما قضت غزوة خيبر على استقلال اليهود ونفوذهم، قضت على عنفوان قريش وكبريائها، ووَقّفتها أمام قوة الإسلام ذاهلة مغلولة اليدين، لا تدرى ماذا تصنع حيال هذا السيل الجارف الذى لا تستطيع له صدًّا، وهذا القضاء النازل الذى لا تملك له ردًّا. وهكذا أيقنت قريش وأيقن العرب معها أن لا حيلة لهم فى مقاومة هذا الدين، فاستسلموا لواقع الأمر، ولم يعد هناك من يفكر فى مناوأة الإسلام من أهل الجزيرة غير شرذمة قليلة من أعراب البوادى، جعلوا يتعرضون له كما يتعرض الغُثَاء فى طريق السيل، فيكتسحه السيل أمامه ثم يُلقى به على جوانبه. وكان لابد لهؤلاء أن تنالهم عصا التأديب؛ فكان رسول الله ﷺ يبعث إلى هنا وهناك سراياه فى فرق كفرق الشرطة، لتوطيد الأمن، وتمكين الدعاة إلى الله من أن يجوبوا الآفاق بتعاليم الرسالة، دون غدر أو خيانة.

مكاتبة الملوك

كانت دولتا الفرس والروم تتنازعان سيادة العالم فى ذلك الحين

شرع رسول الله ﷺ فى أعقاب صلح الحديبية يكاتب الملوك والأمراء من حوله، ليدعوهم إلى الإسلام. وكانت الدول العظيمة البارزة فى ذلك الحين هى الفرس والروم والحبشة، وكانت الفرس دولة مجوسية تدين بعبادة النار، وكانت الروم والحبشة نصرانيتين. وكان بين الفرس والروم تنافس شديد على سيادة العالم حينذاك، وكان بينهما من أجل ذلك حروب طاحنة، تَغْلِب فيها الفرس أحيانًا وتغلب فيها الروم أحيانًا، حتى انتهى الأمر بينهما على الصلح، وأن تقف كل دولة عند حدودها. أما ما عدا هذه الدول الثلاث فكانت دولا وإمارات صغيرة، بعضها خاضع للفرس، وبعضها خاضع للروم، وبعضها مستقل بنفسه؛ فكانت اليمن والعراق تحت نفوذ الفرس، وكانت الشام ومصر تحت نفوذ الروم، وكانت اليمامة وعمان والبحرين إمارات مستقلة.

أما تهامة والحجاز ونجد والطائف وما يحيط بها فى قلب الجزيرة، فلم تكن تربطها بهاتين الدولتين سوى الصلة التجارية، ولكن العاطفة الدينية كانت تجعل هوى المشركين مع الفرس، وتجعل هوى المسلمين مع الروم، فكان المشركون والمسلمون جميعًا يتابعون أخبار القتال بين الفرس والروم باهتمام وشغف، وكل منهما يجرى على سجيته فى الانتصار لحزبه، فالمشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم لأنهم أصحاب أوثان، والمسلمون يحبون أن يظهر الروم على فارس لأنهم أهل كتاب. وقد حدث فى عام ٦٢١ - وكان ذلك قبل الهجرة بعام واحد - أن غزا الفرس أرض الروم، فغلبوهم، واستولوا على الشام ومصر، وأمعنوا فى آسيا الصغرى حتى هددوا «بِيزَنْطِيَة» عاصمة الروم، ففرح المشركون وابتهجوا، وتفاءلوا بانتصار الوثنية على التوحيد، فأنزل الله تعالى صَدْر سورة الروم، يبشر المؤمنين بأن الروم سيغلبون الفرس بعد قليل، وذلك إذ يقول سبحانه: ﴿الٓمٓ * غُلبتِ الرُّومُ * فى أَدْنى الأَرْض وَهمْ منْ بعْدِ غلبهمْ سيَغْلِبُون * فى بِضْع سنين لله الأمْرُ مِنْ قبْلُ ومِنْ بعْدُ وَيَوْمَئِذ يَفْرَحُ المُؤمِنُون * بِنصْر الله يَنصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ العَزيزُ الرَّحِيمُ * وَعْدَ الله لاَيُخْلِف الله وَعْدَهُ ولَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاس لاَيَعْلَمون﴾[١].

(١) سورة الروم الآيات ١ - ٦.

وقد تحقق وعد الله للمؤمنين، فغلب الروم فارس فى عام ٦٢٦ من الميلاد، واستردوا كل ما أخذ الفرس منهم، ففرح المؤمنون يومئذ بنصر الله.

كان العالم كله كالقطيع الضال يسير فى الظلمات

هكذا كانت الأوضاع السياسية للعالم الشرقى فى ذلك الحين. أما الأوضاع الخلقية والاجتماعية فكانت أسوأ الأوضاع؛ وقد ذكرنا من قبل كيف كانت الأخلاق منحلة، والأوضاع الاجتماعية فاسدة؛ وكيف كان الظلم والإثم والفجور طابع المجتمع فى كل أمة؛ وكيف سادت الفوضى فى العقائد، وشاعت الوثنية فى الأديان، وسيطرت الخرافات والأوهام على العقول؛ وكيف رخُصت النفوس وهانت الأعراض، وصار السلب والنهب والقتل والانتقام من مفاخر الأقوياء. ولم يكن العالم الغربى يقل فى حاله فسادًا عن العالم الشرقى، حتى بلغت البشرية الدرك الأسفل، وأصبحت كالقطيع الضال يسير فى الظلمات.

كان لابد لهذا القطيع أن يسمع صوت الراعى ليهتدى إلى الطريق، وكان لابد له أن يستضىء بقَبَس من النور ليستطيع السير على هداه. وهكذا أخذ الراعى يُهيب بالقطيع ليهتدى، ويرسل إليه النور ليستطيع السير. وكان ذلك الراعى هو

« محمد » خاتم النبيين ورسول الله إلى الناس كافة، وكان عليه وقد أسمع صوته إلى أمته من العرب أن يُسمع صوته إلى كل أمم الأرض. « وكان من سنن الطبيعة أن يبدأ بمن حوله من الممالك، فقد كانت هذه البلاد تربطها بالعرب صلات، وكانت لها مدنيات جديرة بأن يهذبها الإسلام ويصلح ما فيها من فساد، حتى تكتمل حضارتها ويستقيم عِوَجها »[1].

وهكذا أخذ رسول الله ﷺ يكاتب هذه الأمم فى أشخاص ملوكها بدعوة الإسلام، ليخرجهم من الظلمات إلى النور.

النبي يبلغ رسالته إلى الأمم فى أشخاص ملوكها ليرشدهم إلى الطريق

وحين عزم صلى الله عليه وسلم على ذلك الأمر، اتخذ لنفسه خاتَمًا من فضة نَقْشُهُ « محمد رسول الله »، وكتب لكل ملك كتابًا يدعوه فيه إلى الإيمان بالله وحده لا شريك له، ويذكره بأن السلامة والسعادة فى الإيمان وحده، ويكلفه أن يبلغ هذه الدعوة إلى أمته، فإن تولَّى فعليه إثم نفسه وإثم مَن وراءه من الناس؛ ثم يختم الكتاب بخاتمه ويبعث به رجلا من أصحابه.. فبعث دِحْيَة بن خليفة إلى قيصر ملك الروم، وبعث

(١) لواء الإسلام (شعبان سنة ١٣٧٦) : الشيخ محمد البنا.

عبد الله بن حُذافة إلى كسرى ملك فارس، وبعث عمرو بن أمية إلى النجاشي ملك الحبشة، وبعث حاطب بن أبي بَلْتَعَةَ إلى المقَوْقِس عظيم القبط، وبعث شجاع بن وهب إلى الحارث الغسانى ملك تخوم الشام. وكان هؤلاء الرسلُ الستة أول من بعث رسولُ الله من أصحابه إلى الملوك من حوله.

فأما النجاشي ملك الحبشة فأسلم، وأخذ كتاب رسول الله فوضعه على عينيه، ونزل عن سريره فجلس على الأرض وقال: «لو كنت أستطيع أن آتيه لأتيته». ثم كتب إلى رسول الله بإسلامه وتصديقه.

وأما كسرى ملك فارس فأخذ الكتاب فمزقه، وكتب إلى نائبه على اليمن - وكان يدعى باذان - أن يبعث إلى هذا الذى يدّعى أنه نبي فيأتيه به. فبعث باذان رجلين من أجلد رجاله، ليأتياه برسول الله، صلى الله عليه وسلم.. فلما قدما على رسول الله كره ما رآهما عليه من مظهر التخنُّث والنعومة، فقال لهما: «من أمركما بهذا»؟ قالا: «ربنا» - يقصدان كسرى - فقال لهما: «أبلغا صاحبكما أن ربى قتل ربه كسرى فى هذه الليلة» ويقول الرواة: إن هذه الليلة كانت ليلة الثلاثاء، لعشر مضَيْن من جمادى الأولى سنة سبع من الهجرة - فرجعا إلى باذان فأخبراه بما سمعا من رسول الله، صلى الله عليه وسلم.. وما هو

إلا أن أتاه الخبر بقتل كسرى على يد ابنه شِيرَوَيْه؛ فأسلم باذان، وأسلم من معه باليمن من أبناء الفرس.

وأما المقوقس عظيم القبط فقرأ كتاب رسول الله وقال خيرًا، ثم احتفظ بالكتاب عنده فى وعاء من عاج وختم عليه، وكتب، إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يقول: «أما بعد، فقد قرأت كتابك، وفهمت ما ذكرت فيه وما تدعو إليه، وقد علمت أن نبيًّا قد بقى، وكنت أظنه يخرج بالشام، وقد أكرمت رسولك، وبعثت لك بجاريتين لهما مكان عظيم فى القبط، وقد أهديت لك كسوة وبغلة تركبها والسلام». ولم يزد المقوقس على هذا، فقبل رسول الله هديته، وتَسَرَّى إحدَى الجاريتين - وهى مارية - فولدت له ولده إبراهيم.

قيصر يتحرى حقيقة النبى

وأما قيصر ملك الروم فأراد أن يستوثق من أمر هذا النبى ويعرف حقيقته فبعث إلى جماعة من تجار العرب الذين يأتون الشام فأحضرهم. وكان فيهم أبو سفيان بن حرب، ولم يكن قد أسلم بعد، فجعل يسأله عن رسول الله ﷺ ويتقصى أمره كله. فلما تبين له أنه رسول من الله رغب فى الإسلام، وعرضه على من عنده من عظماء الروم فرأى منهم نفورًا شديدًا، فتظاهر بأنه

إنما كان يمتحن إيمانهم ومبلغ تمسكهم بدينهم. ولا بأس أن نورد هنا ما رواه البخارى من حديث قيصر وأبى سفيان، فإن فيه صورة واضحة من صور التحرى الدقيق، ومثلا لمن شاء أن يقف على معالم الحق، ويتبين وجه الصواب فيما ينزل به من الأمور الجسام.

روى البخارى - بسنده إلى عبد الله بن عباس - «أن أبا سفيان بن حرب أخبره أن هِرَقْلَ أرسل إليه فى ركب من قريش كانوا تجارًا بالشام، فى المدة التى كان رسول الله ﷺ مادًّ[1] فيها أبا سفيان وكفار قريش، فأتوه وهم بإيليَاء، فدعاهم فى مجلسه وحوله عظماء الروم، ثم دعاهم ودعا بترجمانه فقال: أيكم أقرب نسبًا بهذا الرجل الذى يزعم أنه نبى؟ (قال أبوسفيان): فقلت: أنا أقربهم نسبًا. فقال: أدنوه منى، وقرّبوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره. ثم قال لترجمانه: قل لهم: إنى سائل هذا عن هذا الرجل، فإن كذَبنى فكذّبوه. (قال أبوسفيان): فلولا الحياء من أن يأثُروا علىَّ كذبًا لكذبت عنه.

ثم كان أول ما سألنى عنه أن قال: كيف نَسَبُه فيكم؟

قلت: هو فينا ذو نسب.

قال: فهل كان من آبائه من ملك؟.. قلت: لا

---

(١) ماد فيها: جعل بينه وبينهم مدة يتهادنون فيها، وهى مدة صلح الحديبية.

قال : فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله ؟ . . قلت : لا.

قال : فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ؟ . . قلت : بل ضعفاؤهم[1].

قال : أيزيدون أم ينقصون ؟ . . قلت : بل يزيدون.

قال : فهل يرتد أحد منه سَخْطَةً[2] لدينه بعد أن يدخل فيه ؟ . . قلت : لا.

قال : فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ . . قلت : لا.

قال : فهل يغدِر ؟ . . قلت : لا، ونحن منه فى مدة[3] لا ندرى ما هو فاعل فيها. (قال) ولم تمكنى كلمة أدخل فيها شيئًا غير هذه الكلمة.

قال : فهل قاتلتموه ؟ . . قلت : نعم.

قال : فكيف كان قتالكم إياه ؟ . . قلت : الحرب بيننا وبينه سجال، ينال منا وننال منه.

قال : ماذا يأمركم ؟ . . قلت : يقول : اعبدوا الله وحده

---

(١) الضعفاء هنا : الفقراء والعامة.

(٢) سخطه : كراهة له.

(٣) هى مدة صلح الحديبية.

ولا تشركوا به شيئًا، واتركوا ما يقول آباؤكم؛ ويأمرنا بالصلاة، والصدق، والعفاف، والصلة.

فقال لترجمانه: قل له:

سألتك عن نسبه، فذكرت أنه ذو نسب فيكم.. وكذلك الرسل تُبعث فى نسب قومها.

وسألتك: هل قال أحد منكم هذا القول؟ فذكرت أن: لا. فقلت: لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت: رجل يتأسى بقول قيل قبله.

وسألتك: هل كان من آبائه من ملك؟ فذكرت أن: لا.. قلت: فلو كان من آبائه من ملك قلت: رجل يطلب ملك أبيه.

وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فذكرت أن: لا.. فقد أعرف أنه لم يكن ليذَرَ الكذب على الناس ويكذب على الله.

وسألتك: أأشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟.. فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه.. وهم أتباع الرسل.

وسألتك: أيزيدون أم ينقصون؟ فذكرت أنهم يزيدون.. وكذلك أمر الإيمان حتى يتم.

وسألتك: أيرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل

فيه؟ فذكرت أن لا.. وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب..

وسألتك: هل يغدر؟ فذكرت أن: لا.. وكذلك الرسل لا تغدر.

وسألتك: بم يأمركم؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة، والصدق، والعفاف.. فإن كان ما تقول حقًّا فسيملك موضع قَدَمَيَّ هاتين.. وقد كنت أعلم أنه خارج، ولم أكن أظن أنه منكم[1]؛ فلو أنى أخلُص إليه لتجشَّمت لقاءه؛ ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه[2].. ولكن قيصر حين رأى نفور الروم خاف على ملكه أن يُفلت منه.

* * *

وأما الحارث الغسانى فقرأ كتاب النبي ثم رمى به، وعزم أن يسير إليه ليقاتله، وكتب بذلك إلى قيصر؛ فكتب إليه قيصر ألا يفعل.

---

(١) يعنى بهذا أنه كان يعلم مما كان يقرأ فى كتبهم أن نبيًا سيظهر، ولكنه لم يكن يظن أنه من العرب.

(٢) يعبر بهذا عن شدة شوقه إلى لقاء الرسول ومبلغ استعداده لاتباعه، لولا ما يحيط به من الظروف.

وأما ملك اليمامة فظن أن الأمر مُلك لا نبوَّة، فطمع أن يكون له بعض هذا الملك، وكتب إلى النبي، صلى الله عليه وسلم، يقول: "ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله.. فاجعل لى بعض الأمر أتبعك". فلما قرأ النبي كتابه قال: «لو سألنى سَيَابَةً[1] من الأرض ما فعلت».

فهؤلاء الملوك الستة هم الذين بعث إليهم رسول الله ﷺ سنة سبع.

وفى سنة ثمان بعث العلاء بن الحضرمى بكتاب إلى المنذر ابن ساوَى - ملك البحرين - فأسلم. وبعث عمرو بن العاص إلى ملكى عمان: فأسلما. وبعث المهاجر بن أبى أمية إلى الحارث الحميرى - ملك صنعاء - فأسلم. وبعث أبا موسى الأشعرى ومعاذ بن جبل إلى اليمن داعيين إلى الإسلام، فأسلم عامة أهل اليمن. وكتب صلى الله عليه وسلم إلى جَبَلَة بن الأيْهم - ملك غسان - يدعوه إلى الإسلام، فأسلم، ثم ارتد عن الإسلام فى خلافة عمر بن الخطاب.

---

(١) السيابة: البلحة.

كانت كتابة النبي إلى من حوله من الملوك دليلا على ثقة النبي بظهور الحق على الباطل

ولعل مما يدعو إلى العجب أن يُقدِم رسول الله ﷺ على دعوة هؤلاء الملوك، والإسلام لم ترسخ أقدامه بعد فى أرض الجزيرة، ولم تتوطد له دعائم القوة والسلطان، حتى يستطيع أن يناوئ من يناوئه من هؤلاء الملوك، ذوى الحول والطول والقوة والجبروت؛ ولكنه كان موقنًا كل اليقين بأن الله مظهر دينه ومَعْلٍ كلمته، ومنجز له ما وعده من النصر والفتح، وأن كل ما عليه ـ لكى ينجز الله له وعده ـ أن يبلغ دعوته إلى الناس كافة، وألا يألو فى ذلك جهدًا ولا يدخر وسعًا: ﴿إنْ عليك إلاَّ البلاغُ﴾.

ومن أجل ذلك لم يتردد رسول الله ﷺ فى أن يكتب بدعوته إلى ملوك العرب والعجم، على ما كان لهؤلاء وهؤلاء من سعة الملك وبسطة السلطان؛ ولعله قد أحس من أصحابه تهيبًا لهذا العمل الجرىء، وترددًا فى الإقدام على استفزاز هذه الدول الكثيرة بأموالها ورجالها وقوتها وعتادها، فخرج عليهم ذات يوم فقال لهم: «إن الله بعثنى رحمة للناس كافة، فأدُّوا عنى يرحمكم الله، ولا تختلفوا علَّى كما اختلف الحواريون على عيسى

ابن مريم». قالوا: "وكيف كان اختلافهم يا رسول الله"؟ قال: «دعاهم إلى الذى دعوتكم إليه، فأما من بعثه مَبعثًا قريبًا فرضى وسلم، وأما من بعثه مبعثًا بعيدًا فكره وجهه وتثاقل».

يقول مولاى محمد على: "كانت ثقة النبى وإيمانه بالنصر لا يتزعزع، وكان واثقًا وثوق اليقين من أن الإسلام سوف ينتشر ويسود، حتى يعم نوره كل فجاج العالم؛ فعلى الرغم من هذا الضعف البادى يدعو النبى ملوك العالم الأقوياء إلى اعتناق دينه، وما كان ذلك إلا لثقته وإيمانه بقوة ربه.. وهذا أجمل رد على أولئك النفر من المسلمين، الذين يتشككون فى نجاح دعوة الإسلام فى عالم الغرب، بحجة أن الإسلام مفتقر اليوم إلى قوة دنيوية، وإلى إمبراطورية عظيمة تظاهره؛ ولكن الحقيقة الناصعة ليست فى حاجة إلى من يظاهرها.. إنها هى نفسها قوة هائلة لا سبيل إلى قهرها".

حقيقة ينبغى أن يتدبرها المسلمون الآن

وما أجدر المسلمين الآن بتدبر هذه الحقيقة! إن العالم فى أيامنا هذه متعطش إلى الدين تعطش الظمآن إلى زلال الماء؛ فإن المادية التى طغت على العالم فى أيامنا، لا تختلف فى جوهرها عن المادية التى طغت على العالم أيام ظهور الإسلام.

وما أشبه الدول الكبرى فى تضخمها الآن، بما كانت عليه الروم والفرس من التضخم أيام الرسول! وكما انهار ذلك البناء الضخم فى لمحة الطرف أمام قوة الإسلام، فليس ببعيد أن يغزو الإسلام أوربا وأمريكا فتنهار أمامه قواها، كما انهارت أمامه من قبل قوى الفرس والروم. والدنيا دُوَل، والتاريخ يعيد نفسه، والزمن موجات من الروحانية والمادية، ومن الإيمان والإلحاد، يتلو بعضها بعضًا. ولعل هذه اليقظة التى أخذت تدب فى العالم الإسلامى اليوم، بشير بأن موجة الإيمان قد أخذت فى الظهور، وأن موجة المدنية المادية التى أغرقت العالم حينًا من الدهر، قد آذن عهدها بالزوال، ﴿وتلكَ الأيَّامُ نُداوِلها بَيْنَ الناس﴾.

عُمْرة القضاء

استغرقت غزوة خيبر نحو شهر ونصف شهر، فقد ذهب النبي ﷺ إليها فى أوائل المحرم من السنة السابعة، ورجع منها فى أواخر صفر، فأقام بالمدينة شهرى ربيع وشهرى جمادى ورجبا وشعبان ورمضان وشوالا. وقد مرت هذه الأشهر الثمانية هادئة لم تقع فيها حوادث ذات بال، إلا ما كان من مناوشات بعض قبائل الأعراب فى البادية، مما كان يدعو رسول الله إلى بعث السرايا لتأديبهم، أو لقطع الطريق عليهم. ومع أن بعض هذه السرايا قتل فيها رجال من المسلمين، فإن الأمور فى جملتها ظلت تسير من حسن إلى أحسن، وظلت هيبة الإسلام تتوطد فى النفوس، ودائرته تتسع فى الأرجاء.

الرسول يحتاط لما عسى أن يكون من غدر قريش

فلما أهل شهر ذى القعدة من هذه السنة، أعد رسول الله ﷺ عدته لعمرة القضاء، وهى العمرة التى اعترفت له بها

قريش فى صلح الحديبية؛ فأمر أصحابه أن يتهيأوا لقضاء عمرتهم، وألا يتخلف أحد ممن شهد الحديبية، فلم يتخلف من أهلها إلا من مات أو قتل فى خيبر. وخرج مع رسول الله ﷺ قوم من المسلمين عُمَّارًا ممن لم يشهد الحديبية، فكان المسلمون فى هذه العمرة ألفين سوى النساء والصبيان. واستخلف رسول الله ﷺ على المدينة أبا ذر الغفارى، وساق من الهدى ستين بدَنَة وأحرم من باب المسجد، ثم سار يلبى والمسلمون معه يلبون.

وكان الشرط ألا يحمل المسلمون معهم سوى السيوف فى أغمادها؛ ولكن رسول الله ﷺ خشى غَدرة القوم، فحمل السلاح والبَيْض[1] والدروع والرماح، وقاد معه مائة فرس؛ وجعل على السلاح بشير بن سعد، وعلى الخيل محمد بن مسلمة. فلما انتهى إلى ذى الحلَيْفة[2] قدّم السلاح والخيل أمامه.

ومضى محمد بن مسلمة بالخيل إلى «مَر الظَّهْران[3]»، فوجد بها نفرًا من قريش، فسألوه عن سبب مجيئه بالخيل، فقال: هذا رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يصبِّح هذا المنزل غدًا

(١) البيض: جمع بيضة؛ وهى غطاء للرأس يصنع من حديد.

(٢) قرية بينها وبين المدينة نحو سبعة أميال.

(٣) موضع على مرحلة من مكة، أى على مسيرة يوم بالراحلة.

إن شاء الله. ورأوا سلاحًا كثيرًا مع بشير بن سعد، فخرجوا سراعًا حتى أتوا قريشًا، فأخبروهم بالذى رأوا من السلاح والخيل؛ ففزعت قريش وقالوا: "والله ما أحدثنا حدثًا، وإنا لعلى كتابنا وهدنتنا! ففيم يغزونا محمد فى أصحابه"؟

قريش تفزع من حمل السلاح

وبعثت قريش مكرز بن حفص فى نفر من قريش إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقالوا: "يا محمد، ماعُرفت صغيرًا ولا كبيرًا بالغدر! تدخل بالسلاح على قومك، وقد شرطت لهم ألا تدخل إلا بسلاح المسافر: السيوف فى القُرُب"؟ فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «إنى لا أدخل عليهم السلاح». فقال مكرز بن حفص: "هذا الذى تُعرَف به من البر والوفاء". ثم رجع سريعًا بأصحابه إلى مكة فقال لهم: "إن محمدًا على الشرط الذى شرط لكم". فلما سمعت قريش اطمأنوا وأفسحوا له الطريق ليقضى عمرته.

قريش تتهافت على رؤية الرسول وأصحابه وهم يعتمرون

وتقول بعض الروايات: إن قريشًا خرجت إلى رءوس الجبال وخلَّوا له مكة، وقالوا: لا ننظر إليه ولا إلى أصحابه.

ويقول بعضها : إنهم جعلوا ينظرون إليه من رءوس الجبال. ويقول بعضها : إنهم صفوا له عند دار الندوة ينظرون. ويقول بعضها : قعدوا له ممايلى الحِجْر : ويقول بعضها : إنما تغيب رجال من أشراف المشركين أن ينظروا إلى رسول الله غيظًا وحسدًا. . ومهما يكن من اختلاف الروايات فإنها مجمعة على أن أهل مكة كانوا يتشوَّفون لرؤية النبى وأصحابه وهم يدخلون مكة، فقد أشيع فى قريش أن محمدًا وأصحابه نهكتْهم حُمَّى يثرب، حتى ما يَتَباعَثون من العَجَف[1]، فكان الناس مدفوعين إلى أن ينظروا إلى هؤلاء الضعاف العجاف ليشمتوا بهم. وإذا كان بعض أشراف مكة قد دفعه الحقد إلى الخروج من مكة حتى لا ينظروا إليهم، فإن كثيرين من أهل مكة دفعهم حب الاستطلاع إلى أن ينظروا. فلما نظروا أغراهم النظر بالتأمل، وأسلمهم التأمل إلى العجب.

موكب الرسول يدخل مكة

والحق أنه كان منظرًا يدعو إلى التأمل والعجب معًا، فقد دخل النبى ﷺ مكة فى موكب يبهر العيون ويسحر الألباب، إذ هو على ناقته القصواء، والمسلمون متوشحون سيوفهم يحدقون به من كل جانب، ويسترونه من المشركين مخافة أن يؤذوه بشىء،

---

(١) ما يستطيعون النهوض لشدة ما بهم من الضعف والهزال.

وأصواتهم تَعِجُّ بالتلبية لله العلى الكبير: «لَبَّيْكَ اللهم لبيك»! وعبد الله بن روَاحة آخذ زمام ناقته، صلى الله عليه وسلم، وقد أخذته النَّشوَة والحميّة، فهو يرتجز بشعره بين يديه ويقول:

خلُّوا بنى الكفار عن سبيلهِ ! خلوا، فكل الخير فى رسولهِ !
قد أنزل الرحمن فى تنزيله بأن خير القتل فى سبيله
يارب إنى مؤمن بقيله[1] أعرف حق الله فى قبوله
اليوم نضربْكم على تأويله كما ضربناكم على تنزيله
ضربًا يزيل الهام عن مقيله[2] ويذهل الخليل عن خليله !

حتى إذا بلغ الحرم قال له رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «إيهًا يا ابن رواحة! قل: لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعز جنده، وهزم الأحزاب وحده».. فجعل ابن رواحة يقولها، والناس من ورائه يرددونها فى حماسة وقوة، فيتجاوب بها الصدى فى جنبات مكة، ويسمعها من فارقوا مكة لكيلا يسمعوها، ولا يروا ركب النبى يخطو فى نواحيها.

---

(١) بقيله: بقوله.

(٢) يزيل الهام: يزيل الرءوس عن مواضعها.

النبي وأصحابه يظهرون قوتهم لأعدائهم

وكان رسول الله ﷺ يعلم ما أشاعوا عنه وعن أصحابه من الضعف والوهن، فأوصى أصحابه ألا يرى القوم فيهم غَمِيزَة[1]، وأمرهم أن يكشفوا عن المناكب ويسعوا فى الطواف، ليرى المشركون جَلَدهم وقوتهم. ودخل صلى الله عليه وسلم المسجد مضْطَبِعًا[2] بردائه، والمسلمون معه مضطبعون بأرديتهم، فسار حتى استلم الحجر الأسود بِمِحْجَنِه[3] وقال: «رحم الله امرأ أراهم اليوم من نفسه قوة»! ثم انطلق يهرول حول البيت، وأصحابه يهرولون معه حتى انتهت الأشواط الثلاثة الأولى، ثم مشى بهم بقية الأشواط السبعة. وعجب المشركون لما رأوا من قوة المسلمين ونشاطهم، واستَكَفَّ الرجال والنساء والصبيان حول البيت ينظرون إليهم وهم يطوفون به، ويقول بعضهم لبعض: "أهؤلاء الذين زعمتم أن الحمَّى وَهَنتهم[4]؟ إنهم لَيَنْفِرون[5] كما تنفر الظباء".

---

(١) غميزة: شيئًا يدل على الضعف.

(٢) مضطبعًا: متلفعًا به بحيث يبقى الكتف والذراع الأيمن عاريين.

(٣) المحجن: عصا صغيرة لعلها كالتى يمسكها طلبة البوليس الآن.

(٤) وهنتهم: أضعفتهم.

(٥) ينفرون: يقفزون فى مشيهم قفز الغزلان من النشاط والقوة.

فلما انتهى الطواف ذهب رسول الله ﷺ بأصحابه إلى المسعى، فسعى على راحلته بين الصفا والمروة، حتى أتم السبعة الأشواط. فلما انتهى السعى عند المروة، وقف صلى الله عليه وسلم قال: «هذا المَنْحَر، وكل فِجَاج مكة منحر»[١] ثم نحر هَدْيه عند المروَة، وشَرِكه فى الهدْى من شهد الحديبية من المسلمين، فمن وجد بَدَنة من الإبل نحرها، ومن لم يجد نحر بقرة؛ وكانت الإبل قد عزَّت يوم ذاك، فرخَّص لهم رسول الله فى البقر. ثم حلق صلى الله عليه وسلم، وحلق أصحابه، وأحلُّوا بذلك من عمرتهم.

وكانت الخيل والسلاح قد تركت هناك فى مكان قريب يسمى «يَأجَج»[٢] وخُلِّف عندها مائتا رجل يحرسونها. فلما أتم المسلمون عمرتهم، بعث رسول الله ﷺ مائتين من أصحابه إلى بطن يأجج، ليقوموا على السلاح والخيل، ويرسلوا من خلفوا هناك من المسلمين، ليؤدوا مناسك العمرة.

بلال يؤذن فوق الكعبة

ثم إن رسول الله ﷺ دخل الكعبة وظل بها حتى جاء وقت الظهر، فأمر بلالا فأذّن فوق ظهر الكعبة، فغاظ ذلك المشركين

(١) المنحر: المكان الذى تذبح فيه الهدى.
(٢) يأجج: على ثمانية أميال من مكة.

غيظًا شديدًا، حتى غطى سهيل بن عمرو ورجال معه وجوههم حين سمعوا الأذان، وحتى قال عكرمة بن أبى جهل: «لقد أكرم الله أبا الحكم، فلم يسمع هذا العبد يقول ما يقول»! وقال صفوان بن أمية: «الحمد لله الذى أذهب أبى قبل أن يرى هذا»! وقال خالد بن أسيد: «الحمد الله الذى أمات أبى ولم يشهد هذا اليوم، حتى يقوم ابن أم بلال ينهق فوق الكعبة»! وقيل فى بعض الروايات: إنهم أبَوْا ذلك على رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وقالوا: لم يكن ذلك فى شرطك.

مظهر المسلمين يبهر قريشًا فتخشى أن يفتنها عن دينها

ومكث رسول الله ﷺ وأصحابه ثلاثة الأيام التى كانت لهم بالشرط، وهم يغدون ويروحون فى أرجاء مكة آمنين. وفى خلال هذه الأيام رأى أهل مكة من مظاهر القوة والتضامن بين المسلمين، ومن دلائل البر والمحبة والإخلاص بينهم وبين رسول الله، ما بهرهم وأدهشهم، وملأ قلوبهم إعجابًا بهذا الدين الذى جعل من الضعف قوة، ومن البغضاء محبة، ومن التنافر والتدابر ألفة واجتماعًا؛ وبهذا النبى الأمى، الذى استطاع أن يجعل من هذه الأشتات وحدة متماسكة، قوامها التعاطف والتساند، وهدفها

الخير والإصلاح، وأساسها العبودية والإخلاص لله وحده لا شريك له..

لقد خشي رجال مكة أن يفتنهم المسلمون عن دينهم، فما كادت تنتهى الأيام الثلاثة حتى أتى سهيل بن عمرو وحُوَيْطِب ابن عبد العزى يقولان لرسول الله، صلى الله عليه وسلم: «قد انقضى أجلك فاخرج عنا». وأراد رسول الله ﷺ أن يتألف قلوب القوم، وقد أحس ما فعل بها الإسلام، فقال لهما: «وما عليكم لو تركتمونى فأعْرَسْتُ[1] بين أظهركم، وصنعنا لكم طعامًا فحضرتموه»؟ فأدرك الرجلان ما هنالك من خطر عليهم وعلى دينهم، إذا تحدث محمد إليهم وتحدثوا إليه منذ اليوم، وأنهم إذا اجتمعوا به فى جو الوليمة الهادئ، وفى نشوة الأنس بهذا الصِّهْر الجديد، الذى يريد به أن يوطد الصلة ويُحكم الوشائج فيما بينه وبينهم، فإنهم لا ريب مهزومون له؛ وإنه ولا شك قادر على أن يملكهم بقوة نفسه وسحر بيانه، وأن يصدع ما بينه وبينهم من تلك الحواجز التى صنعوها بأنفسهم، ولا سيما بعد ما رأى الناس من آثاره وأياديه ما رأوا، وبعد أن هفَت قلوب كثيرة إلى الإسلام، وأخذت قلوب أخرى ترقّ ثم

---

(١) أعرس الرجل: إذا دخل بعروسه. وكان النبى قد خطب وهو فى مكة ميمونة بنت الحارث ولم يدخل بها بعد.

ترقّ حتى كادت تشفّ.

هكذا قدر الرجلان فقالا على الفور: «لا حاجة لنا فى طعامك! اخرج عنا! نَنْشُدُك الله والعهد الذى بيننا وبينك إلا خرجت عن أرضنا، فهذه الثلاث قد مضت»!.. وأثارت هذه الغلظة سعد بن عبادة سيد الأنصار، فقام غاضبًا إلى سهيل بن عمرو يقول له: «كذبت، لا أمَّ لك! ليست بأرضك ولا أرض أبيك! والله لا يبرح منها إلا طائعًا راضيًا».. فتبسم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ثم قال: «يا سعد، لا تُؤْذِ قومًا زارونا فى رحالنا». فانحسم بذلك الموقف وأمر رسول الله بالرحيل عن مكة، فرحل الجميع إلى «سَرِف»، وهو موضع من ضواحى مكة قرب «التنعيم»، على نحو تسعة أميال من مكة.

وكان صلى الله عليه وسلم قد خطب إليه ميمونة بنت الحارث، وكانت من كرائم النساء فى قريش، وكانت أختها - أم الفضل بنت الحارث - زوجة العباس بن عبدالمطلب؛ فتولى العباس زواجها للنبى، صلى الله عليه وسلم، فبَنى[1] بها فى سرف.

---

(١) بنى بها: دخل بها.

كانت عمرة القضاء غزوة مباشرة لقلوب أهل مكة

وهكذا غادر رسول الله ﷺ مكة وقد ترك فيها أثرًا عميقًا، وغزا نفوس الضعفاء والأقوياء من أهلها على السواء، وتفتحت لدينه قلوب عَصِيَّة لم تكن لتفتح له من قبل؛ «فريق منهم بهرهم وفاء النبي بعهده مع استطاعته نقضه، وفريق منهم راعهم سَمْت الدين ورَحِمِ الإسلام فيما بين المسلمين، وجمال ما بينهم وبين نبيهم من طاعة وتمكين؛ وفريق منهم علموا أن العاقبة للإسلام فجنحوا إلى طريق السلامة والسلام. وحسْبُك أن عمرة القضاء هذه قد جمعت فى آثارها من أسباب الإقناع بالدعوة المحمدية، ما أقنع خالد بن الوليد وعمرو بن العاص، وهما فى رجاحة العقل مثلان متكافئان، وإن كانا لا يتشابهان»[1].

---

(١) عبقرية محمد.

خالد وعمرو

كان خالد وعمرو من أفذاذ الرجال فى قريش ومن أشدهم عداوة لرسول الله

لعل رسول الله ﷺ لم يفرح برجلين أسلما بعد الهجرة، كما فرح بخالد بن الوليد وعمرو بن العاص؛ فقد أسلم الرجلان بعد عمرة القضاء، فى صفر سنة ثمان، فكان فرح رسول الله بإسلامهما، يكاد يعدل فرحه بإسلام عمر بن الخطاب وحمزة ابن عبد المطلب قبل الهجرة.

كان للرجلين فى قريش شأن أى شأن، وكانا من الدعائم القوية فى بنيانها؛ فأما عمرو فكان من أفذاذ العرب فى الدهاء والسياسة، وحسن التأتى للأمور؛ وأما خالد فكان من أفذاذ العرب فى أساليب القتال وفنون الحرب، وكانت إليه أعِنَّة الخيل فى الجاهلية. فلما أسلما فَتّ إسلامهما فى عَضُد قريش، وأحدث فى بنيانها ثغرة هائلة، فأخذ يترجح للسقوط حتى سقط بعد ستة

أشهر. وبمقدار ما ترك إسلامهما فى عزائم قريش من الوهَن، شد من عزائم المسلمين وقوى من دعائمهم.

كان كلا الرجلين يفكر فى هجر مكة

كان كلا الرجلين يحمل من الضغينة لرسول الله ﷺ ومن التأبّى عليه وعلى دينه، ما يحمله أشد أشراف قريش عداوة له واستكبارًا عليه؛ حتى إن خالدًا لم يُطق البقاء فى مكة ورسول الله يعتمر عمرة القضاء، فخرج منها ممعنًا فى البعد، حتى لا يرى ولا يسمع من أخباره شيئًا؛ وحتى أخذ منذ صلح الحديبية يفكر فى الأرض التى يأوى إليها، حين يتم الأمر لمحمد بدخول مكة، وكان على يقين أنه لابد أن يتم الأمر له.. يقول خالد: « .. فلما صالح قريشًا بالحديبية ودافعته قريش بالراح، قلت فى نفسى: أى شىء بقى ؟ أين المذهب؟ أإلى النجاشى؟ فقد اتبع محمدًا وأصحابه آمنون عنده!! أفأخرج إلى هرقل، فأخرج من دينى إلى نصرانية أو يهودية؟ أفأقيم فى عجم؟ أفأقيم فى دارى بمن بقى؟ ».. إنها الحيرة البالغة تملك على الرجل مذاهبه فلا يدرى أين يذهب.

كذلك كان عمرو يفكر فى الهجرة من الجزيرة كلها، كراهة لرسول الله ﷺ وتأبّيًا عليه، وفرارًا بنفسه وكرامته ودينه أن يقع تحت سلطان محمد. يقول عمرو: « .. فلما حضرت الحديبية

وانصرف رسول الله فى الصلح، جعلت أقول: يدخل محمد قابلا[1] مكة بأصحابه! ما مكة بمنزل ولا الطائف، ولا شىء خير من الخروج!.. وأنا بعدُ ناء عن الإسلام، وأرى لو أسلمت قريش كلها لم أسلم. فجمعت رجالا من قومى كانوا يرون رأيى، ويسمعون منى، ويقدموننى فيما نابهم، فقلت لهم: كيف أنا فيكم؟ قالوا: ذو رأينا ومِدْرَهُنا[2]، فى يُمن نفس وبركة أمر! قلت: تعلمون أنى - والله - لأرى أمر محمد يعلو الأمور علوًّا منكرًا؛ فقد رأيت أن نلحق بالنجاشى؛ فإن ظهر محمد كنا عند النجاشى.. نكون تحت يد النجاشى أحب إلينا من أن نكون تحت يد محمد! وإن ظهر قومنا فنحن مَن قد عرفوا، فلا يأتينا منهم إلا الخير. قالوا: هذا الرأى»..

هكذا كان الرجلان يفكران فى الهجرة من أرض العرب، حين استبان لهما أن نجم محمد دائب فى الصعود، وأن نجم قريش ممعن فى الهبوط، وأن دين محمد ظاهر لا محالة على دين قريش. ولكن الله الذى بيده مفاتيح القلوب، هيأ لكليهما من الأسباب ما فتح به قلبه، وأسرع به إلى الإسلام من حيث لا يحتسب[3].

(١) قابلا: فى العام القابل.

(٢) المدره: المتكلم والمحامى عن القوم.

(٣) من حيث لا يحتسب: من حيث لا يدرى ولا يقدر.

عمرو يتحول من نية الغدر إلى عزيمة الإسلام

فأما عمرو فقد هاجر إلى النجاشى فى رفقته الذين رافقوه، فصادف قدومُه قدومَ عمرو بن أمية على النجاشى، حاملا إليه كتاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم؛ فظن عمرو أنها فرصة يستطيع فيها أن يبطش برسول محمد، فيشفى بذلك غيظ قلبه، ويقدم إلى قريش يدًا لن تنساها له أبد الدهر..

يقول عمرو: «فقلت لأصحابى: هذا عمرو بن أمية! لو دخلت على النجاشى فأعطانيه فضربت عنقه، لرأت قريش أنى أجزَأت عنها بقتل رسول محمد!» فدخلت فسجدت له كما كنت أصنع؛ فقال: «مرحبًا بصديق! أهديت لى من بلادك شيئًا»؟ قلت له: «نعم، أدَما كثيرًا.. وقدمته إليه فأعجبه واشتهاه. فلما رأيت طيب نفسه قلت: «أيها الملك، إنى قد رأيت رجلا خرج من عندك، وهو رسول عدو لنا قد وتَرَنا، وقتل أشرافنا وخيارنا؛ فأعطنيه لأقتله». فغضب، ورفع يده فضرب بها أنفى ضربة ظننت أنه كسره.. فابتدر منخَراىَ[1]؛ فجعلت أتلق الدم بثيابى. فأصابنى من الذل ما لو انشقت بى الأرض دخلت فيها، فَرقًا منه. ثم قلت: «أيها الملك، والله

---

(١) فابتدر منخراى: سالا دما.

لو ظننت أنك تكره هذا ما سألته». قال: «أتسألنى أن أعطيك رسول رجل يأتيه الناموس الأكبر[1]، الذى كان يأتى موسى عليه السلام، لتقتله»؟

قال عمرو: فغيَّر الله قلبى عما كنت عليه، وقلت فى نفسى: عرف هذا الحقَّ والعربُ والعجم، وتخالف أنت؟ ثم قلت: «أتشهد أيها الملك بهذا»؟ قال: «نعم، أشهد به عند الله يا عمرو؛ فأطعنى واتبعه، فوالله إنه لعلى الحق، وليَظهَرن على من يخالفه، كما ظهر موسى على فرعون وجنوده»! قلت: «أتبايعنى له على الإسلام»؟ قال: «نعم»؛ فبسط يده فبايعنى على الإسلام، ثم دعا بطَسْت فغسل عنى الدم وكسانى ثيابًا، ثم خرجت عامدًا إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فلقيت خالد بن الوليد، وذلك قبل الفتح، فصحبته حتى قدمنا المدينة»..

وخالد يعتزم الفرار من الإسلام فيتحول قلبه إلى الإسلام

وأما خالد فقد ظل فى حيرته يفكر فى الوجه الذى يتجه إليه، حتى دخل رسول الله ﷺ مكة فى عمرة القضاء، فتغيب

(١) الناموس الأكبر: هو الملك الذى ينزل بالوحى على الرسل.

عنها فلم يشهد دخوله.. يقول خالد: «وكان أخى الوليد دخل معه، فطلبنى فلم يجدنى فكتب إلى كتابًا فإذا فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد، فإنى لم أر أعجب من ذهاب رأيك عن الإسلام وعقْلُك عقلك[1]، ومِثْلُ الإسلام لا يجهله أحد. وقد سألنى رسول الله عنك، فقال: أين خالد؟ فقلت: يأتى الله به. فقال: ما مثله يجهل الإسلام. ولو كان يجعل نكايته مع المسلمين على المشركين لكان خيرًا له، ولقدمناه على غيره! فاستدركْ يا أخى ما قد فاتك من مواطن صالحة». فلما جاءنى كتابه نشطت للخروج، وزادنى رغبة فى الإسلام، وسرتنى مقالة رسول الله، صلى الله عليه وسلم؛ ورأيت فى المنام كأنى فى بلاد ضيقة جدبة، فخرجت إلى بلاد خضراء واسعة..»

مصادفة سعيدة

«فلما أجمعت على الخروج إلى المدينة لقيت صفوان ابن أمية، فقلت يا أبا وهب، أما ترى أن محمدًا ظهر على العرب والعجم؟ فلو قدمنا عليه واتبعناه فإن شرفه شرف لنا! فأبى علىّ أشد الإباء، وقال: لو لم يبق غيرى ما أتبعه أبدًا؛ فقلت: هذا رجل موتور؛ قتل أبوه وأخوه ببدر. ولقيت عكرمة

(١) وأنت ذو العقل الراجح.

ابن أبي جهل، فقلت له مثل ما قلت لصفوان، فقال لي مثل ما قال صفوان؛ قلت: فاطْوِ ما ذكرت لك. قال: لا أذكره. ثم لقيت عثمان بن طلحة الحَجْبي[1] قلت: هذا لي صديق، فأردت أن أذكره، ثم ذكرت قتل أبيه طلحة وعمه عثمان وإخوته الأربعة، فإنهم قتلوا كلهم يوم أحد، فكرهت أن أذكر له. ثم ذكرت له ما صار الأمر إليه وقلت له: إنما نحن بمنزلة ثعلب في جحر، لو صب عليه ذَنُوب[2] من ماء لخرج. ثم قلت له ما قلت لصفوان وعكرمة، فأسرع الإجابة.. وأدْلجنا بسَحْرَة[3]، فلم يطلع الفجر حتى التقينا بيأجَج، فغدونا حتى انتهينا إلى «الهَدَّة»، فوجدنا عمرو بن العاص بها، فقال: مرحبًا بالقوم! قلنا: وبك! فقال: أين مسيركم؟ قلنا: الدخول في الإسلام. قال وذلك الذي أقدمني.. فاصطحبنا جميعًا حتى قدمنا المدينة».

الرسول يسر كثيرًا بإسلام البطلين ويعرف لهما مكانهما

فلما وصلوا المدينة أناخوا ركائبهم بظهر الحرّة، فأُخبر بهم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فسر بهم وقال لأصحابه:

---

(١) نسبة إلى الحجابة وهي القيام على مفاتيح الكعبة، وهي إحدى وظائف الشرف في خدمة البيت.

(٢) الذنوب: الدلو.

(٣) أدلجنا: خرجنا في ظلمة السحر، وهو آخر الليل.

« رَمَتْكم مكةُ بأفلاذ كبدها »[1] ! قال خالد : « فلبسنا من صالح ثيابنا، ثم عمدنا إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فلقيت أخى الوليد. فقال : أسرع، فإن رسول الله قد سر بقدومكم، وهو ينتظركم. فأسرعنا المشى فاطَّلَعت عليه. فما زال صلى الله عليه وسلم، يبتسم حتى وقفنا عليه؛ فسلمت عليه بالنبوة، فرد على السلام بوجه طلق. فقلت : إنى أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله ! قال : « الحمد الله الذى هداك ! قد كنت أرى لك عقلا رجوت ألا يسلمك إلا إلى خير ». قلت : يارسول الله، ادع الله أن يغفر لى تلك المواطن التى كنت أشهدها عليك ! فقال صلى الله عليه وسلم : « الإسلام يَجُبُّ ما كان قبله ». وتقدم عمرو وعثمان فبايعا رسول الله، صلى الله عليه وسلم ».

يقول عمرو بن العاص : « فوالله ما عدل بى رسول الله ﷺ وبخالد بن الوليد أحدًا من أصحابه فى أمر حَزَبه[2] منذ أسلمنا. ولقد كنا عند أبى بكر بتلك المنزلة، ولقد كنت عند عمر بتلك الحالة، وكان عمر على خالد كالعاتب ».

لقد اكتسب الإسلام بإسلام خالد وعمرو قائدين عظيمين،

---

(١) أى بخير أبنائها.

(٢) حزبه : أهمه.

وبطلين كريمين، قاما بدور مهم فى تاريخ الفتح الإسلامى، ولم يزل رسول الله ﷺ يولى خالدًا أعنَّة الخيل كما كان يتولاها فى الجاهلية، وقد سماه، صلى الله عليه وسلم: «سيف الإسلام»، فكان سيفًا سَلَّه الله على الكفار ماضيًا أبدًا، وعَزماته يوم مُؤْتَة، وفى قتال أهل الردة، وفى فتوح العراق والشام، أكثر من أن تحصى، وكان له فى جميعها البلاء الحسن والذكر الجميل.

سرية مُؤْتة

كانت غزوة مؤتة أثرًا من آثار دعوة الملوك إلى الإسلام

كانت فى جمادى الأولى من السنة الثامنة للهجرة (سبتمبر ٦٢٩م)، بعد عمرة القضاء بنحو خمسة أشهر. وقد سماها البخارى وابن إسحاق «غزوة مؤتة» لكثرة جيش المسلمين فيها، وإن لم يخرج فيها النبى، صلى الله عليه وسلم، ومؤتة قرية من قرى البلقاء، فى حدود الشام من ناحية الحجاز، على مرحلتين من بيت المقدس، شرقى البحر الميت.

وكانت هذه السرية أثرًا من آثار الدعوة التى وجهها رسول الله ﷺ إلى الملوك والعظماء، فى أطراف الجزيرة العربية وفيما حولها؛ فقد ذهب الرسل الذين بعثهم رسول الله بكتبه إلى كل ملك وعظيم من هؤلاء، فنهم من تلقى الدعوة بالقبول فأسلم؛ ومنهم من حالت ظروفه دون أن يستجيب لها، فلم يمنعه ذلك من أن يحسن لقاء الرسول ويكرم رفادته؛ ومنهم من تلقاها

بغلظة وجفاء، ولكنه لم يهن الرسول ولم يمسه بأذى.. ذلك أن العرف السياسى بين الدول يقضى بإكرام الرسل على كل حال؛ فإن الرسول ليس إلا مبلغًا عمن أرسله، فليس لأحد أن يسىء إليه مهما تضمنت الرسالة التى يحملها.

كانت هذه - ولا تزال - هى القاعدة الأساسية فى العرف الدولى، وعلى أساس هذه القاعدة بعث رسول الله ﷺ إلى الملوك والعظماء من حوله، فكلهم أكرم الرسل ولم يهنهم؛ غير أن شُرَحبِيل بن عمرو الغسانى - أحد عمال الروم على الشام - شذ عن الأصول فى هذه القاعدة، وكان شذوذه جافيًا خشنًا، مهينًا للكرامة جارحًا للشعور؛ فإنه لقى الحارث بن عمير - رسول النبى إلى أمير بُصْرى - فسأله عن وجهته، فلما عرف أنه من رسل محمد أمر به فأُوثِق رباطًا، ثم قدمه فضرب عنقه.

كان قتل رسول النبى إلى أمير بصرى تحديًا صريحًا واعتداء مباشرًا على الإسلام

فساء ذلك رسول الله ﷺ واشتد عليه، واعتبره تحديًا صريحًا، وأمرًا لا يحسن السكوت عليه، لا سيما والإسلام لا يزال يركز دعائمه فى أنحاء الجزيرة، ولا يزال فى أشد الحاجة إلى الاحتفاظ بكل ماله من هيبة. وكانت الفكرة التى رسخت

فى نفوس الناس حينذاك أن الإسلام قوة لا تغلب، وأنه مؤيد بروح من الله عز وجل؛ وتحت تأثير هذه العقيدة أسلم كثير من الناس رَغَبًا أو رَهَبًا، ولا سيما الأعراب فى البادية، فقد كان أكثرهم يسلمون تحت عامل الرعب من قوة الإسلام، أو تحت دافع الطمع فى غنائمه. ولم يكن إذعانهم إذعان تصديق وإيمان بما فى الإسلام من عقيدة صالحة وآداب كريمة؛ إنما كان إذعان المتربص الحريص، الذى يتحين الفرص ويستملى الظروف؛ وكانوا كما يقول الله تعالى: ﴿قالت الأعْراب: آمَنَّا قل لم تُؤمنوا ولكن قولوا: أسلمنا ولَمَّا يَدخُل الإيمان فى قلوبكم﴾[1]؛ وكما يقول سبحانه: ﴿ومنَ الأعْرابِ مَن يتَّخِذ ما يُنْفقُ مَغرمًا وَيتربَّص بكُم الدوائر﴾[2].

فكان صلى الله عليه وسلم لذلك حريصًا على ألا تُنْتقص هيبةُ الإسلام فى أية ناحية، وألا تتزعزع عقيدة الناس فيه على أى حال. وكان السكوت على قتل الحارث بن عمير أمرًا يحط من كرامة الإسلام وينتقص من هيبته؛ فكان لا بد من عمل يحفظ على الإسلام هيبته، ويُشعر الناس فى داخل الجزيرة وخارجها أن الإسلام قوة لا يستهان بها؛ ومن أجل هذا قرر

(١) سورة الحجرات الآية ١٤.

(٢) سورة التوبة الآية ٩٨.

رسول الله ﷺ أن يبعث سريته هـذه إلى الشـام، حيـث قتـل الحارث بن عمير، لتأديب ذلك المعتدى، وغسل ما لحق بـدولة الإسلام من مهانة فى شخص سفيرها إلى أمير بصرى.

إعداد الجيش ورسم الخطة

ونَدَب صلى الله عليه وسـلم النـاس فـأسرعوا، وعسـكروا «بالجرف» من أطراف المدينـة حـتى اكتملـوا ثـلاثة آلاف. فلما أعدهـم رسول الله وهيأهـم للقتال قال لهم: «أمير القوم زيد بن حارثة، فإن قتل فجعفر بن أبى طالب، فإن قتل فعبد الله بـن رواحة، فإن قتل فليرتَضِ المسـلمون بينهـم رجـلا فيجعلـوه عليهم». وأمرهم أن يأتوا مقتل الحارث بن عمـير فيـدعوا مَـن هناك إلى الإسلام، فإن أجابوا قبلوا منهم وكفوا عنهـم، وإن لم يستجيبوا استعانوا بالله عليهم وقاتلوهم. وأوصـاهم ألا يغـدِروا، ولا يقتلوا وليدًا ولا امـرأة، ولا كبـيرًا فـانيًا، ولا منعـزلا بصومعته؛ ولا يقربوا نخلا، ولا يقطعوا شجرًا، ولا يهدموا بناء.

الروم يستقبلون جيش المسلمين باستعداد هائل

وخرج الجيش مزوَّدًا بوصايا رسول الله ﷺ مشيعًا بـدعوات المسلمين؛ وخرج معه رسول الله، صلى الله عليـه وسـلم، حـتى

إذا بلغ ثَنِيَّة الوداع ودعه ثم عاد إلى المدينة. وكانت الخطة التى سار على أساسها الجيش أن يفاجئَ القوم ويأخذهم على غرة، ولكن القوم علموا بنبأ الجيش فأخذوا يستعدون له؛ وكان استعدادهم بالغًا غايته فى عدد الرجال وآلات القتال، وفى كل ما يَبْهر ويَرُوع من مظاهر القوة والغنى، والأبهة والسلطان، حتى ذهل رجال من المسلمين من هول ما رأوا من كثرة الروم وأُبَّهتهم وعظيم أهبتهم.

روى الواقدى - بسنده عن أبى هريرة - قال: شهدت مؤتة، فلما دنا المشركون منا رأينا مالا قبل لأحد به من العدة والسلاح والكُراع، والحرير والديباج؛ فَبرِق بصرى[1]، فقال لى ثابت بن أرقم: يا أبا هريرة، كأنك ترى جموعًا كثيرة.. قلت: نعم. قال: إنك لم تشهد بدرًا معنا، إنا لم نُنصر بالكثرة!

وتكاد تجمع الروايات على أن الروم استقبلوا المسلمين بمائتى ألف مقاتل، مائة ألف من الروم ومائة ألف من نصارى العرب التابعين لهم. ويذهب المؤرخون فى تعليل اجتماع هذا العدد الكثير مذهبين: فريق يقول إن هذا العدد إنما أُعد إعدادًا، وأن شرحبيل بن عمرو قام بجمع العرب وتجهيزهم حتى اجتمع له

---

(١) برق بصرى: تحير فلم يطرف.

أكثر من مائة ألف، وأن هرقل أمده من الروم بمائة ألف أخرى؛ وفريق يقول إن العدد الذى كان مع هرقل إنما جاء ليؤدى معه فريضة الحج إلى بيت المقدس، وللاحتفال باسترداد الصليب الأكبر بعد هزيمة الفرس. وسواء أكان هذا أم ذاك فإن لقاء المسلمين بمثل هذا العدد الضخم، يُشعر بأن القوم قد فزعوا حين علموا بأن المسلمين قد خرجوا لغزوهم فى بلادهم، وأنهم أخذوا يتخيلون مدى هذه القوة الخارقة، التى أذاعت الرعب فى أنحاء الجزيرة، والتى لم تستطع قوة الأحزاب مجتمعة أن تظهر عليها، ولم تستطع حصون اليهود ـ على قوتها ـ أن تثبت أمامها، والتى اجترأ محمد صاحبها على أن يدعو هرقل فى سلطانه وقوته إلى اتباعه.. نعم، فلابد أنهم أخذوا يتصورون مدى هذه القوة ويتخيلونها شيئًا لا يطاق، فأخذوا يعدون لها كل ما يستطيعون من قوة؛ وإلا، فهل كان من الطبيعى أن يجتمع مائتا ألف لمقاتلة ثلاثة آلاف؟

ابن رواحة يشجع المؤمنين على لقاء الروم

ولم يكن المسلمون يقدرون ما أعد القوم لهم. فلما وصلوا إلى «معان» ـ وهى حصن كبير من أرض فلسطين[1] ـ علموا

---

(١) على خمسة أيام من دمشق بمشى الإبل.

بما أعدوا لهم من العَدد والعتاد، فأقاموا هناك ليلتين يتشاورون فى أمرهم؛ ثم بدا لهم أن يكتبوا إلى رسول الله ﷺ يخبرونه بعدد عدوهم، فإما أن يمدهم بالرجال وإما أن يأمرهم بأمر فيمضوا له. ولكن عبد الله بن رواحة غلبت عليه حمية الإيمان، فقام يشجع القوم ويقول لهم : "يا قوم، إن التى تكرهونها لهى الشهادة التى خرجتم تطلبونها. . والله ما كنا نقاتل الناس بكثرة عدد ولا بكثرة سلاح ولا بكثرة خيول، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به. . انطلقوا، فوالله لقد رأيتُنا يوم بدر ما معنا إلا فرسان، ويوم أحد ما معنا إلا فرس واحد. . انطلقوا، فإنما هى إحدى الحسنيين : إما ظهور عليهم، فذلك ما وعدنا الله ورسوله، وليس لوعد الله خلف؛ وإما الشهادة، فنلحق بالإخوان نرافقهم فى الجنان". . !

وفعلت كلمات ابن رواحة فى نفوس الناس ما يفعل السحر، فمضوا إلى لقاء العدو لا يبالون بشىء، وانطلقوا يسيرون حتى وصلوا بعد ليلتين إلى تخوم البلقاء من أرض الشام، وهناك وجدوا جموع العدو محشودة فى قرية يقال لها « مشارف ». وأخذت فيالق العدو تدنو منهم، فانحازوا إلى قرية « مؤتة » ليتحصنوا بها؛ ولكن الروم انحدروا إليهم كانحدار السيل، وأقبلوا بخيلهم ورَجلِهم فى مظهر يبهر الأبصار ويذهل العقول؛ فعبأ

المسلمون قوتهم وقاتلوا فى نظام «ضغط الجموع بالقلب» - كما يقول الصاغ (أركان الحرب) محمد عبد الفتاح إبراهيم - وجعلوا فى كل من الجنبين قوة تحول دون إحداق العدو بهم، فكان فى الميمنة قُطْبة بن قتادة، وفى الميسرة عُبادة بن مالك. والتحم الجيشان فى قتال قريب المدى عنيف الاشتباك.

كان القتال بالغًا غاية الشدة فى هذه المعركة

وقاتل زيد بن حارثة براية رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وقاتل معه المسلمون على صفوفهم، حتى شاط[1] فى رماح القوم. فلما قتل زيد أخذ الراية جعفر بن أبى طالب، فجعل يقاتل بها مستميتًا، حتى إذا ألحَمَه[2] القتال وأحاط به العدو، اقتحم عن فرسه فعَقَرها بسيفه، ثم اندفع يقاتل القوم راجلا واللواء بيمنه، فضُربت يمينه فقُطعت، فأخذ اللواء بيساره، فضربت يساره فقطعت، فاحتضن اللواء بعَضُديه حتى قتل، فوُجد به نحو تسعين طعنة. فلما قتل جعفر أخذ اللواء عبد الله بن رواحة..

ويبدو أن القتال فى هذه المعركة كان أعنف قتال قاتله

---

(١) حتى شاط: تفجر دمه وتمزقت أوصاله.

(٢) حتى ألحمه: زحمه وأجهده.

المسلمون، حتى نسوا فيه أنفسهم، وشغلوا به عن طعامهم وشرابهم؛ فقد روى ابن إسحاق أن عبد الله بن رواحة لما نزل أتاه ابن عم له بعَرْق[1] من لحم، فقال له: "شُدّ بهذا صُلْبك، فإنك قد لقيت فى أيامك هذه ما لقيت". فأخذه من يده فانتَهس منه نَهسة[2]، ثم سمع الحطْمة[3] فى ناحية الناس، فقال: "وأنت فى الدنيا"..؟ ثم ألقاه من يده، ثم أخذ سيفه، ثم تقدم فقاتل حتى قتل.

حيلة خالد فى إنقاذ الجيش

واصطلح الناس على خالد بن الوليد بعد مقتل ابن رواحة. فلما أخذ الراية دافع القوم وخاشى[4] بهم حتى أتى المساء، فانحاز بأصحابه وانحاز عنه المشركون. "وتحت ستار الليل بدّل خالد مواقف الجيش، فنقّل الميمنة إلى الميسرة، ونقل الميسرة إلى الميمنة، وجعل الساقة فى موضع المقدمة، وجعل المقدمة فى موضع الساقة، ورصد من خلف الجيش طائفة يثيرون الغبار،

(١) عرق من لحم: عظم فيه بعض اللحم.

(٢) انتهس منه نهسة: أخذ منه قليلا.

(٣) الحطمة: زحام الناس وحطم بعضهم بعضاً.

(٤) خاشى بتروى: تروى بالحاء وبالخاء، والمقصود أنه داور العدو وحاوره بهم.

ويكثرون الجلبَة عند طلوع النهار"[1]. فلما التقى الفريقان فى الصباح، رأى كل فريق من العدو أمامه وجوهًا غير التى رآها بالأمس، ورايات غير التى رآها، فظنوا أن المسلمين قد جاء إليهم المدد، فتهيبوا لقاءهم؛ وكان المسلمون قد أجهدوهم فى قتال الأمس، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة.

ونجحت حيلة خالد فى خداع القوم، فجعل يداور بأصحابه، ويتراجع بهم فى مهارة وحذق، حتى ظن الروم أنه يريد أن يستدرجهم إلى الصحراء، فلم يتبعوه. وما زال خالد يناوش جموع العدو حتى أفلت بجيشه، وانتهى به إلى هذه النهاية المأمونة، فصنع بذلك خير ما يصنعه القائد اللبق البصير. وخير ما يصنع فى مثل ذلك الموقف هو الارتداد المأمون، "وهو أصعب من النصر فى بعض المآزق؛ لأن النصر ميسور مع اجتماع العُدة واحتمال الشدة فيه، ولكن الارتداد المأمون غير ميسور لكل من يريده وهو فى أضعف الموقفين، إلا أن تكون له خبرة بالقيادة، تكافئ الرجحان فى قوة العدو الذى يرتد بين يديه"[1] وما عهدنا ببعيد بموقعة «دَنْكِرك»، حيث كان الإنجليز يفخرون بأنهم استطاعوا الارتداد أمام جيوش الألمان فى الحرب العالمية الأخيرة، حتى كانوا يسمونه «بالهزيمة المنتصرة».

---

(١) عبقرية خالد.

الرسول ينعى أمراء الجيش ويثنى على شجاعة خالد

وهكذا أنقذ خالد جيشه، وعاد به دون أن يفقد سوى اثنى عشر رجلا. وقبل أن يبارح الجيش أرض مؤتة، نعى رسول الله ﷺ إلى أصحابه فى المدينة أمراءه الثلاثة، ودموعه تفيض حزنًا عليهم.

روى البخارى - بسنده عن أنس بن مالك - أن رسول الله ﷺ نعى زيدًا وجعفرًا وابن رواحة للناس قبل أن يأتيهم خبر، فقال: «أخذ الراية زيد فأصيب، ثم أخذها جعفر فأصيب، ثم أخذها ابن رواحة فأصيب - وعيناه تَذْرِفانِ - حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله، حتى فتح الله عليه».

وكان وقع الخبر شديدًا على نفوس المسلمين، حتى خرج أهل المدينة كبارًا وصغارًا يستقبلون الجيش، وخرج الصبيان يشتدون حتى أشفق عليهم رسول الله ﷺ من طول ما جروا، فقال: «خذوا الصبيان فاحملوهم وأعطونى ابن جعفر». فأخذ عبد الله بن جعفر فحمله بين يديه على دابته، حتى التقوا بالجيش عند «الجُرْف».

وظن الناس أن الجيش قد انهزم، فجعلوا يَحْثُون فى وجوههم التراب ويقولون: "يا فُرَّار! أفررتم فى سبيل الله".. ؟

فيقول رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «ليسوا بالفرار، ولكنهم الكُرَّار إن شاء الله تعالى».

موقف ابن رواحة

وتختلف الروايات فى موقف ابن رواحة حين أخذ الراية بعد جعفر؛ فقد روى ابن إسحاق أن عبدالله بن رواحة لما أخذ الراية تقدم بها وهو على فرسه، فجعل يستنزل نفسه ويتردد بعض التردد، ثم قال:

أقسمت يا نفسُ لَتنْزِلِنَّهْ   لتنزلن أو لَتكرَهِنَّهْ
قد طالما قد كنت مطمئنهْ   مالى أَراك تكرهين الجنة؟

* * *

يا نفسُ إلا تُقتَلى تموتى   هذا حِمام الموت قد صَلِيتِ
وما تمنيتِ فقد أُعطيت   إن تفعلى فعلهما هُديتِ

ثم نزل، فقاتل حتى قتل..

ويقول الواقدى: إنه طاعن القوم ساعة ثم ولى، فلام نفسه، ثم نزل عن فرسه وقال لنفسه:

أقسمت يا نفسى لتنزلنّه   إنى أراك تكرهين الجنه

فنزل فطاعن القوم حتى قتل. ولم يذكر البيهقى ولا موسى بن عقبة - فيما نقل عنهما ابن كثير - شيئًا عن هذا

التردد. كذلك لم يذكره المقريزى فى «إمتاع الأسماع»، ولا ابن سعد فى «الطبقات الكبرى».

وعبد الله بن رواحة - فيما يقول ابن إسحاق وغيره - كان هو الذى شجع المسلمين ودفعهم إلى الإقدام حين ترددوا فى قتال الروم، وهو الذى ذكر عنه ابن إسحاق - فى سياق روايته السابقة - أنه رمى قطعة اللحم من فمه حين رأى المعركة تدور، واستكثر على نفسه أن يبقى لحظة فى الدنيا وهو بعيد عن المعركة.. أفلا يكون من التناقض أن يكون رجل هذه روحه وهذا يقينه، يدخل المعركة وهو متردد خائف؟ ثم أفلا يكون من التناقض أن يشجع الناس على ملاقاة الروم، ثم يجبُن هو عن ملاقاتهم؟ فأين كان ابن رواحة منذ بدأت المعركة بين المسلمين والروم؟ ألم يكن يقاتل فيها كجندى من جنود المسلمين؟ فهل من الطبيعى أن يكون مقدامًا شجاعًا وهو جندى، ثم يكون مترددًا خائفًا وهو قائد؟

يخيل إلَىّ أن ابن إسحاق - رحمه الله - أخذ الرواية على علاتها فرواها دون أن يعيد فيها النظر؛ ولو أنه نظر فيها نظرة لبان له أن فيها تناقضًا واضحًا بين أولها وآخرها، وأن مواقف ابن رواحة قبل المعركة وفى خلالها يناقض بعضها بعضًا.

شعر ابن رواحة وما يحمله من معاني التشجيع للنفس

كما يخيل إلىّ أن الشعر الذى نسب إلى ابن رواحة هو الذى أملى على الرواة هذه الرواية. ولكن هذا الشعر - وإن كان فى ظاهره يشعر بالتردد - هو فى حقيقته محاورة بين الشاعر ونفسه، تحمل كل معانى التشجيع للنفس عند الإقدام على الموت، حتى تُقْدم وهى مطمئنة إلى أن الموت فى هذا الموقف خير من الحياة؛ وإلا، فقد روى الواقدى عن رسول الله ﷺ أن زيدًا وجعفرًا عرض لكل منهما الشيطان حين أخذ الراية، فحبَّب إليه الحياة وكرَّه إليه الموت ومناه الدنيا، فسخر كلاهما من الشيطان، وقال له: "الآن حين استحكم الإيمان فى قلوب المؤمنين تُمنّينى الدنيا"؟ ثم مضى قُدُما حتى استُشهد.. فإذا جاز لنا أن نأخذ بظاهر القول، جاز أن نقول بأن زيدًا وجعفرًا ترددا ثم أقدما، كما تردد ابن رواحة ثم أقدم.

أما ما رواه ابن إسحاق من أن رسول الله ﷺ قال - وهو على المنبر ينعى أمراءه إلى أصحابه - : «لقد رُفعوا إلىّ فى الجنة - فيما يرى النائم - على سرر من ذهب، فرأيت فى سرير عبد الله بن رواحة ازورارًا عن سريرَىْ صاحبيه، فقلت: عم هذا؟ فقيل لى: مضيا، وتردد عبد الله بن رواحة بعض التردد

ثم مضى ».. فقد ضعفه ابن كثير وقال : إن ابن إسحاق ذكره منقطعَ السند. ثم عارضه بالحديث السابق الذى رواه البخارى بسنده عن أنس بن مالك.

على أن ابن إسحاق روى فى أخبار هذه الغزوة خبرًا يدل على أن ابن رواحة خرج من المدينة، وهو لا يتمنى شيئًا كما يتمنى قِتْلة فى سبيل الله تدل على حسن بلائه، وصدق جهاده فى الله عز وجل؛ فقد ذكر ابن إسحاق أن الجيش حين تحرك للمسير، وقف المسلمون يودعونه ويقولون : "صحبكم الله ودفع عنكم، وردكم إلينا صالحين"! فقال عبد الله بن رواحة :

لكننى أسأل الرحمن مغفرةً وضربة ذات فَرْغٍ تَقْذِفُ الزَّبَدا[1]

أو طعنةً بيدَىْ حَرَّانَ مُجهِزةً بحربة تَنْفُذ الأحشاء والكبدا[2]

حتى يقال إذا مروا على جَدَثى ياأرْشَدَ الله من غازٍ وقد رَشَدا[3]

فكيف يوصف رجل هذه روحه بالتردد، فى الوقت الذى تسنح الفرصة فيه لتحقيق أمنيته الغالية، وطلبته التى كان يرجوها ويدعو الله بها جاهدًا ؟..

أعتقد أن ابن رواحة قد ظُلم بهذه الرواية ظلمًا ينبغى أن

(١) الفرغ : السعة، والزبد : رغوة الدم.

(٢) الحران : العطشان، ولعله هنا بمعنى الظامئ إلى دم عدوه.

(٣) الجدث : القبر.

يزاح عنه، وأن يحتفظ له التاريخ بحقه كاملا، كرجل جاهد فى الله مخلصًا، وأقبل على الموت فى سبيله مقدامًا غير هياب، مطمئنًا غير جازع. وعند الله فى ذاك الجزاء.

ماذا سجلت هذه الغزوة للمسلمين

وكما تختلف الروايات فى تصوير موقف ابن رواحة، تختلف فى تصوير موقف المسلمين بعد مقتل ابن رواحة، وفى النهاية التى انتهت إليها هذه الغزوة : أهى الهزيمة للمسلمين أم النصر لهم. . ؟

فيروى ابن سعد عن أبى عامر - وكان شهد المعركة - "أن المسلمين انهزموا بعد مقتل ابن رواحة أسوأ هزيمة، وتفرقوا حتى لم يُر اثنان جميعًا؛ ثم أخذ اللواء رجل من الأنصار فركزه أمام الناس، وجعل يصيح بهم فيجتمعون، حتى إذا كثروا مشى باللواء إلى خالد بن الوليد فدفعه إليه. فلما أخذه خالد حمل على القوم فهزمهم أسوأ هزيمة، حتى وضع المسلمون أسيافهم حيث شاءوا".

ويروى الواقدى عن العطاف بن خالد : "أنه لما قتل ابن رواحة مساء بات خالد بن الوليد، فلما أصبح غدا وقد جعل مقدمته ساقة وساقته مقدمة، وميمنته ميسرة وميسرته ميمنة؛

فأنكر المشركون ما كانوا يعرفون من راياتهم وهيئتهم، وقالوا: قد جاءهم مدد؛ فرُعبوا وانكشفوا منهزمين؛ فقتلوا منهم مَقْتَلَةً لم يقتلها قوم".

ويقول موسى بن عقبة: "اصطلح المسلمون بعد أمراء رسول الله ﷺ على خالد بن الوليد المخزوميّ، فهزم الله العدو وأظهر المسلمين".

ويقول ابن إسحاق: "أخذ الراية ثابت بن أقرم فقال: يا معشر المسلمين اصْطلحوا على رجل منكم. قالوا: أنت. قال: ما أنا بفاعل. فاصطلح الناس على خالد بن الوليد. فلما أخذ الراية دافع القوم وخاشي بهم، ثم انحاز وانْحِيز عنه حتى انصرف بالناس".

وقد نقل ابن كثير فى البداية والنهاية سياق ابن إسحاق والواقدى وموسى بن عقبة، ثم قال: "ويمكن الجمع بين قول ابن إسحاق وقول الباقين؛ وهو أن خالدًا لما أخذ الراية حاشى بالقوم المسلمين، حتى خلصهم من أيدى الكافرين الروم والمستعربة، فلما أصبح وحوَّل الجيش ميمنةً وميسرة، ومقدِّمة وساقة - كما ذكره الواقدى - توهم الروم أن ذلك عن مدد جاء إلى المسلمين فلما حمل عليهم خالد هزموهم بإذن الله"..

واستظهر ابن كثير على رأيه هذا بقول رسول الله ﷺ فى

الحديث الذى رواه البخارى عن أنس بن مالك : « ثم أخذ الراية سيف من سيوف الله، ففتح الله على يديه ». كما استشهد بما ذكره الواقدى وموسى بن عقبة، وبما ذكره ابن إسحاق من أن قطبة بن قتادة - وكان رأس ميمنة المسلمين - حمل على مالك بن رافلة، وهو أمير عرب النصارى، فقتله وقال يفتخر بذلك :

طعنت ابن رافلة بن الأراشِ ... برمح مضى فيه ثم انحطمْ

ضربت على جيده ضربة ... فمال كما مال غصن السَّلَمْ[1]

إنما تقاس الهزيمة والنصر فى المعارك بما تحققه الأمة من أغراضها

وسواء أكان الذى وقع هو ما رواه ابن إسحاق أم كان ما رواه غيره، فإنه لم يكن من الطبيعى أن يستطيع ثلاثة آلاف أن يهزموا مائتى ألف حتى يستأسروا لهم، أو أن يقتلوهم حتى يبيدوهم؛ ويكفى أنهم استطاعوا مع قلة عددهم أن يقفوا أمام هذا العدد الضخم يومًا أو أكثر من يوم، فى قتال طاحن عنيف، ثم يخرجون ولم يقتل منهم سوى اثنى عشر رجلا. فلو

---

(١) السلم : شجر شائك من أشجار البادية.

أن المسلمين خرجوا من المعركة مع هذا ولم يقتلوا من العدو رجلا واحدًا، لكان هذا نصرًا لهم أى نصر، فكيف وقد جاء فى بعض الروايات أنهم قتلوا منهم مقتلة لم يقتلها قوم، وأن المشركين انهزموا أمامهم حتى كانوا يضعون السيوف فيهم حيث شاءوا ؟

وقد يقال : إن فى هذا مبالغة، ولكن الصور التى قدمها المسلمون لقتالهم فى هذه الغزوة، تصدق هذا الزعم إلى حد كبير؛ فقد قتل الأمراء الثلاثة تباعًا فى أول يوم، وكان مقتضى هذا أن يفر المسلمون أو ينهزموا؛ إذ كانت العادة فى ذلك الزمان أن يفر الجيش إذا قتل أميره. ولعل هذا هو الذى جعل العدو يركز هجومه على الأمراء، ولكن المسلمين مع هذا لم يفروا، بل صمدوا وثبتوا لأعدائهم حتى أتى الليل، فانحاز الفريقان كل إلى معسكره. وكان من الممكن أن ينتهز المسلمون هذه الفرصة فيفروا تحت ستار الليل، وهم آمنون أن يلحق العدو بهم، ولكنهم لم يفعلوا، بل أصبحوا غادين إلى القتال فى هيئة أرهبت الروم وزلزلتهم، حتى فقدوا ثقتهم بأنفسهم، فتقاعسوا عن مهاجمتهم، واستبشروا بارتدادهم عنهم.. فهذه صورة من صور القتال الجماعى للمسلمين فى هذه المعركة.

أما صورة القتال الفردى لكل رجل منهم، فقد قدمها

جعفر بن أبى طالب حين نزل المعمعة على فرسه يطاعن الأعداء، فلما ألحمه القتال نزل عن فرسه فعقرها بسيفه، ثم قاتل راجلا واللواء بيمنه، فلما قطعت يمينه أخذ اللواء بيساره، فلما قطعت يساره أخذ اللواء بعضُديه حتى قتل. وقدمها كذلك خالد بن الوليد حين قال ـ فيما رواه البخارى عنه ـ: "لقد دُقَّ فى يدى يوم مؤتة تسعة أسياف، فما بقى فى يدى إلا صفحة يمانية". فكم يا تُرى قتل خالد بهذه الأسياف؟ وكم يا ترى قتل غيُره من الأبطال والشجعان من حملة القرآن؟..

وقد نلمح صورة أخرى من صور الإقدام والاقتحام على الموت دون مبالاة، فى هذا العدد من الطعنات التى وجهت إلى جعفر، حتى قيل إنها جاوزت التسعين طعنة.. إنها إن دلت على شىء فإنما تدل على مدى استماتة المسلم فى سبيل الدفاع عن دينه، وعلى مدى إمعانه فى صفوف العدو، غير مكترث بما هو عليه من قوة وكثرة. كما أن هذا العدد من السيوف التى اندقت فى يد خالد، يدل على مدى العنف الذى كانت توجه به طعنات المسلمين إلى صدور المشركين؛ وإلا ففيم اندقت هذه السيوف التسعة؟..

وصورة أخرى من صور القتال فى هذه الغزوة، نلمح فيها الروح التى أقبل بها المسلمون على المعركة، حين نستعيد كلام

ابن رواحة وهو يشجع أصحابه على ملاقاة الروم، وحين نستعيد كلام ثابت بن أرقم وهو يرد على أبى هريرة شجاعته، حين بهرته كثرة الروم وعظمة استعدادهم..

وصورة أخرى كذلك نلمس فيها روح المسلمين العامة، حين نستعرض منظر أهل المدينة وهم يستقبلون الجيش صغارًا وكبارًا، يحثون فى وجهه التراب ويعيِّرونه بالفرار؛ فيصحح لهم الرسول هذه الفكرة الخاطئة، ويزن الأمور بميزانها الصحيح، ويقدرها قدرَها الواجب، فيقول: «ليسوا بالفرار، ولكنهم الكرار إن شاء الله».

ماذا تركت غزوة مؤتة فى نفوس الروم

إن هذه الصورة وغيرها مما نستأنس به من شواهد المعركة، ترسم لنا الصورة العامة التى تركها المسلمون فى أذهان أعدائهم يوم مؤتة. فمن الإسراف والمبالغة فى التجنى إذن، أن نكلف المسلمين أن يفعلوا فوق ما فعلوا، حتى نقول بأنهم ظهروا على المشركين فى هذه الغزوة. وإذا كانت الأمور بنتائجها والأعمال بخواتيمها، فقد كفى المسلمين ظهورًا على عدوهم أنهم تركوا فى نفوسهم أثرًا من الرهبة، جعلهم يحجمون عن قتالهم، ويَنْكِلون عن متابعتهم؛ وأن هذا الأثر كان كافيًا لتأمين الحدود من ناحية

الشام، فلم يحاول الروم ولا أتباعهم من العرب أن يهاجموا المسلمين بعدها أبدًا، وقد ظل هذا الأثر باقيًا حتى يوم «تبوك»، حين ذهب رسول الله ﷺ بأصحابه لملاقاة الروم بعد عام، فلم يستطيعوا مجابهة المسلمين يومئذ، وآثروا السلامة بأنفسهم على أن يلاقوا هذا العدو الكاسر، الذى باع نفسه فى سبيل غايته، فلا يبالى الموت ولا يرهب النزال مهما بلغت قوة عدوه.

وكما أن هذه الصورة من البسالة تركت فى نفوس الروم وأتباعهم هذا الأثر البعيد، فقد تركت فى نفوس القبائل الضاربة على أطراف الشام والعراق أثرًا قويًّا من الإعجاب بالمسلمين، مما جعل كثيرًا من بنى سُلَيْم وأشجع وغطفان وعَبْس وذُبْيان وفَزارَة يدخلون فى الإسلام طائعين.

فتح مكة

كانت مكة أم القرى ومعقل الوثنية

كانت مكة أم القرى ومعقل الوثنية فى جزيرة العرب كلها؛ وكانت الكعبة مجمع الأصنام وقبلة الأنظار، ومطمح آمال القبائل قريبها وبعيدها؛ وكانت قريش حارسة الكعبة وسادنة البيت، وإليها الرياسة والقيادة فى أمور الدين؛ وكانت منزلة القبائل من قريش فى هذه الناحية منزلة المسود من السيد، والتابع من المتبوع. ومن هنا كانت قبائل العرب على اختلافها تنظر إلى المعركة الدائرة بين محمد وقريش نظرة الجد والاهتمام، وتتابع حركاتها وخطواتها متابعة دقيقة، وكانت كل حركة من هذه الحركات، وكل خطوة من هذه الخطا تترك فى اتجاهات القبائل أثرًا بارزًا، من حيث إقبالها على الإسلام أوإعراضها عنه، ومن حيث اجتماعها له أو اجتماعها عليه.

ومع أن الحوادث والمعارك التى وقعت فى الجزيرة بين المسلمين وقريش، وبين المسلمين واليهود، وبين المسلمين والروم،

وبين المسلمين وقبائل العرب فى نـواحى الجـزيرة . . كانـت ذات أثر فى ظهور الإسلام وانتشاره فى كثير من القبـائل، فـإن بقـاء مكة على شركها - وهى أم القرى ومعقل الوثنية - ظـل سـدًّا حائلا دون خلوص الجزيرة العربية للإسلام وحده، وظلت قريش بحكم زعامتها الدينية هى العقبة الكئود فى طريقه. وكان لابد - لكى تخلُص جزيرة العرب للإسلام، ولكى ترتضيه القبائل دينها وعقيدتها - أن تؤمن به قريش، وأن تحتضنه مكة أم القرى.

كان صلح الحديبية أول مفاتيح هذا المعقل العتيد

وكان صلح الحديبية بين رسول الله ﷺ وقـريش فى أواخـر السنة السادسة أول مفاتيح هذا المعقـل العتيـد؛ فقـد اعـترفت قريش فى ذلك الصلح بأن محمدًا صاحب مذهب جـديد، وأنـه لا بأس من أن تقيم بينه وبينها عهدًا يستـقر بـه السـلم فيا بينهـا وبينه، بعد ما عجزت تمام العجـز عـن القضـاء عليـه وعلى مذهبه . .

لقد ظلت قريش دهرًا طـويلا لا تعـترف بمحمـد، ولا بمـا ذهب إليه من هذا الدين الذى خـالف بـه دينهـا وعقـائدها، وخرج به على تقاليدها وتقاليد آبائها، وقلب به أوضـاعها رأسًـا على عقب؛ وظلت فى كبريائها وتعاظمها تفترى عليه الأكاذيـب،

وتصفه بما تشاء من الأوصاف التى تشوه سمعته ودعوته بين العرب. فلما عجزت بكل وسائلها أن تقضى عليه وعلى دعوته، اضطرت أن تنزله منها منزلة الند من الند، وأن تصالحه - ولو إلى حين - لتتق خطره وتأمن جانبه؛ فكان هذا الصلح أول مفتاح فك الله به أغلاق مكة.

وكانت عمرة القضاء هى مفتاحه الثانى

ثم كانت عُمرة القضاء بعد ذلك بعام هى المفتاح الثانى من مفاتيح ذلك الحصن؛ فقد كان مظهر المسلمين فى هذه العمرة، وهم فى توادِّهم وتراحمهم، وفى ائتلافهم وتضامنهم، وفى حسن انقيادهم ودقة نظامهم، وفى صدق محبتهم وإخلاصهم لرسولهم، وفى عظيم حماستهم لدينهم وشدة تمسكهم بآدابه، وفى بالغ تقديسهم للبيت وتعظيم حرماته، وفى كل ما كانوا يؤدونه من شعائر هذه العمرة،وهم فى هذه الحماسة، وهذه الألفة، وهذا النظام، وهذا الترفع عن كل ما يشين أخلاق الرجال.. كان مظهر المسلمين فى كل هذا مظهرًا هز نفوس أهل مكة هزًّا عنيفًا، ولمس مكان العقيدة من قلوبهم فزلزلها زلزالاً شديدًا؛ فأخذوا ينظرون إلى المسلمين نظرة الإعجاب والإكبار، وينظرون إلى الإسلام نظرة التفكير والتدبر؛ وجعلوا يقارنون بين هذا

الدين وما هم عليه من دين وعقيدة، ومن تقاليد لا يقبلها عقل ولايقرها منطق، ويوازنون بين هذه الشعائر التى يؤديها المسلمون فى خشوع وانسجام، وبين ما يفعلون هم فى عبادتهم من لغو ولهو، وما يقومون به عند البيت من مُكَاء وتَصْدِيَة...[1]

نعم، أخذوا ينظرون ويتفكرون، فوجدوا فرقًا شاسعًا وبَوْنًا بعيدًا بين ما هم عليه وما عليه محمد ﷺ وأتباعه؛ فلانت قلوبهم للإسلام، وصَغَت إليه أفئدتهم، فأسلم منهم من استطاع أن يجهر بإسلامه، وأسر الإسلام من لم يستطع أن يجاهر به ويستعلن، وتهيأ بقلبه ونفسه كثير منهم لأن يسلموا، لولا ظروف حائلة ومنافع عاجلة ظلت تمنعهم إلى حين؛ فكانت هذه الزلزلة التى أصيبت بها عقيدة أهل مكة فى عمرة القضاء، مفتاحًا آخر فك الله به أغلاق مكة.

ثم نقضت قريش عهد الحديبية

ثم أراد الله بعد ذلك أن يفك كل ما بقى من أغلاق هذا الحصن، فكان ما كان فى السنة الثامنة من نقض قريش لعهد الحديبية.. ذلك أنه كان بين قبيلتى بكر وخزاعة دماء وتِرات فى

---

(١) المكاء: الصفير الخفيف، والتصدية: التصفيق. ولعل هذا شبيه بما يفعله العامة الآن فى أذكارهم.

الجاهلية؛ فلما كان صلح الحديبية ودخلت خزاعة فى عهد رسول الله ﷺ، ودخلت بكر فى عهد قريش، هدأت الحرب بين القبيلتين، وأمن كل فريق جانب عدوه. ثم حدث أن رجلا من قبيلة بكر وقف ذات يوم يهجو رسول الله ﷺ على مسمع من رجل خزاعى، فقام إليه الخزاعى فضربه، فحرك ذلك ما بين القبيلتين من عداوة قديمة، وأخذت قبيلة بكر تعد عدتها للانتقام من خزاعة، وأعانهم على ذلك رجال من قريش.

وفى ذات ليلة كانت خزاعة على ماء لها يسمى «الوَتِير»، فباغتها رجال بكر ومن مالأهم من رجال قريش، فلجأت خزاعة إلى الحرم لتحتمى به، ولكن ذلك لم يمنع رجال بكر من متابعتها، حتى قتلوا منها نحو عشرين رجلا؛ فاستنصرت خزاعة رسول الله ﷺ، وذهب رجال منهم إلى المدينة، فأخبروا رسول الله ﷺ بما كان من غدر بكر بهم، ومعاونة قريش عليهم، وكان مما قال زعيمهم عمرو بن سالم:

يارب إنى ناشدٌ محمدا ... حِلْفَ أبينا وأبيه الأَتْلَدا[1]

إن قريشًا أخلفوك الموعدا ... ونقضوا ميثاقك المؤكدا

هم بَيَّتونا بالوتير هُجَّدا ... وقتلونا رُكَّعًا وسُجَّدا[2]

---

(١) القديم العهد.

(٢) غدروا بنا ونحن عاكفون على صلاتنا فى الليل.

فانصر-هداك الله-نصرًا أيِّدا[1]   وادع عباد الله يأتوا مددا

فقال له رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «نُصرت يا عمرو بن سالم».. ووجد أن الفرصة بذلك قد تهيأت لفتح مكة، فأخذ يعد عدته لهذا الفتح.

أبو سفيان يحاول جهده أن يصلح ما أفسدته قريش

وقدر رسول الله ﷺ أن قريشًا ستدرك سوء ما صنعت، وأنها لا بد مرسلة إليه لتصلح ما أفسد الغدر بينها وبينه، فقال لأصحابه: «كأنكم بأبي سفيان قد جاءكم، ليشُد فى العقد ويزيد فى المدة». وكان ما قدر الرسول وما توقع، فقد أحسَّت قريش بما وراء غدرها ذاك من سوء العاقبة، فأوفدت إلى المدينة زعيمها أبا سفيان بن حرب، لعله يستطيع أن يتلافى نتائج هذه الغلطة. وكان أبو سفيان يحس خطر الأمر الذى هو مقدم عليه، فلم يشأ أن يذهب توًّا إلى رسول الله ﷺ حتى يمهد الطريق للقائه؛ فدخل على ابنته أم حبيبة زوج رسول الله، ليستشفع بها إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم. فلما أراد أن يجلس على فراش رسول الله طوته عنه أم حبيبة؛ فعجب

(١) نصرًا عزيزًا.

أبو سفيان لما رأى من فعل ابنته، وقال لها : "يابنية، ما أدرى أرغبت بى عن هذا الفراش أم رغبت به عنى" ! فجابهته ابنته فى صراحة تقول : "بل هو فراش رسول الله، وأنت رجل مشرك نجس، فلم أحب أن تجلس على فراش رسول الله، صلى الله عليه وسلم" ! فكانت صدمة شديدة الوقع على نفس أبى سفيان، لم يكن يتوقعها من أقرب الناس إليه؛ فلم يملك أن قال لابنته معبرًا عما ناله من المهانة : "والله لقد أصابك بعدى يا بنيَّةُ شر" !

ثم خرج مضعضَع النفس مكلوم الفؤاد، حتى دخل على رسول الله ﷺ فى المسجد، فكلمه فلم يرد عليه شيئًا، فكانت هذه صدمة أنكى من الأولى؛ فخرج من المسجد أشد ما يكون تضعضُعًا وانكسارًا، وذهب يستشفع بأصحاب رسول الله إلى رسول الله ، صلى الله عليه وسلم، فلم يجد منهم من يجيب رجاءه.. ذهب إلى أبى بكر فاعتذر إليه فى لطف، وذهب إلى عمر فأغلظ له القول ورد عليه فى جفاء يقول : "أنا أشفع لكم إلى رسول الله ؟! فوالله لو لم أجد إلا الذَّرَّ لجاهدتكم به" فذهب إلى على بن أبى طالب فقال له : "يا على، إنك أمَسُّ القوم بى رحماً، وقد جئت فى حاجة فلا أرجعنَّ كما جئت خائبًا؛ فاشفع لى"! فقال له على : "ويحك يا أبا سفيان ! والله

لقد عزم رسول الله، على أمر ما نستطيع أن نكلمه فيه"!

وقيل: إن أبا سفيان ذهب إلى عثمان بن عفان، وإلى سعد ابن عبادة، وإلى غيرهما من أكابر المهاجرين والأنصار، فكلهم يقول له: "جِوارى فى جوار رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وما يُجير أحد عليه".. فلما أيس منهم دخل على فاطمة - وعندها الحسن ابنها غلام يَدِبّ بين يديها - فقال لها: "يا بنت محمد، هل لك أن تُجيرى بين الناس"؟ فقالت: "إنما أنا امرأة"! فقال لها: "مُرِى بُنَيَّك هذا فيجير بين الناس، فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر"! فقالت: "والله ما بلغ بُنَيِّى هذا أن يجير بين الناس، ما يجير أحد على رسول الله، صلى الله عليه وسلم".

فرجع أبو سفيان إلى على فقال له: "يا أبا الحسن، إنى أرى الأمور قد اشتدت علىّ، فانصحنى".. فقال له على: "والله ما أعلم شيئًا يُغنِى عنك؛ ولكنك سيد بنى كنانة، فقم فأجِرْ بين الناس[1] ثم الحقْ بأرضك". قال: "أوَ ترى ذلك مُغْنِيًا عنى شيئًا"؟ قال: "لا والله ما أظنه، ولكنى لا أجد لك غيره".. فقام أبو سفيان فى المسجد فقال: "أيها الناس؛ إنى

(١) الإجارة بمعنى الحماية وأجار بين الناس: حال دون وقوع الشر بينهم، وكان من عادة الزعماء فى العرب أن يفعلوا ذلك، فيستجيب الناس لهم ويجيزون قولهم.

قد أجرت بين الناس".. ثم ركب بعيره وانطلق راجعًا إلى مكة، وهو يتجرع مرارة الخيبة والانكسار والهوان.

فلما قدم على قريش قالوا له: "ما وراءك"؟ قال: "جئت محمدًا فكلمته، فوالله ما رد على شيئًا!.. ثم جئت ابن أبي قحافة فلم أجد فيه خيرًا!.. ثم جئت ابن الخطاب فوجدته أعدى العدو!.. ثم جئت عليًا فوجدته ألين القوم، وقد أشار عليّ بشيء صنعته، فوالله ما أدرى أيغنى شيئًا أم لا". قالوا: "وما ذاك"؟ قال: "أمرنى أن أجير بين الناس.. ففعلت". قالوا: فهل أجاز ذلك محمد؟ قال: "لا"! قالوا: "ويلك! والله ما زاد الرجل على أن لعب بك".

أخذ الرسول يتجهز لفتح مكة، وكان حريصًا على ألا يريق دمًا

وأخذ رسول الله ﷺ يتجهز لفتح مكة، فأرسل إلى أهل البادية ومن حوله من الأعراب أن يحضروا رمضان بالمدينة؛ فأخذت القبائل تتوافد على المدينة وتعسكر بأرضها. وكان صلى الله عليه وسلم حريصًا على ألا يريق دمًا بمكة فأخفى مقصده على الناس، ووضع على أفواه الطرق والأنقاب[1] حراسًا يراقبونها،

(١) الأنقاب: جمع نقب، وهو فم الطريق ومدخل البلد.

فلا يدعون أحدًا يمر بهم ينكرونه إلا ردوه. فلما اجتمع الناس واحتشدوا أعلمهم أنه سائر إلى مكة، وأمرهم بالجد والتهيؤ، ودعا الله أن يأخذ العيون والأخبار على قريش حتى يَبْغَتَها فى بلادها.

غلطة حاطب بن أبى بلتعة

فلما أجمع رسول الله ﷺ السير إلى قريش وأعلم الناس بوجهته، كتب حاطب بن أبى بَلْتَعَة كتابًا إلى قريش، يخبرهم بما عزم عليه رسول الله، صلى الله عليه وسلم؛ واستأجر امرأة من مُزَيْنة فأعطاها الكتاب، وأمرها أن تتلطف وتحتال حتى تبلغه قريشًا؛ فأخذت المرأة الكتاب فأخفته، وسلكت طريقها على غير نَقْب حتى خرجت من المدينة، ثم استقامت على الطريق إلى مكة. وأتى رسولَ الله الخبرُ من السماء بما صنع حاطب، فأرسل على بن أبى طالب والزبيرَ بن العوام فى أثر المرأة، فأدركاها فى الطريق، واستخرجا منها الكتاب فأحضراه إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم. فدعا رسول الله حاطبًا فأطلعه على الكتاب، ثم قال له: «ما حملك على هذا»؟ فظن حاطب أنه هالك لا محالة، وأنه لا نجاة له - إن كانت له نجاة - إلا بأن يَصْدُقَ رسولَ الله، صلى الله عليه وسلم. فقال: «يا رسول الله لا تَعْجَل علىّ؛ فو الله إنى لمؤمن بالله ورسوله، ما غيرت

ولا بدلت؛ ولكنى كنت امرَأً ليس لى فى القــوم مــن أهــل ولا عشيرة، وكان لى بين أظهُرهم ولد وأهل فصانعتهم عليه[1]، وكان من معك من المهاجرين - ممن له أهل أو مال بمكة - لهم قرابات يحمون بها أهليهم وأموالهم، فأحببت - إذ فـاتنى النسـب فى قريش - أن أتخذ عندهم يدًا[2] يحمون بها قرابتى؛ ولم أفعلـه ارتدادًا عن دينى، ولا رضًا بالكفر بعد الإيمان.. !"

الرسول يقيل عثرة حاطب

ورأى رسول الله ﷺ صدق لهجة حاطب، وحسن نيتـه فيما أقدم عليه من ذلك الذنب، فقال لمن حـوله : «أمـا إنـه قــد صَدقَكم فيما أخبركم به». ونظر صلى الله عليه وسلم إلى مـاضى الرجل فى الجهاد، وحسن بلائه فى الذَّوْد عن حرمات الإسلام، فرغب فى العفو عنه. أما عمر فقد كبُر عليه أمر هذه الخيـانة، وأن يكون مرتكبُها واحـدًا مـن أصـحاب رسـول الله، صلى الله عليه وسلم، فنظر إلى حاطب يقول : "قاتلك الله ! تـرى رسـول الله يأخذ بالأنقاب وتكتب إلى قريش؟.. يا رسول الله، دعـنى أضرب عنق هذا المنافق"!.. فتبسم رسول الله من حماسة عمر

(١) المصانعة : المجاملة والسبق بالمعروف.

(٢) اليد : المكرمة والجميل.

وقال : « وما يدريك يا عمر، لعل الله قد اطَّلع على أهل بدر فقال لهم : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم »! فدمعت عينا عمر وقال : "الله ورسوله أعلم".. !

وفى هذه الحادثة أنزل الله تعالى صدر سورة الممتَحنَة، يحذر المؤمنين من أن يوالوا عدوهم، أو يطلعوه على بعض أسرارهم، مهما يكن السبب الذى يدفع إلى ذلك، فإن العدو عدو حيثما كان، ومُوادَّة العدو خيانة ليس بعدها خيانة.. قال تعالى : ﴿يَا أيُّها الَّذينَ آمنُوا لا تَتَّخذُوا عَدُوِّى وعَدُوَّكُمْ أوْلِيَاء تُلْقُونَ إلَيْهِمْ بالْمودَّة وقَدْ كَفرُوا بمَا جَاءكُمْ منَ الحَقِّ يُخْرجُونَ الرَّسُولَ وَإيَّاكُمْ أنْ تؤْمنُوا بالله رَبّكُمْ، إنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جهادًا فى سَبيلى وابْتغَاء مَرْضَاتى تُسرُّونَ إلَيْهِمْ بالْمَوَدَّةِ وَأنَا أعلمُ بما أخْفَيْتُمْ وما أعْلنتمْ ومَنْ يَفْعلْهُ منْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبيل * إنْ يَثْقفُوكُمْ يكُونُوا لَكُمْ أعْدَاء ويَبْسُطُوا إلَيْكُمْ أيْديَهُمْ وألْسنَتَهُمْ بالسُّوء وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ * لنْ تَنْفَعَكُمْ أرْحامُكُمْ ولاَ أوْلادُكُمْ يَوْمَ القيامَةِ يَفْصلُ بَيْنكُمْ، وَالله بمَا تَعْملُونَ بَصيرٌ﴾[1].

(١) سورة الممتحنة الآيات ١ - ٣.

جيش الفتح

واستخلف رسول الله ﷺ على المدينة أبا ذر الغفارى، وخرج منها فى نحو عشرة آلاف من المهاجرين والأنصار، وممن وَفَد على المدينة من قبائل العرب. وسار هذا الجيش العريض يقطع الصحراء الواسعة سعيًا إلى مكة، لا ليسفك الدماء ويقتل الأبرياء، ولا ليسلب الأموال ويغتال الحقوق، ولكن ليفتح أغلاق البلد الحرام، ويرفع دونه الحواجز والسدود، ويجعله - كما جعله الله - مَثَابة للناس وأمنًا، وينشر فيه دين الحق الذى بعث به رسله، ليخرج الناس من الظلمات إلى النور.

العباس يعمل على تأمين قريش

فلما كان رسول الله ﷺ ببعض الطريق، لقيه العباس بن عبد المطلب مهاجرًا بعياله إلى المدينة، فكانت هذه اللُّقْيَا مصادفة مباركة، حَقَن الله بها الدماء ويسر الأمور، وذلل بها طريق الفتح على ما كان يرجو رسول الله، صلى الله عليه وسلم؛ فقد بعث العباسُ بأهله إلى المدينة، ورجع مع جيش رسول الله إلى مكة؛ فلما صار الجيش على نحو مرحلة منها نزل رسول الله ونزل أصحابه؛ وكان الوقت عَشِيًّا، فأمر رسول الله

ﷺ بأن يوقدوا النيران جميعًا حيث نـزلوا، فـأوقدوا عشرة آلاف نار، فظهر ضوؤها يسطع فى ظلام الصحراء، ويتلألأ فى فضائها الواسع، حتى جعل ليلها نهارًا؛ فراع ذلك العباس، وخشى على أهل مكة نتائج هذه المفاجأة الخطيرة، وقدَّر ما عسى أن يكون من مقاومة قريش لهذا الجيش اللَّجِب، وما عسى أن يكون لذلك من خسارة فى الأنفس والأموال، فجعل يفكر فى طريقة يستطيع بها أن يؤمِّن قريشًا، وينقذهم من هذا الهلاك الذى يوشك أن يحل بهم.

يقول العباس: «لما نزل رسول الله، صلى الله عليه وسلم، "مَرَّ الظَّهران"، رقَّت نفسى لأهل مكة وقلت: وَاصباحَ قريش! والله لئن دخل رسول الله مكة عَنْوَةً قبل أن يأتوه فيستأمنوه، إنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر! (قال): فجلست على بغلة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فخرجت عليها حتى جئت الأراك[1]، فقلت: لعلِّى أجد بعض الحطَّابة أو صاحب لبن أو ذا حاجة يأتى مكة، فيخبرهم بمكان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ليخرجوا إليه فيستأمنوه قبل أن يدخلها عليهم عنوة. وكان من قضاء الله وقَدَره أن خرج أبو سفيان بن حرب وحكيم

---

(١) الأراك: واد قرب مكة يكثر فيه شجر الأراك، وهو الشجر الذى يؤخذ منه السواك.

ابن حزام وبُدَيْل بن وَرْقاءَ يتجسسون الأخبار، وينظرون هل يجدون خبرًا أو يسمعون به؛ فوالله إنى لأسير على بغلة رسول الله ألتمس ما خرجت له، إذ سمعت كلام أبى سفيان وبديل بن ورقاء وهما يتراجعان، وأبو سفيان يقول: "ما رأيت كالليلة نيرانًا قط ولا عسكرًا"! فيقول له بديل: "هذه - والله - خزاعة قد حَمَشَتها[1] الحرب". فيقول أبو سفيان: "خزاعة أذَلُّ وأقل أن تكون هذه نيرانها وعسكرها".

(قال العباس): فعرفت صوته، فقلت: "يا أبا حنظلة"! فعرف صوتى، فقال: "أبو الفضل"؟ قلت: "نعم". قال: "ما لك، فداك أبى وأمى"! قلت: "ويحك يا أبا سفيان! هذا رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فى الناس.. واصباحَ قريش والله"! قال: "فما الحيلة، فداك أبى وأمى"؟ قلت: "والله لئن ظفر بك ليضرَبنَّ عنقك! فاركب فى عَجُزِ هذه البغلة حتى آتى بك رسول الله فأستأمنه لك".

(قال): فركب خلفى ورجع صاحباه، فجئت به: كلما مررت على نار من نيران المسلمين قالوا: من هذا؟ فإذا رأوا بغلة رسول الله وأنا عليها قالوا: عم رسول الله على بغلته..

(١) حمشتها (بالشين): أي أحرقتها، وحمستها (بالسين) أى اشتدت عليها.

حتى مررت بنار عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، فقال: "من هذا"؟ وقام إلىّ. فلما رأى أبا سفيان على عجُز الدابة قال: "أبو سفيان عدو الله! الحمد لله الذى أمكن منك بغير عقد ولا عهد"! ثم خرج يشتد نحو رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وركَضْت البغلة فسبقته، فاقتحمت عن البغلة فدخلت على رسول الله، ودخل عمر فى أثرى فقال: "يا رسول الله، هذا أبو سفيان عدو الله، قد أمكن الله منه بغير عقد ولا عهد، فدعنى فلأضربن عنقه"! قلت: "يا رسول الله، إنى قد أجرته". ثم جلست إلى رسول الله فأخذت برأسه، وقلت: والله لا يناجيه الليلة دونى رجل..

وما زال العباس وعمر عند رسول الله ﷺ يتراجعان فى شأن أبى سفيان، حتى قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «اذهب به يا عباس إلى رحلك، فإذا أصبحت فائتنى به».

أبو سفيان يعتنق الإسلام

(قال العباس): فذهبت به إلى رحلى فبات عندى. فلما أصبح غدوت به إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم. فلما رآه قال: «ويحك يا أبا سفيان! ألم يأنِ لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله»؟ قال: "بأبى أنت وأمى، ما أحْلَمَك وأكرمَك وأوْصَلك!

والله لقد ظننت لو كان مع الله إله غيره لقد أغنى عنى شيئًا بعد". قال : «ويحك يا أبا سفيان ! ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله»؟ قال : "بأبى أنت وأمى ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ! أما هذه فوالله إن فى النفس منها حتى الآن شيئًا" . . فقال له العباس : "ويحك ! أسْلِم واشهدْ أن لا إلٰه إلا الله وأن محمدًا رسول الله قبل أن تضرب عنقك" ! (قال) : فشهد شهادة الحق. فقلت : "يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل يحب الفخر، فاجعل له شيئًا». قال : «نعم. . من دخل دار أبى سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن».

فلما ذهب لينصرف قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم : «يا عباس، احتَبِسْه بمضيق الوادى عند خَطْم الجبل[1]، حتى تمر به جنود الله فيراها». . (قال) : فخرجت به حتى حبسته حيث أمرنى رسول الله ﷺ أن أحبسه. ومرت القبائل على راياتها، فما تمر قبيلة إلا سألنى عنها، حتى مر رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فى كتيبته الخضراء، فيها المهاجرون والأنصار، رضى الله عنهم، لا يُرَى منهم إلا الحدَق من الحديد. فقال : "سبحان

---

(١) الخطم : منقار الطائر، ومقدم أنف الدابة وفمها، وهو هنا بمعنى مقطع الجبل بدءًا أو نهاية.

الله يا عباس! من هؤلاء"؟ قلت: "هذا رسول الله فى المهاجرين والأنصار". فقال: "ما لأحد بهؤلاء قِبَلٌ ولا طاقة! والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك الغَداةَ عظيماً"! قلت: "ويحك! إنها النبوة". قال: "فنعم إذن[1]"! قلت: "النَّجاء إلى قومك"..

أبو سفيان ينذر قريشًا ويدعوها إلى التسليم دون مقاومة

فسار.. حتى إذا جاءهم صرخ بأعلى صوته: "يا معشر قريش، هذا محمد قد جاءكم فيما لا قبل لكم به؛ فمن دخل دار أبى سفيان فهو آمن"! فقامت إليه هند بنت عتبة فأخذت بلحيته وقالت: "اقتلوا هذا الشيخ الأحمق.. قُبِّح من طليعة قوم"..! قال: "ويلكم! لا تَغُرَّنَّكم هذه من أنفسكم، فإنه قد جاءكم ما لا قبل لكم به؛ فمن دخل دار أبى سفيان فهو آمن"! قالوا: "قاتلك الله! وما تغنى عنا دارك"؟ قال: "ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن"!

---

(١) هذه العبارة فيها روح التهكم والاستنكار، يقولها غير المصدق كما يقولها المغلوب على أمره حين لا يجد له بدًا من التصديق: لعلها تقابل فى لغتنا العامية «أيوه صحيح... بق كده!!».

فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد».

ولما انتهى رسول الله ﷺ إلى ذى طُوًى وصار على أبواب مكة، فرَّق الجيش على مداخلها، وأطبق عليها من جميع نواحيها؛ فأمر الزبير بن العوام أن يدخل بفريقه من ناحية، وأمر سعد بن عبادة أن يدخل بفريقه من ناحية، وأمر خالد بن الوليد أن يدخل بفريقه من ناحية، وقدَّم بين يديه أبا عبيدة بن الجراح ودخل صلى الله عليه وسلم من ناحية «أذاخِر»، حتى نزل بأعلى مكة، وضُربت له هناك قبة.

كان الرسول حريصًا على ألا يراق دم بمكة

وكان صلى الله عليه وسلم حريصًا أشد الحرص على ألا يراق دمٌ بمكة، فنهى عن القتال. وبلغ من حرصه على صون الدماء أن خلع سعد بن عبادة من الإمارة، وأسلمها إلى ابنه قيس بن سعد، حين بلغه أن سعدًا قال يتوعد قريشًا وهو يتوجه لدخول مكة: "اليوم يوم الملحمة! اليوم تُستحَلُّ الحرمة". ولكن أراد الله، جلت حكمته، أن تسفك فى ذلك الفتح الأبيض بضع قطرات من الدم؛ فقد وجد خالد بن الوليد من ناحيته مقاومة من بعض رجال مكة، فاضطر إلى مقابلة القوة بالقوة، فقُتل فى أثناء ذلك رجلان من المسلمين،

وبضعة وعشرون رجلا من رجال قريش. فلما رأى رسول الله ﷺ ذلك غضب وقال: «ألم أنْهَ عن القتال»؟ فقيل له: يا رسول، إن خالدًا قوتل فقاتل. فقال: «قضاء الله خير»!

الرسول يدخل مكة فى تواضع وخشوع

وهكذا دخلت جيوش المسلمين مكة بلا مقاومة، وتم فتح البلد الأمين بلا كبير قتال، ودخل صلى الله عليه وسلم على ناقته، لا كما يدخل الفاتحون فى كبريائهم وجبروتهم، بل دخل خاشعًا متواضعًا مكِبًّا على رحل ناقته، يكاد رأسه يلمس واسطة الرحل، شكرًا لله على ما أنعم به من هذا الفتح المبين، وما منّ به من هذا الفضل الكبير.

ولم يزل صلى الله عليه وسلم يقرأ سورة الفتح، حتى انتهى إلى الكعبة ومعه المسلمون، فاستلم الركن بِمِحْجَنِه[1] وكبر، فكبر المسلمون بتكبيره، حتى ارتجت لتكبيرهم أرجاء مكة، وحتى جعل رسول الله ﷺ يشير إليهم أن اسكتوا. ثم طاف بالبيت سعيًا على ناقته، وهو فى كل طَوْفَة يستلم الحجر الأسود بمحجنه حتى أتم طوافه.

---

(١) المحجن: عصا قصيرة، لعلها تشبه العصا التى يمسكها طلبة البوليس والحربية فى أيديهم الآن.

ولما فرغ صلى الله عليه وسلم من طوافه نزل عن راحلته، ثم انتهى إلى المقام فصلى فيه ركعتين، ثم انصرف إلى زمزم فشرب منها وتوضأ؛ والمسلمون حوله يَبْتَدرون وَضوءه[1] يصبونه على وجوههم، والمشركون ينظرون ويعجبون لما يرون من هذا ويقولون: "ما رأينا مُلْكًا أبلغ من هذا ولا سمعنا به"!..

الرسول يعفو عن أعدائه عفوًا لامثيل له فى تاريخ البشرية

ثم جلس صلى الله عليه وسلم فى ناحية المسجد، وأبو بكر قائم على رأسه بالسيف، ثم دعا عثمان بن طلحة ففتح له الكعبة، فدخلها فصلى بها ركعتين، ثم وقف على باب الكعبة فقال: "لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده»!.. ثم خطب خطبة طويلة، ذكر فيها جملة من الأحكام، ثم قال: «يا معشر قريش، إن الله قد أذهب عنكم نَخْوَةَ الجاهلية وتعظُّمهَا بالآباء.. الناس من آدم، وآدم من تراب». ثم تلا هذه الآية: ﴿يـأيها النـاسُ إنـا خَلَقناكم من ذكرٍ وأنثَى وجَعَلناكم شعُوبًا وقبائلَ لِتَعَارَفوا إنّ

---

(١) الوضوء - بفتح الواو -: الماء الذى يُتوضأ به.

أكرمَكم عند الله أتْقاكم إنَّ الله عليمٌ خبيرٌ﴾[1]. ثم قال: «يا معشر قريش، ماذا تقولون؟ وماذا تظنون أنى فاعل بكم؟» قالوا: "خيرًا.. أخ كريم وابن أخ كريم"! قال: «أقول كما قال أخى يوسف: لا تَثْرِيبَ عليكم اليوم، يغفر الله لكم وهو أرحمُ الراحمين..! اذهبوا فأنتم الطلقاء»!..

* * *

تُرى أكان أهل مكة يرجون مثل هذا العفو، لو أن فاتح مكة كان قائدًا من القواد أو ملكًا من الملوك؟.. أعتقد أننا لو تصفحنا التاريخ من أوله إلى آخره، لما وجدنا رجلا واحدًا وقف من أعدائه هذا الموقف الكريم.. نعم، ليس فى التاريخ كله موقف بلغ من السماحة ما بلغه هذا الموقف، ولا صورة بلغت من السمو ما بلغته هذه الصورة، لأنه ليس فى الناس كلهم بشر بلغ من الكمال الإنسانى ما بلغه محمد رسول الله!

ليس عجبًا إذن أن يقف رسول الله من أعدائه هذا الموقف الفريد فى التاريخ، فلم يكن صلى الله عليه وسلم ملكًا ولا قائدًا، ولم يكن يرمى إلى ما يرمى إليه الملوك والقواد من إرضاء شهوات النفوس ونزعات الهدى؛ إنما كان رحمة من الله

(١) سورة الحجرات الآية ١٣.

أرسلها إلى عباده، فهو حيثما حل حلت الرحمة فى أثره، فشملت الصديق والعدو، والمؤمن والكافر، فأخذ كل بحظه منها، كما تأخذ بقاع الأرض على اختلافها من بركات الغيث، فيثمر خِصْبُها، أو يَلْطُف جَوُّها، أو تلين قسوتها.

فتح هذا العفو قلوب أهل مكة للإسلام وملأها بمحبة الرسول

لقد نزل هذا العفو الكريم بردًا وسلامًا على تلك القلوب القاسية، التى طالما اضطرمت بالعداوة لهذه النفس الخيِّرة، وطالما أعماها الحقد عن مجاوبة هذا القلب الرحيم؛ فقد ظل صلى الله عليه وسلم نَيِّفًا وعشرين عامًا ينشد الخير لهؤلاء الناس، ويحاول بكل وسيلة أن يوجههم إليه ويرغبهم فيه؛ ولكنهم عموا وصموا، ﴿وقالوا قلوبنا فى أكِنَّة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وَقْرٌ ومن بيننا وبيْنك حجاب﴾، وبادلوه عداوة بمودة، وإساءة بإحسان، وكذبوه وقاطعوه وأخرجوه، وحاربوه وألَّبوا عليه، وظلوا دهرهم يتربصون به الدوائر، ويتحينون فيه الفرص. فلما أظهره الله عليهم، وأمكنه من رقابهم، نسى كل ما سلف من مساءاتهم وعداوتهم، وكافأهم بالصفح الجميل والعفو الشامل.. فأيَّة نفس عظيمة هذه النفس! إنها نفس الرسول الكريم، الذى لم يكن يضمر قط إلا الخير، ولم يكن يبغى إلا الصلاح، والذى

لم يكن قط جبارًا ولا ظالمًا ولا منتقمًا لنفسه، ولم يكن فى غضبه ورضاه إلا كما يقول الله سبحانه: ﴿لقَدْ جَاءكُم رسُولٌ مِنْ أنفُسكُم عزيزٌ عليْهِ مَا عَنِتُّم حَريصٌ عليْكم بالمؤمِنين رَءوفٌ رَحيم﴾[1].

لقد كان هذا العفو فتحًا آخر، فتح الله به أغلاق هذه القلوب المنكِرة، وطوَى به عنان هذه النفوس المستكبرة، فغدت تفيض بالحب والإخلاص، وتدين بالطاعة والولاء، وتنضوى تحت لواء الرسول طائعة مستسلمة، وتدخل فى دينه راضية مطمئنة. وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿ولا تَسْتوى الحسنةُ ولا السيِّئة، ادفع بالتى هى أحسنُ فإذا الذى بينك وبينهُ عَداوةٌ كأنه وَلِّى حميم * وما يُلَقَّاها إلا الذين صبروا، وما يلقاها إلا ذُو حظٍّ عظيم﴾[2].

وهكذا فتحت مكة أبوابها لدعوة الإسلام، وألقت مقاليدها إلى رسولها الأمين، فانهدم بذلك حصن الشرك العتيد، وانهار ذلك السد المنيع الذى قام حيال الدعوة منذ قامت.. ومنذ ذلك اليوم صارت مكة كعبة الإسلام، وقبلة المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها، وستظل كذلك إن شاء الله حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

(١) سورة التوبة الآية ١٢٨. (٢) سورة فصلت آيتا ٣٤، ٣٥.

غزوة حُنَيْن

أهل مكة يبايعون الرسول على الإسلام طوعًا لا كرهًا

دخل رسول الله ﷺ مكة فى اليوم العشرين من رمضان، سنة ثمان من الهجرة (يناير سنة ٦٣٠)، وظل بها قرابة عشرين يومًا يرتب شئونها، ويصلح أحوالها، ويخرج بها من جو الشرك والوثنية إلى جو الإسلام والتوحيد؛ فأمر بلالا أن يؤذن فوق الكعبة، فصعد بلال على ظهرها وأخذ يدوى بصوته فى الأرجاء: «الله أكبر الله أكبر، الله أكبر الله أكبر. أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن لا إله إلا الله. أشهد أن محمدًا رسول الله، أشهد أن محمدًا رسول الله. حىّ على الصلاة، حىّ على الصلاة. حى على الفلاح، حى على الفلاح. الله أكبر الله أكبر. لا إله إلا الله».. ثم أقيمت الصلاة، فقام رسول الله ﷺ يصلى بالناس فى حرم البيت، وقام الناس معه على صفوفهم، يركعون بركوعه ويسجدون بسجوده، ويقومون كلما قام ويجلسون كلما جلس.

وكان لهذا المنظر الجليل أثره الفعال فى نفوس المشركين من أهل مكة، فأقبلوا على الإسلام طائعين، واجتمعوا على رسول الله ﷺ يبايعونه على الإسلام؛ فجلس لهم رسول الله على الصفا، وقام دون مجلسه عمر بن الخطاب يأخذ له البيعة على الناس، فكان يبايعهم على السمع والطاعة لله ولرسوله فيما استطاعوا. فلما فرغ من بيعة الرجال جاء النساء يبايعْنَه على ألا يُشْرِكْنَ بالله شيئًا، ولا يسرقن، ولا يَزْنين، ولا يقتلن أولادهن، ولا يأتين ببُهتان يَفترينه بين أيديهن وأرجلهن، ولا يعصينه فى معروف.. فبايعَهن واستغفر لهن الله. ودخلت بذلك مكة فى حظيرة الإسلام، وعمت الناس روح جديدة من الحرية والإخاء والمساواة.

وكان مما دفع بأهل مكة إلى الإسلام أن رسول الله ﷺ لم يرغم أحدًا منهم على اعتناقه، على رغم ما كان له من القوة والسلطان بعد ظهوره وانتصاره؛ بل تركهم أحرارًا فى اختيار دينهم، فمن شاء أن يسلم أسلم، ومن شاء أن يبقى على دينه بقى عليه؛ حتى إن صفوان بن أمية لما أتى ليسلم قال لرسول الله ﷺ : "أمهلنى بالخيار شهرين"؛ فقال له رسول الله، صلى الله عليه وسلم : «أنت بالخيار أربعة أشهر»؛ مع أن صفوان كان من الذين أهدَر رسول الله دماءهم يوم الفتح، لما كان من شدة

عداوته وأذيته للمسلمين. وكان عفو رسول الله عمن أهدر دماءهم يوم الفتح - بعد عفوه الشامل عن أهل مكة - من دوافع الإقبال على اعتناق الإسلام فى مكة، فلم يمض إلا قليل حتى أسلم أهلها جميعًا، ورضوا بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد نبيًّا ورسولا.

وكان هؤلاء النفر الذين أهدر رسول الله ﷺ دماءهم نحو خمسة عشر، ما بين رجل وامرأة، منهم صفوان بن أمية، وعكرمة بن أبى جهل ، ووحشى بن حرب قاتل حمزة، وهند بنت عتبة آكلة كبده. وكانوا بين عدو بالَغ فى عداوته للإسلام وفى أذيته للمسلمين، وبين مجرم فر بجريمته من القصاص وارتد بعد إسلامه إلى الكفر. وقد عفا رسول الله ﷺ عن أكثرهم، فلم يقتل منهم إلا ثلاثة رجال وامرأة. وقد ترك هذا العفو أثره فى نفوس هؤلاء النفر فأسلموا راغبين؛ وكان منهم من أبلى فى الدفاع عن الإسلام أحسن البلاء، وجاهد بنفسه وماله فى الله حق جهاده.

الرسول يمحو كل أثر من آثار الشرك فى مكة وفيما حولها

وأخذ صلى الله عليه وسلم يمحو بمكة كل أثر من آثار الشرك والوثنية، فأمر بهدم ما كان حول الكعبة من الأصنام؛

وكان حول الكعبة ـ فيما يقول الرواة ـ ثلاثمائة وستون صنمًا، لكل حى من أحياء العرب صنم؛ فهُدمت الأصنام كلها، ومحيت صور الوثنية ورسومها من الكعبة، وخَلَصت قِبلةُ الإسلام للإسلام وحده.

ولما فرغ رسول الله ﷺ من أمر الكعبة، وطهرها من كل ما كان يدنسها من آثار العبودية لغير الله عز وجل، أمر مناديًا ينادى فى أهل مكة : «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدع فى بيته صنمًا إلا كسره». ولم يكن بمكة بيت إلا فيه صنم يتبرك به أهله، ويمسحونه[1] عند دخولهم وخروجهم؛ فأقبل أهل مكة على أصنامهم يكسرونها، وجعلت هند بنت عتبة تضرب صنمًا لها بالقَدُوم حتى حطمته، وهى تقول : "كنا منك فى غرور" !

ثم بعث رسول الله ﷺ سراياه فى قبائل العرب حول مكة، ليهدموا ما بها من الأصنام؛ فبعث خالد بن الوليد فى ثلاثين فارسًا إلى بطن نخلة، ليهدم بيت «العُزّى» ـ وكانت أكبر أصنام قريش ـ فهدمها؛ وبعث عمرو بن العاص فى جماعة من المسلمين إلى هذيل، لهدم صنمها «سُوَاع»، فهدمه؛ وبعث سعد ابن زيد فى عشرين فارسًا إلى المشَلَّل عند ساحل البحر، ليهدم

---

(١) ويمسحونه : كما يفعل العامة الآن عندما يزورون أضرحة الأولياء تبركًا بها.

« مَنَاة » - صنم كلب وخزاعة - فهدمه.. وهكذا جعل رسول الله يمحو كل معالم الوثنية والشرك فى مكة وفيما حولها، حتى تذهب آثارها من النفوس، وحتى تتحرك العقول من أوهام التقاليد والعادات، وتخلُص القلوب من كل ما يشوب تعلقها بالله وحده لا شريك له.

أعدت هوازن وثقيف لحرب النبى فبادرهم بالغزو

وكأنما عز على هَوَازِنَ وثَقيف أن تدور عليهم الدائرة، وأن ينالهم ما نال قريشًا من تبديل دينها، وتهديم أصنامها، ومن خضوعها لسلطان محمد بعد ما كان من عزها وسؤددُها.. وكانت ثقيف تقيم بالطائف، وكانت هوازن تجاورها فى جبال هناك حول الطائف. وكانت الطائف أخصب بقاع الجزيرة ومقر عبادة « اللاّت »، أكبر أصنام العرب بعد « هُبَل »؛ فظن أهلها أن محمدًا لا بد منصرف إليهم بعد الفراغ من أمر قريش. فاجتمع ذوو الرأى من هوازن وثقيف، وتشاوروا فيما بينهم، فاتفق رأيهم على أن يبادروا محمدًا بالغزو قبل أن يبادرهم، وأخذوا يستعدون لذلك، ويستعينون بمن حولهم من القبائل، ممن يرون رأيهم؛ فانضم إليهم قبائل نصر وجُشَم وسعد بن بكر وناس من بنى هلال، واجتمع لهم بذلك خلق كثير.. فلما التأم جمعهم جعلوا أمرهم إلى مالك بن عوف النصرى.

وكان مالك فتى حديث السن شديد الحمية، فرأى ألا يخرج بقومه إلى المعركة إلا فى أشد ما يكونون حمية وحماسة؛ فأخرج مع القوم أموالهم ونساءهم وأبناءهم، ليكون ذلك أدعى إلى حماسة الرجال واستماتتهم فى الذود عن حرماتهم. وكان فى القوم دُرَيْد بن الصِّمَّة، وهو شيخ حنكته التجارب وعركته الحروب، ولكنه أسنَّ وهَرِم فلم يعد قادرًا على قيادة الجيوش. فلما سمع بما فعله مالك بن عوف سأله عن ذلك، فقال له مالك : "إنما أردت أن أجعل وراء كل رجل أهله وماله ليقاتل عنهم". فقال له دريد : "وهل يرد المنهزم شىء؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه، وإن كانت عليك فُضِحت فى أهلك ومالك".. ولكن مالكًا ركب رأسه وأصر على ما رأى، وتابعه القوم على هواه فخرجوا بأهليهم وأموالهم.

وسمع رسول الله ﷺ بما أعدت له هوازن وثقيف، فبعث إليهم عينًا من عيونه ليستطلع له حقيقة أمرهم. فلما تبين له صدق ما عزموا عليه، أراد أن يفاجئهم قبل أن يفاجئوه؛ فخرج من مكة فى يوم السبت السادس من شوال (٢٨ يناير سنة ٦٣٠)، قاصدًا إلى هوازن وثقيف، فى اثنى عشر ألفًا من الرجال : عشرة الآلاف التى جاء بها إلى مكة، وألفان من أهلها وقد شارك أهلُ مكة فى هذه الغزوة، وأمدوا رسول الله ﷺ بما

شاء من المال والسلاح.. أعاره صفوان بن أمية مائة درع - وقيل: أربعمائة - وأسلفه بعض أشراف مكة من أموالهم، وخرج معه ناس من المشركين كثير؛ فخرج الجيش فى مظهر بالغ القوة ظاهر الغلب، حتى ظن المسلمون أن لن يُغلبوا مع هذه الكثرة، وحتى قيل: إن نساء مكة وصبيانها خرجوا وراء الجيش طمعًا فى الغنيمة.

كانت خطة العدو أن يأخذ المسلمين من جوانبهم على غرة فى عماية الصبح

وكانت هوازن وثقيف ومن تابعهم من قبائل العرب قد خرجوا برجالهم إلى وادى حُنَين، وهو واد من أودية تهامة، أجوفُ منحدر، ينفرج بعد طريق جبلى كثير المضايق والشعاب، وينحدر عند مدخله انحدارًا شديدًا. وقد رأى مالك بن عوف أن يعسكر عند مدخل ذلك الوادى، وأن يستغل طبيعة المكان فى تحطيم قوة المسلمين؛ فجعل فريقًا من رجاله فى رءوس المضايق والشعاب، وعبأ بقية الجيش فى جوانب الوادى ومكامنه، وأمر الرماة أن يفاجئوا طلائع المسلمين عند ظهورها بنبالهم، وأن يصبوها عليهم من رءوس المضايق والشعاب حتى يذهلوهم، فإذا أذهلتهم المفاجأة وأخلَّت نظامهم، هجم عليهم

الرجال وهم فى غمرة الذهول والاضطراب؛ فيميلون عليهم ميلة واحدة.

هكذا دبر مالك بن عوف خطته ـ أو لعلها كانت كذلك ـ وكأنما كان على علم بخطوات عدوه فوضع خطته على أساس؛ فقد ذكرت الروايات أن رسول الله ﷺ انتهى إلى حنين فى مساء ليلة الثلاثاء، لعشر خَلَوْن من شوال؛ فلما كان من الليل، عمد مالك بن عوف إلى أصحابه فعبأهم فى وادى حنين، وأوعز إليهم أن يحملوا على رسول الله ﷺ وأصحابه حملة واحدة. وعبأ رسول الله أصحابه فى السَّحَر، وصفّهم صفوفًا، ووضع الألْوية والرايات فى أهلها من المهاجرين والأنصار وقبائل العرب، وجعل خالد بن الوليد على مقدمة الخيل، وانحدر فى وادى حنين على تعبئته.

وكأنما كانت خطة رسول الله ﷺ أن يفاجئُ القوم فى عماية الصبح، وهم مأخوذون بنومة البُكرَة، ولم يكن يدرى رسول الله ولا المسلمون أن القوم سبقوهم إلى الوادى، وكمنوا لهم فى شعابه وأحنائه ومضايقه، "وقد أجمعوا وتهيئوا وأعدوا"، كما يقول جابر بن عبدالله، رضى الله عنه.

العدو يفاجئ المسلمين بخطته فيرتدون أمامه فى اضطراب وفوضى

وفى غَبش الصباح تحرك المسلمون، فسارت مقدمتهم من الفرسان تحت إمرة خالد بن الوليد، ومن ورائهم سارت كتائب الجيش، ومن وراء الجيش سار رسول الله على بغلته البيضاء، وقد لبس لأمة الحرب وظاهر[1] فيها بين درعين، ومن حوله رجال من الصحابة، فيهم عمه العباس بن عبد المطلب. فما كادت طلائع الجيش تنحط فى مدخل الوادى، حتى فوجئوا بالسهام تنحط عليهم فى الظلام من كل فج، فما يدرون أمن السماء تأتى أم من الأرض.. فضاقت عليهم الأرض بما رحبت، ولم يجدوا لهم بدًّا من الارتداد، وكان ارتدادهم مفاجئًا وعلى غير انتظام.. وانتهز العدو هذه الفرصة فهجم بخيله ورَجِله، وأمعن فى ظهور المسلمين طعنًا وضربًا، حتى استحَرَّ القتل فى بنى نصر بن معاوية، ثم فى بنى رئاب فشاع الاضطراب فى الجيش، وسرت فى صفوفه عدوى الهزيمة، فجعل الناس يتراجعون ويتدافعون فى غير وعى.

(١) ظاهر بين درعين: لبس درعًا فوق درع.

الرسول يثبت ويهيب بالناس أن يرجعوا

فلما رأى رسول الله ﷺ هذا الهلع، ورأى الناس يتدافعون والإبل يحمل بعضها على بعض، جعل يصيح بالناس: «أين أيها الناس؟.. هلموا إلىّ!.. أنا رسول الله!.. أنا محمد بن عبدالله!..»

أنا النبي لا كذِبْ   أنا ابن عبد المطلب

والناس فى هلعهم لا يسمعون ولا يعون، ولا يلوون على شيء مما يحيط بهم، حتى انكشفوا عن رسول الله ﷺ، فلم يبق معه إلا نفر من المهاجرين والأنصار وأهل بيته.

وكان العباس بن عبد المطلب رجلا جَهِير الصوت، فأمره رسول الله ﷺ أن يهيب بالأنصار والمهاجرين ليرجعوا، فجعل العباس يصرخ: "يا معشر الأنصار الذين آوَوْا ونصروا، يا معشر المهاجرين الذين بايعوا تحت الشجرة، هلموا إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم"!.. فما كادوا يسمعون الصراخ حتى انقلبوا يتواثبون إلى رسول الله قائلين: "لبيك لبيك"!.. حتى إن أحدهم لَيترك بعيره لما يعوقه من تدافع الناس، ويسرع إلى رسول الله ﷺ راجلا ومعه سيفه وتُرسه.

واجتمع حول رسول الله ﷺ طائفة من الرجال الصادقين فى عزائمهم وفى إيمانهم، فصمدوا فى وجه العدو حتى صدوا هجومه، ثم ترادف المسلمون وتتابعوا، وشد بعضهم أزر بعض حتى تماسكوا والتأموا. وكان الصبح قد أسفر وانكشفت لهم مواقع العدو، فحملوا عليه حملة رجل واحد. فتفرقت جموعه فى كل ناحية؛ وتابع المسلمون فلول العدو يطاردونها حيث ذهبت، حتى قُتل من قتل، وأُسر من أسر، وفر من فر.. أما مالك بن عوف فقد فر إلى حصون الطائف فاحتمى بها، وترك وراءه كل ما ساق من الأموال والأنعام والنساء والبنين، فغنم المسلمون شيئًا لا يكاد يحصيه العدد.

الرسول يتتبع العدو إلى الطائف بعد أن شتت جموعه فى حنين

وأمر رسول الله ﷺ بالسبايا والأموال فجمعت وسيقت جميعها إلى وادى «الجِعِرَّانَة»، ثم توجه بأصحابه إلى الطائف، حيث فر مالك بن عوف بمن نجا من رجاله ومن رجال ثقيف. وكانت ثقيف قد تحصنت بحصونها وغلّقت أبوابها، وتزودت بكل ما تستطيع من مئونة وسلاح، وأخذت أهبتها لحصار طويل الأمد، إن أراد محمد أن يحاصرهم. وكان رجال ثقيف ذوى

خبرة بقتال الحصون، فأجمعوا أمرهم على الدفاع عن حصونهم بكل قواهم، وعلى إحباط كل محاولة يحاولها المسلمون للوصول إليها.

فلما انتهى رسول الله ﷺ إلى الطائف، ورأى أهلها قد اعتصموا بحصونهم، أراد أن يستأنِيَ بهم لعلهم يسلمون دون قتال؛ ولكنه ما كاد يدنو من حصون الطائف حتى أمطره الرماة وابلا من السهام، فقُتل طائفة من المسلمين وجرحت طائفة، فابتعد رسول الله بأصحابه عن مرمى السهام، ثم ضرب عسكره حول الحصن، وحاصرهم بضعًا وعشرين ليلة.

حاول المسلمون بكل وسيلة أن يخرجوا الأعداء من حصونهم فلم يستطيعوا

وفى خلال هذه المدة جعل المسلمون يتخذون الوسائل لإخراج المشركين من حصونهم فلم يستطيعوا.. طلبوا إليهم أن يخرج رجال منهم ليبارزوهم فأبوا أن يخرجوا، فعيروهم بالجبن والفرار فلم يأبهوا بهم، فنصبوا عليهم المجانق يرمونهم بالحجارة فلم ينل ذلك منهم؛ فدخل رجال من المسلمين فى دبابة[1]، ثم

---

(١) كانت الدبابة فى تلك العهود فى أبسط مظاهرها، وكانت تتخذ من الخشب ليحتمى بها الجنود وهم ينقبون الحصون.

زحفوا إلى جدار الحصن ليخرقوه، فأرسلت عليهم ثقيف قطع الحديد المحماة بالنار فأخرجتهم من تحتها، ثم رمتهم بالنبل فقتلت منهم رجالا؛ فأخذ المسلمون يقطعون أعنابهم، فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ أن يتركها لله وللرحم، فنهى المسلمين عن قطعها..

وهكذا حاول المسلمون بكل وسائلهم أن يخرجوا المشركين من حصونهم، أو يقتحموها عليهم، فلم يستطيعوا. فأمر رسول الله ﷺ أن ينادَى فى عبيد ثقيف: «من خرج إلينا فهو حر». فلما سمع العبيد هذا النداء تسلل منهم بضعة عشر رجلا، فأعتقهم رسول الله، صلى الله عليه وسلم.

الرسول يفك الحصار عنهم ويتركهم لعل الله يأتى بهم

وعلم رسول الله ﷺ من أولئك العتَقاء أن ثقيفًا تزودت فى حصونها بزاد سنة، وأنهم عازمون على البقاء فيها حتى ينفَد زادهم، ثم يدافعون عنها بعد ذلك حتى لا يبقى منهم رجل. فرأى رسول الله أن لا فائدة من طول الحصار، وأن العدو قد انكسرت الآن شوكته وأُمن شره، وأنه قد صار فى محبِسه ذاك كثعلب فى جحر، إن أقام عليه أخذه، وإن تركه لم يضره.. وكانت الأشهر الحرُم قد آذنت وأوشك ذو العقدة أو أهَلّ، فآثر

الرسول أن يرحل بأصحابه ويترك هذا العدو إلى حين، فلعل الله أن يهديه فيأتى إليه مسلما طائعًا. وهكذا كان، وتحقق لرسول الله ما تمنى، فلم تمض إلا بضعة أشهر حتى أذعنت ثقيف، ودخلت فى دين الله راضية مستسلمة.

الرسول يتألف قلوب السادة من قريش بالعطاء الجزل ليسلموا

أما رسول الله ﷺ وأصحابه فقد قفلوا راجعين إلى « الجعرانة »، حيث حُبست غنائم يوم حنين؛ وهنالك أمر رسول الله بإحصائها، فكانت أربعة وعشرين ألفا من الإبل، وأربعين ألفا من الغنم، وأربعة آلاف أوقيَّة من الفضة، وستة آلاف من النساء والبنين. فاستَأنَى رسول الله بالسبْى، وبدأ بالأموال فقسمها بين الناس، فكان نصيب الراجل أربعة من الإبل وأربعين شاة، ونصيب الفارس ثلاثة أمثال ذلك.

ولما كانت النفوس بطبيعتها طُلَعَةً إلى المال، وكان البذل والعطاء مفتاحا من مفاتيح القلوب، ومدخلا من مداخل النفوس، فقد أجزل رسول الله ﷺ العطاء لنفر من أشراف قريش ومن سادات العرب وأمرائها، يريد بذلك أن يتألف قلوبهم إلى الإسلام. فقد علم صلى الله عليه وسلم أن كثيرًا ممن

أسلم من هؤلاء السادة، لا يزال حديث العهد بجاهليته، وأن كثيرًا ممن لم يسلم إنما خرج طمعًا فى الغنيمة، فما زال يستعين على تأليف قلوبهم بالعطاء، حتى أسلم من لم يكن أسلم، واطمأن إلى الإسلام من كان قد أسلم.

جاء فى إمتاع الأسماع أن أبا سفيان بن حرب جاء إلى رسول الله ﷺ والفضة بين يديه فقال: "يا رسول الله، أصبحت أكثر قريش مالا".. فتبسم ﷺ؛ فقال أبو سفيان: "أعطنى من هذا يا رسول الله".. فقال: «يا بلال، زِنْ لأبى سفيان أربعين أُوقيَّة، وأعطوه مائة من الإبل». فقال أبو سفيان: "ابنى يزيد".. قال: «زِنُوا ليزيد أربعين أوقية، وأعطوه مائة من الإبل». فقال أبو سفيان: "ابنى معاوية يا رسول الله".. قال: «زن له يا بلال أربعين أوقية، وأعطه مائة من الإبل». فقال أبو سفيان: "إنك لكريم، فداك أبى وأمى! والله لقد حاربتك فنعم المحارَب كنت، ثم سالمتك فنعم المسالَم أنت! جزّاك الله خيرًا"!

ورُوِى أن رسول الله ﷺ أعطى صفوان بن أمية يومئذ مائة من الإبل، ثم مائة، ثم مائة.. ثم رآه يرمق شعبًا مملوءًا نَعَمًا وشاء فقال له: «أعجبك هذا الشعب يا أبا وهب»؟ فقال: "نعم". فقال: «هو لك بما فيه». فقال صفوان: "إن الملوك

لا تطيب نفوسها بمثل هذا.. ما طابت نفس أحد بمثل هذا إلا نبي! أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله".

خفيت حكمة الرسول على فريق من الناس فظنوا به الظنون

وقد خفيت على كثير من الناس حكمة رسول الله ﷺ فيما غمر به المؤلَّفةَ قلوبهم من هذا العطاء، حتى قال بعض الرجال: "إن هذه لَقسمةٌ ما عُدل فيها، وما أُريد بها وجه الله".. فغضب رسول الله حين علم بذلك وقال: «ومن يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله؟ رحم الله موسى، قد أوذى بأكثر من هذا فصبر»!.. وحتى خشى الأعراب أن يذهب أولئك السادة بالأموال، فاتبعوا رسول الله يقولون: "يا رسول الله، اقسم علينا فَيْئَنا".. فما زالوا به حتى ألجئوه إلى شجرة فانتزعت عنه رداءه. فقال صلى الله عليه وسلم: «أدُّوا علَيّ ردائى أيها الناس، فوالله لو كان لى عدد شجر تهامة نَعَمٌ لقسمتها عليكم، ثم لا تجدونى بخيلا ولا جبانًا ولا كذابًا»!.. ثم أخذ وبَرَة من سنام بعير فرفعها بين إصبَعَيْه وقال: «والله مالى من فَيْئكم ولا هذه الوبرة، إلا الخمس.. والخمس مردود عليكم».

كما خفيت على الأنصار فوجدوا عليه فى أنفسهم

وقد خفيت هذه الحكمة على الأنصار أنفسهم، حتى جعلوا يتهامسون القول فيما بينهم.. فعن أبى سعيد الخُدْرِى قال: «لما أعطى رسول الله ما أعطى من تلك العطايا فى قريش وفى قبائل العرب، ولم يكن فى الأنصار منها شىء، وَجَد[1] هذا الحىُّ من الأنصار فى أنفسهم حتى كثرت منهم القالة، حتى قال قائلهم: "لقى - والله - رسول الله قومه"!.. فدخل عليه سعد بن عبادة فقال: "يا رسول الله إن هذا الحى من الأنصار قد وجدوا عليك فى أنفسهم، لما صنعت فى هذا الفىء الذى أصبت، فقسمت فى قومك، وأعطيت عطايا عظامًا فى قبائل العرب، ولم يك فى هذا الحى من الأنصار منها شىء". قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «فأين أنت من ذلك يا سعد»؟ قال: "يا رسول الله، ما أنا إلا من قومى". قال: «فاجمع لى قومك فى هذه الحظيرة».

تربية عالية

فخرج سعد فجمع الأنصار فى تلك الحظيرة، فأتاهم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله

---

(١) وجد: أسروا الغضب.

ثم قال : «يا معشر الأنصار، ما قَالَةٌ بلغتني عنكم، وجِدَةٌ وَجَدتموها علىّ فى أنفسكم؟.. ألم آتكم ضُلّالا فهداكم الله، وعَالَةً[1] فأغناكم الله، وأعداء فألَّف الله بين قلوبكم»؟ قالوا : "بلى، والله ورسوله أمَنُّ وأفضل" !..

ثم قال : «ألا تجيبوننى يا معشر الأنصار»؟.. قالوا : "بماذا نجيبك يا رسول الله؟ لله ولرسوله المَنُّ والفضل" ! قال صلى الله عليه وسلم : «أما - والله - لو شئتم لقلتم فلصَدَقتم وصُدِّقتم.. أتيتَنا مكذَّبا فصدقناك، ومخذولا فنصرناك، وطريدًا فآويناك، وعائلا فآسيناك[2].. أوَجدتم يا معشر الأنصار فى أنفسكم فى لَعَاعَة[3] من الدنيا، تألفت بها قلوب قوم ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم؟.. ألا ترضَوْن يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟ فوالذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار، ولو سلك الناس شِعبًا وسلكت الأنصار شعبًا لسلكت شعب الأنصار!.. اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار»!.. فبكى القوم حتى أخْضلوا لحاهم[4]، وقالوا :

---

(١) عالة : فقراء.

(٢) عائلا : فقيرًا، آسيناك : أعناك بمالنا.

(٣) لعاعة : شىء يسير.

(٤) أخضلوا : بللوها بدموعهم.

"رضينا برسول الله قَسْمًا وحظًّا»!

وكان هذا درسًا بليغًا من دروس التربية العالية، ألقاه رسول الله ﷺ على أصحابه؛ فى أنسب الأوقات وأصلحها للانتفاع بالدرس، فارتفع بهم إلى مرتبة عالية من مراتب السمو الإنسانى، تعلو بهم على المال، وعلى الجاه، وعلى كل ما يتكالب عليه الناس من متاع الحياة الدنيا.

الإيمان هو السلاح الأول للمؤمن

وكما كانت الغنيمة فى حنين درسًا من دروس التربية العالية لخاصَّة المسلمين، كانت الهزيمة فيها درسًا من دروس التربية العالية لعامَّتهم؛ فقد خرج المسلمون إلى هذه الغزوة بعد أن فتح الله عليهم أغلاق مكة، وبعد أن أذل لهم كبرياء قريش، وبعد أن ملَّكهم أمر البيت الحرام، وأمكنهم من نواصى العرب، وأوشكت الجزيرة كلها أن تَدِين بدينهم، وتخضع لسلطانهم.. خرجوا وهم فى فَوْرَة الفوز بكل هذا، وفى سَوْرَة العُجْب بما كانوا عليه من كثرة العدد وقوة العتاد، ونظروا إلى كثرتهم فأعجبوا بها، واطمأنوا إليها، وظنوا أنها كل شيء؛ فأراد الله أن يعلمهم أن الكثرة قد تخدع، وأن القوة قد تخون، وأن النصر بيد الله وحده، وأن سبيله وأساسه إنما هو صدق الإيمان بالله

وحسن الاعتماد عليه، وأن الكثرة والعتاد والتعبئة والنظام وما إليها، مما ينبغى أن يتزود به المسلمون من أسباب القوة... إنما تقوم على هذا الأساس وتستمد من هذا المعين.

لقد بلغ المسلمون فى هذه الغزوة كثرة لم يبلغوها قط، فهل أغنت الكثرة عنهم شيئًا؟ ها هم أولاء على هذه الكثرة مهزومون، يتدافعون أمام عدوهم تدافع السيل، ويتكَبْكَبون تكبكُب الأنقاض من البناء الشامخ، حين ينهار أعلاه على أسفله، حتى شمت بهم الشامتون، وقال قائلهم: "ألا بطل السحر اليوم، فلا تنتهى هزيمتهم دون البحر".. ولكن شيئًا واحدًا أنقذ الموقف، هو هذه الفئة القليلة التى لاذت بإيمانها، وأحاطت برسول الله، صلى الله عليه وسلم، فجعل يمدها بثقته ويقينه، ويتجه بقلوبها ونفوسها إلى الله القوى، لتستمد منه العون والقوة. فلما أخلصت هذه الفئة القليلة قلوبها ونفوسها لله، وأحسنت الصلة به والالتجاء إليه، جاءها المدد سريعًا، فانقلب ضعفها قوة، ويأسها بأسًا، وهزيمتها نصرًا مؤزرًا.

حقيقة خالدة ينبغى أن يعرفها المسلمون اليوم

وهكذا ركن المسلمون إلى أنفسهم ساعة من نهار، فوكلهم الله إلى أنفسهم، فكانت الهزيمة على كثرة العدد وقوة العتاد؛

فلما رجعوا إلى ربهم واستعانوا به، جاءهم العون والتأييد والمدد القوى، فكان النصر الكريم والفوز العظيم : ﴿لَقَدْ نصرَكُم الله فى مَواطِنَ كثيرَة ويَوْمَ حُنينٍ إذ أَعْجبَتكُمْ كثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْن عَنْكُمْ شيْئًا وَضَاقتْ علَيْكُم الأرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثمَّ ولَّيْتُمْ مُدْبرينَ * ثُمَّ أنْزل الله سَكِينتهُ علَى رَسُولِه وَعلَى المُؤمِنِين وأَنْـزلَ جُنـودًا لَـمْ تَرَوْهَا وَعذَّب الَّذِينَ كَفَرُوا وَذلك جزاءُ الْكَافِرينَ﴾[1].

هكذا قال الله فى المسلمين يوم حنين وألقى عليهم ذلك الدرس العملى، فاتعظوا به وتعلموا منه؛ فهل يدرك المسلمون اليوم حقيقة حالهم؟ وهل يشعرون بمبلغ ضعفهم أمام أعدائهم ؟ وهل يعرفون السر فيما هم عليه من ضعف على كثرة ما هم عليه من عدد ؟ . . إن هذا السر واضح وضوح الشمس، ولكن المسلمين يُغْمِضون عنه أعينهم، ويدفنون رءوسهم فى الرمال ليستخفوا منه؛ فقد هجر المسلمون دينهم، ونسوا الله فأنساهم أنفسهم، فغَدوا كزرع غاض ماؤه، وانقطع عنه غذاؤه، فأصبح هشيما تَذْرُوه الرياح.

إن المسلمين اليوم لَكثير، ولكنهم كثرة لا غناء فيها؛ فأينما نظرت وجدتهم أممًا مغلوبة على أمرها، يتحكم فيها أعداء دينهم، ويستمتعون دونها بخيرات أوطانها، ويسخرونها فى منافعهم

(١) سورة التوبة آيتا ٢٥، ٢٦.

كما تسخر العبيد، ويتحكمون فى شئونها تحكم السادة، ويعقدون لذلك المؤتمرات ويبرمون العهود، وأصبحوا وكأنما يعنيهم الشاعر القديم بقوله :

ويُقْضَى الأمرُ حين تغيب تَيْمٌ ولا يُستأذنون وهم شهود

وهكذا تحقق فى المسلمين قول الرسول الأمين : « يوشِك أن تَدَاعى عليكم الأمم كما تداعى الأَكَلَةُ على القِصاع . . » قالوا : أمن قِلة نحن يومئذ يا رسول الله ؟ قال : « لا، بل أنتم حينئذ كثير، ولكنكم غُثاءٌ كغُثاءِ السَّيل »[1].

إن موقف المسلمين اليوم فى كثرة عددهم وغَلَبهم لأعدائهم، شبيه بموقف المسلمين يوم حنين، إذ أعجبتهم كثرتهم فلم تغن عنهم شيئًا؛ ولكن المسلمين يوم حنين أفاقوا من غشيتهم، وسارعوا بالرجوع إلى ربهم فسارع إليهم نصره وتأييده. أما المسلمون اليوم فلا يزالون يغِطون فى النوم، ويمعنون فى البعد عن سواء السبيل . . فهل آن الأوان لأن يستيقظ المسلمون من نومهم، ويفيقوا من غفلتهم، ويَصِلوا ما بينهم وبين ماضيهم المجيد، وعزهم السالف، وأيامهم الغُر الميامين ؟ . . ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِين آمنُوا أَنْ تَخْشعَ قُلُوبُهُمْ لِذكْرِ الله ومَا نَزلَ مِنَ الْحَقِّ وَلاَ

---

(١) غثاء السيل : ما يحمله من القش والحطب وما إليها.

يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِم الأمدُ فقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾[1] ؟

لعله قد آن الأوان، ولعل هذه اليقظة التى أخذت تدب فى العالم الإسلامى بشير فجر جديد، ومطلع من مطالع النور لهذه الأمة الحائرة، يخرجها من الظلمات ويهديها إلى الطريق، ويقفها على ما أودع الله لها فى دينها من ذخائر القوة والعزة والسعادة؛ فتقوَى به بعد ضعف، وتَعِز بعد ذلة، وتسعد بعد شقاء.. !

الرسول يرد على هوازن أموالها وأهليها

ولما فرغ رسول الله ﷺ من تقسيم السبى والأموال جاءه وفد هوازن مسلمين، يرجون أن يرد عليهم أموالهم وأهليهم، فخيَّرهم رسول الله بين السبى والأموال، فاختاروا أبناءهم ونساءهم. فقال صلى الله عليه وسلم لأصحابه: «إن هؤلاء القوم جاءوا مسلمين، وقد كنت استأنيت بسبيهم، وخيرتهم فلم يعدلوا بالأبناء والنساء شيئًا؛ فمن كان عنده من سبيهم شىء، فطابت نفسه أن يرده، فسبيلُ ذلك، ومن أبى فليرد عليهم، وليكن ذلك قرضًا علينا، فله بكل إنسان ست فرائض من أول ما يُفِىء الله

(١) سورة الحديد الآية ١٦.

علينا». . قالوا: "رضينا وسلمنا".. فردوا عليهم نساءهم وأبناءهم، ولم يتخلف منهم أحد غير عُيَيْنة بن حصن، فإنه أبى أن يرد عجوزًا صارت فى يده منهم، ثم ردها بعد ذلك.

وسأل رسول الله ﷺ وفد هوازن عن مالك بن عوف، فعلم أنه لا يزال بالطائف مع ثقيف؛ فطلب إليهم أن يبلغوه أنه إن أتاه مسلمًا رد عليه أهله وماله، وأعطاه مائة من الإبل. فلما علم مالك بوعد رسول الله، تسلل من وراء ثقيف، وأتى رسول الله مسلمًا. فأعطاه رسول الله ما وعده، وأمَّره على من أسلم من قومه، فكان يقاتل بهم ثقيفًا ويغير على سَرْحهم حتى ضيق عليهم.

عودة الرسول إلى المدينة

ولما فرغ رسول الله ﷺ من أمر الغنائم خرج من الجعرانة معتمرًا، وذلك فى ليلة الأربعاء لاثنتى عشرة ليلة مضت من ذى القعدة، فأحرم بعُمْرة، ودخل مكة فطاف وسعى وحلق رأسه، ثم رجع إلى الجعرانة من ليلته.

واستخلف رسول الله ﷺ على مكة عَتَّاب بن أُسَيْد، وخلَّف معه معاذ بن جبل يفقِّه الناس فى الدين ويعلمهم القرآن. وكان عتاب فتى فى نحو العشرين من عمره، لكنه كان

ورِعًا تقيًّا، فأهَّله ورعه وتقـواه لأن يـكون أمـيرًا على مـكة أم القرى، على حداثة السن وغضارة العـود، فـاستعمله رسـول الله ﷺ عليها، وجعل له كل يوم درهمًا؛ فكان عتـاب يقـول: «أجاع الله كبد من جاع على درهـم! لقـد رزقـنى رسـول الله درهماً كل يوم، فليست بى حاجة إلى أحد»..

ثم انصرف رسول الله ﷺ راجعًـا إلى المدينـة، فقـدمها فى آخر ذى القعدة، أو فى مستهل ذى الحجة، سنة ثمان.. وهكذا انتهت سنة ثمان بفتح مكة، وزالت العقبـة الـكئود الـتى طـالما سدت الطريق وعاقت السير، فانبعث الإسلام بعـدها فيـاضًا فى أرض الجزيرة، وانطلق يغمر كل ناحية من نـواحيها، كما يغمـر السيل الدافق جديب الأرض، فيغمرها بالرى والخصب والنَّماء.

وأقبلت السنة التاسعة فأقبلت معها وفود العرب مـن أنحـاء الجزيرة، تـأتى طـائعة إلى المدينـة، لتعلن إلى رسـول الله ﷺ إسلامها وطاعتها، وتدخل فى دين الله راضية مطمئنة.

غزوة تبوك

تبعات الأمة الإسلامية

كان فتح مكة إيذانًا بدخول الجزيرة العربية كلها فى حظيرة الإسلام، وتكتُّل العنصر العربى كله تحت لوائه؛ فقد أدرك العرب بعد فتح مكة وبعد إسلام قريش، أنه لا مناص لهم من الدخول فى الإسلام إن عاجلا وإن آجلا. ذلك أن العرب - كما يقول ابن إسحاق -: "إنما كانت تَرَبَّص بالإسلام أمر هذا الحى من قريش؛ كانوا إمام الناس وهاديَهم، وأهل البيت والحرم، وصريح ولد إسماعيل بن إبراهيم، عليهما السلام، وقادة العرب.. لا يُنكرون ذلك؛ وكانت قريش هى التى نَصَبَت لحرب رسول الله ﷺ وخلافه. فلما افتُتحت مكة، ودانت له قريش ودَوَّخها الإسلام، عرفت العرب أن لا طاقة لهم بحرب رسول الله ولا عداوته، فدخلوا فى دين الله - كما قال الله عز وجل - أفواجًا، يَضربون إليه من كل وَجه"؛ وأصبحوا بين مسلم قد دخل فى الإسلام فصار من أهله، ومشرك قد تهيأ

للدخول فيه بين يومه وغده. فما هى إلا دورة العام حتى صارت جزيرة العرب مَوْئل الإسلام، وصار أهلها من العرب هم أهله وحُماته.

ومن هنا أخذت أمة الإسلام تتكيَّف فى الجزيرة تكيفًا دوليًّا، وتظهر فى الوجود كدولة لها كل المقومات التى تحفظ كيانها، وتضمن سلامتها، وتحميها من كل ما يعوق سيرها وتقدمها.. لم يكن المراد بها أن تكون أمة كسائر الأمم؛ إنما كان المراد أن تكون خير أمة أخرجت للناس، مهمتها أن تصلح الفساد وتقوِّم العِوَج، وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؛ يدفعها إلى ذلك إيمانها بالله وحده، ورغبتها فى أن تقوم الحياة فى هذه الأرض على الأساس الذى وضعه الله لعباده، وأن تسير فى الطريق الذى يحبه ويرضاه لهم.

على هذا الأساس قامت دولة الإسلام فى الجزيرة العربية، ولأجل هذه الغاية وضعت لها القواعد التى تضمن سلامة مجتمعها من كل آفة، وحماية أرضها من كل عدو، وإعداد أفرادها للنهوض بأعباء الأمة المثالية الخيِّرة، ولاحتمال كل ما ينشأ عن مقاومة الظلم وإقامة العدل من تبعات، وما يترتب على مطاردة الشر وإشاعة الخير من تكاليف. وهى مهمة ثقيلة

التبعات باهظة التكاليف، ولكنها المهمة التى ندب الله لها أمة الإسلام، وجعلها - من أجلها - خير أمة أخرجت للناس.

كان قيام الدولة الإسلامية مهددًا لمصالح الروم فى جزيرة العرب

بينما كان رسول الله ﷺ يُعد أمته لهذه المهمة العظيمة، ويطهر جوها من آثار الفساد والشر، ويمحو من أرضها معالم الشرك والوثنية، ويبعث السرايا إلى من حوله من قبائل العرب فتهدم الأصنام وتنشر الإسلام.. كان الروم فى شمال الجزيرة ينظرون إلى هذه الحوادث نظر التوجس والخوف؛ ذلك أن الروم كانت لهم مصالح شتى بالجزيرة العربية، وكانت هذه المصالح تتأثر - ولا شك - بما يجرى فى الجزيرة من حوادث.. كانت لهم تجارة تمر خلال الجزيرة بين الشمال والجنوب، وبين الشرق والغرب؛ وكان لهم أتباع من العرب فى شمال الجزيرة يأتمرون بأمرهم ويخضعون لسلطانهم، كما كان لهم فى قلب الجزيرة أنصار يعتمدون عليهم فى حماية تجارتهم؛ وكانت النصرانية - وهى دين الدولة الرسمى - يدين بها الغساسنة أتباع الدولة من العرب، كما يدين بها عدد غير قليل من العرب الأحرار فى الشمال والجنوب.

كانت هذه كلها مصالح يحرص الروم على بقائها خالصة لهم، وكان من العوامل التى تساعد على بقاء هذه المصالح خالصة للروم، أن العرب كانوا - بطبيعة حياتهم - قبائل متفرقة، ولم تكن لهم وحدة جامعة تلم شتاتهم وتجمع كلمتهم، وكانت كل قبيلة إنما يهمها أمر أفرادها أو أمر حلفائها إن كان لها حلفاء؛ ومن هنا كانت كلمة العرب فى تفرق دائم، وكان من صالح الروم أن يستمر هذا التفرق بين العرب، ليستمر سلطانها مبسوطًا على أتباعها منهم، وليستمر جانب غيرهم من العرب مأمونًا على مصالحها فى نواحى الجزيرة، ولكى لا يستطيع العرب أن يقفوا أمام الروم صفًّا واحدًا فى ذات يوم، فيكلفوا الدولة عناء تفريقهم إذ هم تجمعوا.

فلما ظهر الإسلام فى جزيرة العرب، وأخذ يوحد كلمة العرب ويجمع صفوفهم تحت لوائه، وظل صوته يعلو ثم يعلو حتى طرق أسماع الملوك من حوله، ومحيطه يتسع ثم يتسع حتى كاد يضم أطراف الجزيرة.. أخذ الروم يتنبّهون لخطر هذا الحادث الجديد. ولعل أول ما نبههم إليه تلك الدعوة الجريئة التى وجهها رسول الله ﷺ إلى قيصر الروم، يدعوه فيها إلى الإيمان بالله وحده، وإلى اتّباعه فيما يدعو إليه، وإلى دعوة من وراءه من الروم وغير الروم إلى الدخول فى الإسلام، ويحمِّله فيها

تَبِعة التقصير فى الإذعان لهذه الدعوة، وفى تبليغها إلى من وراءه من الأتباع والأنصار.

والتاريخ يقص علينا أن قيصر الروم لم يكن يجهل خطر هذه الدعوة، بل كان هو أول من صرح بما لها من خطر على سلطان الملوك ومهابة الدول؛ فقد جعل هرقلُ - حين وصلت إليه رسالة رسول الله ﷺ يسأل عن رجل من العرب يكون من قوم هذا النبي ليخبره خبره، حتى عثر على أبى سفيان بن حرب، فجعل يسأله سؤال العارف المتفحص عن كل ما يريد من أمره؛ حتى إذا علم علمه وعرف حقيقته، قال لأبى سفيان: "... إن كان ما تقول حقًّا فسيملك موضع قدمىّ هاتين".

كان الروم يتابعون سير الدعوة متابعة دقيقة

كانت دولة الروم إذن على علم بدعوة الإسلام، وكانت تقدر ما لها من خطورة الشأن، وتعلم أن هذه الدعوة ستمس مصالحها مساسًا كبيرًا، وأنه ينبغى لها ألا تُغْفل أمرها أو تستنيم إلى جوارها. ولعل واقعة «مؤتة» كانت أول عمل قام به الروم لدرء هذا الخطر عن دولتهم، ولإخماد هذه الدعوة التى ظنوها شرارة لا تلبث أن تنطفئ؛ فلما رأوا أنصارها ليسوا من الهوان كما تصوروا، أخذوا ينظرون إليها نظرة الجد والاهتمام، وجعلوا

يتعرفون أخبارها، ويتابعون سيرها متابعة دقيقة. وكان لهم عيون ينقلون إليهم هذه الأخبار، ويوقفونهم أولا بأول على كل ما يجرى بين رسول الله ﷺ وأصحابه.

فهذا كعب بن مالك يذكر من حديثه حين تخلف عن رسول الله ﷺ فى «غزوة تبوك» ونهى رسول الله أصحابه أن يكلموه.. أن ملك غسان بعث إليه بكتاب يقول فيه: "أما بعد، فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مَضْيَعة؛ فالحقْ بنا نواسِك". ودولة الغساسنة كانت حينذاك تابعة لدولة الروم؛ فلولا أن الروم كانوا يتابعون أخبار الرسول وأصحابه، لما كان من الحتم أن يصل مثل هذا النبأ إليهم، ولا كان من الطبيعى - لو أنه وصل - أن يهتم به ملك غسان هذا الاهتمام.

مسجد الضرار

وفى قصة «مسجد الضرَار» طرَف آخر، يشير إلى ما كان من هذه الصلة بين الروم وبين المنافقين من أهل المدينة؛ فقد ذكرت الروايات أن أبا عامر الراهب لم يطق البقاء فى المدينة، بعد أن ظهر فيها أمر رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فذهب إلى قيصر ملك الروم يستنصره على هذا النبى، فوعده ومنّاه

وأقامه عنده؛ فكتب أبو عامر إلى جماعة من قومه من أهل النفاق والرِّيَب يَعِدُهم، ويمنيهم بأنه سيقدم بجيش يقاتل به محمدًا، ويغلبه على أمره، ويرده عما هو فيه؛ وأمرهم أن يتخذوا له مَعْقِلا يقدَم عليهم فيه مَن يرسله بكتبه إليهم، ويكون مرْصَدًا له ولهم إذا قدم عليهم بعد ذلك. فشرعوا فى بناء مسجد مجاور لمسجد قباء، حتى بنوه وأحكموه، ثم أتوا رسول الله ﷺ وهو يتجهز إلى تبوك، فقالوا : "يا رسول الله، إنا قد بنينا مسجدًا لذى العلة والحاجة، والليلة المطيرة والليلة الشاتية؛ وإنا نحب أن تأتينا فتصلى لنا فيه" - يريدون بذلك أن يُقِرهم رسول الله على بنائه وإثباته . فقال لهم رسول الله، صلى الله عليه وسلم : «إنا على جَناح سفر وحال شُغل، ولو قدمنا - إن شاء الله تعالى - أتيناكم فصلينا لكم فيه».. فلما قفل ﷺ راجعًا من تبوك، ولم يبق بينه وبين المدينة إلا يوم أو بعض يوم.. نزل عليه الوحى بخبر مسجد الضرار، وما قصد إليه بانوه من الكفر والتفريق بين المؤمنين، ومن الإرصاد فيه لمن حارب الله ورسوله من قبل؛ فبعث رسول الله ﷺ إلى هذا المسجد مَن هدمه قبل مقدمه المدينة.. وفى هذا الحادث يقول الله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وتفريقًا بَيْنَ الْمُؤمِنِينَ وَإِرْصادًا لِمَنْ حَارَبَ الله ورَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ ولَيَحْلِفُنَّ إنْ أردْنَا إلاَّ الحُسْنَى والله يَشْهَدُ إنَّهُمْ

لَكَاذِبُون * لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوى مِـنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾[1].

الروم يعدون عدتهم للقضاء على دولة الإسلام

لم يكن الروم إذن بمعزل عـن دعـوة الإسـلام، ولم يـكونوا بحيث يجهلون ما يَجِدُّ من أخبارها وحـوادثها، فلما فتـح الله على رسوله مكة، وأخذت دعـوة الإسـلام تنتشر فيـاضة فى نـواحى الجزيرة، أيقن الروم أن الخطر يوشك أن يواقعهم، وأنـه لا بـد من عمل سريع لدرء هذا الخطر قبل أن يستفحل أمره. وكانـت دولة الروم لا تزال فى عنفوانها وقوتها، ولم يـكن قـد مضى على انتصارها على دولة الفرس غير بضـع سـنين، وكان لـديها مـن القوة والعتاد ما تظن أنها قادرة بـه على تحـطيم أمـة الإسـلام، وهى لا تزال وليدة فى المهد.

ومن أجل ذلك أعد الروم عدتهم للقضـاء على هـذه الأمـة الناشئة، قبل أن يشتد أمرها ويتفاقم خطرها؛ ولعلهم أرادوا أن يهاجموها فى عُقْر دارها، ليقطعوا دابـرها ويفـرغوا فى التَّـوّ مـن شأنها؛ فجمعوا ما شاءوا من الجموع وأعـدوا مـا شـاءوا مـن

(١) سورة التوبة آيتا ١٠٧، ١٠٨.

العتاد، وأخذوا أهبتهم لقطع تلك الفيافى البعيدة والصحارى الواسعة.

وبلغ رسولَ الله أن الروم قد جمعت جموعًا كثيرة بالشام، وأن هرقل قد رَزَق أصحابه لسنة، وأجْلَبت معه من قبائل العرب لَخْمٌ وجُذام وعامِلةُ وغسّان، وقدّموا مقدماتهم إلى البَلْقاء؛ فكان لابد أن يفكر رسول الله ﷺ فى دفع هذا العدوان عن أمته، وكان أمامه - كما يقول المؤرخ بودلى - طريقتان لمقابلة هذا التحدى: أولاهما أن يدع الرومان يتغلغلون فى صحراء بلاده ثم يقابلهم حيثما يحلو له، والثانية أن يهجم عليهم بنفسه. وكانت الأولى هى الأيسر والأسهل، ولكنها قد تؤدى إلى فِقْدانه بعض القبائل التى حالفها حديثًا؛ فاختار الطريقة الثانية.

الرسول يدعو لملاقاة الروم فيتنافس المخلصون فى تجهيز الجيش

وكان من الطبيعى - وقد صارت جزيرة العرب موئل دولة الإسلام - أن يقع عبء الدفاع عنها على أهلها من العرب الذين أسلموا؛ فندب رسول الله ﷺ الناس إلى الخروج، وبعث إلى مكة وإلى قبائل العرب يستنفرهم، وأعلمهم المكان الذى

يريد ليتأهبوا لذلك. وخطب ﷺ فى الناس، فحض على الجهاد وأمر بالصدقة، ورغب أهل الغنى فى الخير والمعروف، وحث الموسرين على تجهيز المعسرين؛ فتبادر المسلمون ينفقون من أموالهم، ويتنافسون فى تجهيز جيشهم.

فانفق عثمان بن عفان عشرة آلاف دينار، وأعطى ثلاثمائة بعير وخمسين فرسًا، وجاء أبو بكر بأربعة آلاف درهم هى كل ماله، وجاء عمر بن الخطاب بنصف ماله، وجاء عبد الرحمن ابن عوف بمائتى أوقية من الفضة، وحمل العباس بن عبد المطلب مالاً يقال إنه تسعون ألف درهم، وحمل طلحة بن عبيد الله وسعد بن عبادة ومحمد بن مسلمة مالاً كثيرًا، وتصدق عاصم ابن عدى بتسعين وسقًا من التمر. وساهم النساء بكل ما قدَرْن عليه من حُليّهن، فكن يُلقين فى ثوب مبسوط بين يدى رسول الله ﷺ ما بأيديهن من المسَك والمعَاضد والخواتيم، وما بأرجلهن من الخلاخيل والخَدَمات[1]، وما بآذانهن من الشُّنوف والأقراط، وما بأعناقهن من العقود والقلائد.. وتنافس المسلمون فى البذل، حتى إن الرجل ليأتى بالبعير إلى الرجل والرجلين فيقول لهما:

---

(١) المسك: أسورة تلبس فى معصم اليد. والمعاضد: أسورة تلبس فى العضد. والخدمات: أنواع من الخلاخيل التى تلبس فى الرجل.

"هذا البعير بينكما تعتقبانه"، ويأتى الرجل بالنفقة فيعطيها بعض مَن يخرج.

وهكذا جعل المخلصون يجودون بمالهم، ويتبارَوْن فى تجهيز الجيش كل بحسب طاقته؛ فمن استطاع أن يجهز غير نفسه جهز بقدر ما يستطيع، ومن لم يستطع جهز نفسه وكفى. وعجز نفر من فقراء المسلمين عن تجهيز أنفسهم، فجاءوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه أن يَحمِلَهم على ما عنده من فَضْل الركائب؛ ولم يكن عند رسول الله منها فضل، فجعل يصرفهم ويقول لهم: ﴿لا أجدُ ما أحْمِلكُم عليه﴾. فانصرفوا وعيونهم تفيض من الدمع، حزنًا على ما فاتهم من شرف الجهاد، بسبب فقرهم وعجزهم عن تجهيز أنفسهم.

وأخذ المنافقون ينتحلون الأعذار ويثبطون الهمم

أما المنافقون فقد أخذوا يتعللون وينتحلون الأعذار ليتخلفوا عن الركب؛ وكانوا من الأغنياء القادرين على تجهيز أنفسهم وتجهيز غيرهم، ولكن النفاق ضرب على قلوبهم فلجأوا إلى الحيلة يعتذرون، وجعلوا يستأذنون رسول الله ﷺ فى القعود فيأذن لهم ويُعْرض عنهم. ولم يكتف المنافقون بأن يقعدوا، بل جعلوا يثبطون الناس ويخوفونهم لقاء الروم، ويُرْجفون برسول

الله، صلى الله عليه وسلم، ويقولون فيما يقولون : "يغزو محمد بنى الأصفر مع جَهْد الحال والحر والبلد البعيد! أيحسب محمد أن قتال بنى الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضًا؟ والله لكأنكم بأصحابه غدًا مُقَرَّنين فى الحبال.. !" وكان العرب ينظرون إلى دولة الروم حينذاك، كما ننظر نحن اليوم إلى دول أوربا وأمريكا. ﴿وجاء المعَذِّرون من الأعْراب لِيُؤْذَن لهم وقعد الَّذينَ كذَبوا الله ورسوله﴾[1] ولكن ذلك لم يمنع المسلمين أن يُعدوا للخروج عدته، وتتابع الناس يتوافدون على المدينة من كل صوب، حتى زاد عددهم على ثلاثين ألفًا.

خرج الرسول إلى تبوك فى ثلاثين ألفًا

وضرب رسول الله ﷺ عسكره على ثنية الوداع، واستخلف عليه أبا بكر يصلى بالناس، واستخلف على المدينة محمد بن مسلمة؛ وعقد الألوية والرايات، فدفع لواءه الأعظم إلى أبى بكر، ودفع رايته العظمى إلى الزبير، ودفع راية الأوس إلى أسَيد ابن حُضيَر، وراية الخزرج إلى الحباب بن المنذر، وأمر كل بطن من الأنصار وقبائل العرب أن يتخذوا لواء أو راية؛ وخرج فى شهر رجب من السنة التاسعة (سبتمبر وأكتوبر ٦٣٠)، قاصدًا

---

(١) سورة التوبة الآية ٩٠.

إلى ناحية الشام، فى ثلاثين ألفًا من الناس، والخيل فيها عشرة آلاف فرس. وكان عبد الله بن أبىّ خرج فى حلفائه من اليهود والمنافقين، فعسكر بهم إزاء عسكر رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ؛ فلما أجمع رسول الله السير، تخلف عنه عبد الله بن أبىّ ومن كان معه، كما تخلف عنه فى غزوة أحد.

قاسى المسلمون فى هذه الرحلة مشقة بالغة

ولم يكن الطريق سهلا، ولا السفر قريبًا، ولا الوقت ملائما للسير؛ إنما "كان ذلك فى زمان عُسْرة من الناس، وشدة من الحر، وجَدْب من البلاد.

وحين طابت الثمار والظلال، فالناس يحبون المُقام فى ثمارهم وظلالهم، ويكرهون الشخوص فى الحال من الزمان الذى هم فيه"(1)؛ ولكنه الجهاد لدفع عدو مهاجم، ودرء خطر جاثم على الأبواب، فما كان المؤمنون - وهم أهل الدعوة وحماتها - لينكلوا عن الجهاد، مهما تكن الأسباب غير مواتية، ومهما تكن الظروف غير ملائمة : ﴿مَا كَانَ لأَهْلِ المدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رسُولِ الله وَلاَ يرْغَبُوا بأَنْفُسِهِمْ عَنْ نفْسِهِ ذِلكَ بأَنَّهُمْ لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ ولاَ نَصَبٌ ولا مخمصَةٌ فى سَبيلِ اللهِ

---

(1) ابن إسحاق

ولا يَطَئُون مَوْطِئًا[1] يَغِيظُ الكُفَّارَ وَلاَ ينالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إلاَّ كُتِب لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صالحٌ إن الله لاَ يُضِيعُ أجْرَ المُحْسِنينَ * ولا يُنفِقُونَ نفقَةً صَغيرةً ولاَ كَبيرَةً ولا يقْطَعُون واديًا إلاَّ كُتِب لَهُمْ لِيَجْزِيَهُم الله أحْسَنَ مَا كانُوا يَعْملُونَ﴾[2].

وقد قاسى رسول الله ﷺ وأصحابه فى هذه السَّفرة مشقة بالغة وعنتًا كثيرًا؛ فقد اجتمع فيها إلى بُعد الشُّقَّة وشدة الحر، جَهدُ الحال وشُح المئونة وقلة الظَّهْر[3]، حتى سماها الله تعالى : ﴿ساعة العُسْرة﴾. روى الإمام أحمد فى تفسير قول الله عز وجل : ﴿لقد تابَ الله علَى النبىِّ والمهاجِرينَ والأنْصَار الذينَ اتَّبَعُوه فى ساعةِ العُسْرة..﴾[4] قال : "خرجوا فى غزوة تبوك : الرجلان والثلاثة على بعير واحد، وخرجوا فى حر شديد، وأصابهم عطش حتى جعلوا ينحرون إبلهم لينفُضُوا أكراشها ويشربوا ماءها؛ فكان ذلك عسرةً فى الماء، وعسرة فى النفقة، وعسرة فى الظَّهر".

وقال قَتَادة : "خرجوا إلى الشام عام تبوك فى لُهْبَان الحر[5]، على ما يعلم الله من الجَهْد[6]؛ فأصابهم فيها جهد

(١) النصب : التعب، والمخمصة : الجوع؛ والوطء : السير.
(٣) الظهر : الركائب.
(٢) سورة التوبة آيتا ١٢٠، ١٢١.
(٤) سورة التوبة الآية ١١٧.
(٥) لهبان الحر : شدة الحر.
(٦) الجهد : المشقة.

شديد، حتى لقد ذُكر لنا أن الرجلين كانا يشقان التمرة بينهما، وكان النفَر يتداولون التمرة بينهم، يمصها هذا ثم يشرب عليها، ثم يمصها هذا ثم يشرب عليها"

وروى أنه قيل لعمر بن الخطاب، رضى الله عنه: حدثنا عن شأن ساعة العسرة، فقال عمر: "خرجنا إلى تبوك فى قيظ شديد، فنزلنا منزلاً، وأصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع.. وحتى إن الرجل لَينحرُ بعيره فيعتصر فَرْثَه[1] فيشربه، ثم يجعل ما بقى على كبده. فقال أبو بكر الصديق: يا رسول الله، إن الله عوَّدَك فى الدعاء خيرًا، فادع الله لنا! فقال: «أوتحب ذلك»؟ قال: نعم. فرفع رسول الله ﷺ يديه إلى السماء، فلم يَرْجِعْهما حتى قالت السماء - أى آذنَت بمطر - فأطَلَّت ثم سكَبَت[2]، فملئوا ما معهم. ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر".

كانت هذه الرحلة الشاقة امتحانًا تميز فيه المؤمنون الصادقون من المنافقين

لقد كانت هذه المشقة التى عاناها المسلمون فى السير إلى تبوك امتحانًا من الله لهم، أراد به تمحيص المؤمنين

(١) الفرث: بقايا الطعام فى المعدة.

(٢) الطل: المطر الخفيف، والسكب: المطر الدافق.

واستخلاصهم، وإعدادهم لاحتمال مشاق الجهاد فى سبيله، ولينظر مبلغ صبر الصابرين وصدق الصادقين فى سبيل الذَّوْد عن دينهم، فكان لا يحتمل هذه الشدة إلا الذين صدق إيمانهم ورسخت عقيدتهم؛ أما الذين نافقوا وتظاهروا بالإيمان، فقد تضعضعوا وخارت عزائمهم، فكانوا يتسللون من وراء الصفوف راجعين.

قال ابن إسحاق: «ثم مضى رسول الله ﷺ سائرًا، فكان يتخلف عنه الرجل فيقولون: يا رسول الله، تخلف فلان. فيقول: «دعوه، فإن يَكُ فيه خير فسيُلْحِقه الله تعالى بكم، وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه». وتلوَّم[1] أبو ذر على بعيره، فلما أبطأ عليه أخذ متاعه فحمله على ظهره، ثم خرج يتبع أثر رسول الله ماشيًا. ونزل رسول الله ﷺ فى بعض منازله، فنظر ناظر من المسلمين فقال: يا رسول الله، إن هذا لرَجلٌ يمشى على الطريق وحده. فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «كن أبا ذر»! فلما تأمله القوم قالوا: يا رسول الله، هو - والله - أبو ذر. فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «رحم الله أبا ذر! يمشى وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده»..

---

(١) تلوم: تأخر.

أبو خيثمة

وقد كان نفر من المسلمين أبطأت بهم الغيبة حتى تخلَّفوا عن رسول الله ﷺ من غير شك ولا ارتياب، منهم كعب بن مالك، ومُرارة بن الربيع، وهلال بن أمية، وأبو خَيْثَمة؛ وكانوا نَفَرَ صِدْق لا يُتَّهمون فى إسلامهم. فأما الثلاثة الأولون فقد تراخت بهم العزيمة، وتمادى بهم الفتور، وأغراهم الظل والماء بالقعود حتى قعدوا، وكان لهم مع رسول الله ﷺ شأن أنزل الله فيه قرآنًا؛ وأما أبو خيثمة فقد تدارك أمره قبل فواته، فلحق برسول الله، صلى الله عليه وسلم.

قال ابن إسحاق: ثم إن أبا خيثمة رجع - بعد ما سار رسول الله أيامًا - إلى أهله فى يوم حار، فوجد امرأتين له فى عريش لهما فى حائطه[1]، قد رَشَّت كل منهما عريشها، وبرَّدت له فيه ماء، وهيأت له فيه طعامًا. فلما دخل قام على باب العريش، فنظر إلى امرأتيه وما صنعتا له فقال: رسول الله فى الضِّح[2] والريح والحر، وأبو خيثمة فى ظل بارد، وطعام مهيأ،

(١) الحائط: البستان يحوطه سور من البنيان.

(٢) الضح: لهب الشمس وحرارتها.

وامرأة حسناء، فى ماله مقيم؟ ما هذا بالنصَف[1]! ثم قال: والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله، صلى الله عليه وسلم! فهيِّئا لى زادًا.. ففعلتا ثم قدم ناضحه[2] فارتحله، ثم خرج فى طلب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، حتى أدركه حين نزل تبوك»[3].

لم يجد الرسول أحدًا من الروم فلم يتجاوز تبوك

وحين وصل رسول الله ﷺ إلى تبوك وصار على حدود دولة الروم، لم يجد أحدًا من العدو.. ومن المحتمل أن يكون الروم آثروا الانسحاب إلى داخل بلاد الشام، ليتحصنوا بحصونها حين بلغهم أمر هذا الجيش وقوته؛ كما يقول الدكتور هيكل. ومن المحتمل أيضًا - كما يقول السيد إميل درمنغم - أن يكون المسلمون قد عدلوا عن مواصلة زحفهم حينما علموا - خلافًا لما كانوا يظنون - أن هرقل لم يجهز جيشًا لغزو المدينة. ويذهب صاحب الإمتاع هذا المذهب، فيرى أن ما خُبِّر به النبى ﷺ من تعبئة هرقل لأصحابه، ومن دنوه إلى أدنى الشام كان باطلا؛

---

(١) بالنصف: بالعدل والإنصاف.

(٢) ناضحة: احضر جمله فوضع عليه الرحل وأعده للسفر.

(٣) ليست تبوك بلدًا، وإنما هى حصن به عين ماء ونخل، يقع فى منتصف الطريق بين المدينة ودمشق، ويبعد عن المدينة بنحو اثنتى عشرة مرحلة.

وأن هرقل لم يُرِد ذلك ولا همَّ به.

وأيًّا كان واقع الأمر فقد وقف رسول الله ﷺ عند تبوك لم يجاوزها. وبعث سراياه إلى من حول تبوك من نصارى العرب التابعين لدولة الروم، فصالحه أهل أيْلة وأذْرُح وجرْبَاء ومَقْنَا ودُومَة الجندل، على أن يعطوا الجزية ويدخلوا فى أمان الإسلام وعهده. وأقام رسول الله بتبوك نحو عشرين ليلة، ثم استشار أصحابه فى أن يجاوزوها إلى ما وراءها من ديار الشام، فقال له عمر: "يا رسول الله، إن كنت أمرت بالسير فسر". فقال صلى الله عليه وسلم: « لو كنت أمرت بالسير لم أستشر فيه ». فقال: "يا رسول الله، إن للروم جموعًا كثيرة، وليس بالشام أحد من أهل الإسلام، وقد دنوت منهم، وقد أفزعهم دُنُوُّك، فلو رجعت هذه السنة، حتى ترى، أو يُحدث الله أمرًا!"..

فتبع ﷺ مشورة عمر، وأمر بالقُفول[1]؛ فرجع الجيش إلى المدينة، بعد أن أمَّن رسول الله حدود الدولة من ناحية الشمال، بما عقد من المعاهدات بينه وبين نصارى العرب المجاورين للروم؛ وكان رجوعه، صلى الله عليه وسلم. فى رمضان (ديسمبر سنة ٦٣٠). ولما قرب رسول الله من المدينة خرج الناس لتلقِّيه،

---

(١) القفول: الرجوع.

وخرج مع الناس الصبيان والنساء والولائد، وصعدت المخدَّرات[1] على الأسطحة يُنشِدْن ويغنِّين، فرحًا بعودة رسول الله، صلى الله عليه وسلم.

كان ما نزل من الآيات فى شأن هذه الغزوة أطول وأشد ما نزل من القرآن فى شأن الغزوات

وفى أثناء رجوعه، صلى الله عليه وسلم، إلى المدينة، نزل عليه ما نزل من سورة التوبة فى شأن الذين تخلفوا من المنافقين والمقصرين بغير عذر. "والآيات التى أنزلها الله على رسوله فى شأن هذه الغزوة، هى أطول ما نزل فى قتال بين المسلمين وخصومهم"[2]. وقد بدأت باستنهاض الهمم لرد هجوم المسيحية على الإسلام، وإفهام المسلمين مَغَبَّةَ تقصيرهم فى أداء هذه الفريضة، وإشعارهم بأن الله لا يقبل ذرة من تفريط فى حماية دينه ونُصرة نبيه، وأن التراجع أمام الصعوبات الحائلة دون قتال الروم يعتبر مَزْلَقَة إلى الرِّدَّة والنفاق: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِين آمنُوا مَا لَكُمْ إذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِروا فى سَبِيل الله اثَّاقَلْتُمْ إلَى الأَرْض أَرَضِيتُمْ بالْحَياةِ الدُّنيَا مِن الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدنيا فى

(١) المخدَّرات: النساء المحجبات فى البيوت. وهن نساء الطبقة الراقية.

(٢) سورة التوبة من الآية ٣٨ إلى آخر السورة.

الآخِرَة إلا قليلٌ * إلاَّ تَنْفِروا يُعَذِّبْكُمْ عذابًا أليمًا ويَسْتَبدلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلا تَضرُّوهُ شيْئًا وَالله علَى كُلِّ شَىْءٍ قديرٌ﴾[1]

ومضت الآيات تتحدث فى صراحة وعنف؛ ففضحت المنافقين، وكشفت المترددين، وأهانت طلاب الدعة والراحة، الذين آثروا ظل القعود فى بيوتهم وحقولهم على حر الصحراء، ووَعْثَاء السفر، ومتاعب الجلاد: ﴿فَرِحَ المُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلاَفَ رَسُول الله وكَرِهُوا أنْ يُجَاهِدُوا بأَمْوالِهِمْ وأنفُسِهِم فى سَبيل الله وقَالُوا لا تَنْفِرُوا فى الحَرِّ قُلْ نَارُ جهنَّمَ أشدُّ حرًّا لَوْ كَانُوا يفْقَهُون * فلْيَضْحَكُوا قليلاً وَلْيَبْكُوا كثيرًا جزَاءً بمَا كَانُوا يكْسِبُونَ * فإنْ رَجعَكَ الله إلَى طائفة منْهُمْ فاسْتأْذَنُوكَ للخُروج فَقُلْ: لَنْ تخرُجُوا معىَ أبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا معىَ عدُوًّا إنَّكُمْ رَضِيتُمْ بالْقُعُودِ أوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الخالفينَ * وَلاَ تُصلِّ عَلَى أحَد منهمْ مَاتَ أبَدًا وَلاَ تقُمْ عَلَى قَبْرِه إنَّهُمْ كَفرُوا بالله ورَسُوله وماتُوا وهُمْ فاسِقُونَ * ولا تُعْجِبْكَ أمْوالُهُمْ وأوْلادُهم إنَّما يُريدُ الله أنْ يُعذِّبَهُمْ بهَا فى الدُّنْيا وَتَزْهَق أنْفُسُهُمْ وهُمْ كافِرُونَ﴾[2].

---

(١) فقه السيرة، والآيتان من سورة التوبة رقم ٣٨، ٣٩.

(١) سورة التوبة الآيات ٨١ - ٨٥.

على كل فرد فى أمة الإسلام أن يقوم بواجبه فى حمايتها وقت الخطر

والذى يَلفت النظر فى الآيات التى نزلت على رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك، أنها أشد ما نزل من القرآن فى شأن المخلفين، مع أن هذه الغزوة لم يقع فيها قتال، ولم يلاق المسلمون فيها عدوهم. ويبدو أن الأمر فى شأن الجهاد ليس أمر قتال يقع أو لا يقع، إنما هو أمرٌ واجب المسلمين فى حماية أمتهم من كل عدو يريد أن ينال منها، سواء أكان ذلك بالفعل أم بالنية، فواجب كل فرد فى أمة الإسلام أن يقوم بنصيبه فى حمايتها، إلا أن يكون له عذر قاهر يحول بينه وبين أداء واجبه: ﴿لَيْس عَلَى الضُّعفَاء وَلاَ عَلَى المَرْضَى وَلاَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَجدُون ما يُنْفِقُونَ حرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لله وَرَسُوله ما عَلَى المحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ والله غفُورٌ رَحِيمٌ * ولا عَلَى الَّذين إذا مَا أتَوْكَ لِتحْمِلَهُمْ قُلْت لاَ أجِدُ ما أحْمِلُكمْ علَيْهِ تَوَلَّوْا وأعْيُنُهمْ تفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا ألَّا يجدوا ما يُنفِقُون * إنما السبيلُ علَى الذِينَ يسْتأْذِنُونَكَ وهُمْ أغنياءُ رضُوا بأن يكُونُوا معَ الخوالِفِ وطبع الله علَى قُلُوبِهِمْ فهُمْ لاَ يعْلَمُونَ﴾[1].

---

(١) سورة التوبة الآيات ٩١ - ٩٣.

ومن هنا كان تخلف الذين تخلفوا عـن غـزوة تبـوك بغيـر عذر، نكولاً عن أداء الـواجب المفـروض علـى كل قـادر فى الأمة، وتقاعدًا عن نصرة الجماعة التى ينتسبون إليهـا، وخَـوَرًا وتميُّعًا فى الساعة الحرجة والوقت العصـيب؛ فـكان لا بـد أن يُكشَف أمرهم للجماعة حتى لا تنخدع بهـم بعـد ذلك، وكان لابد أن يُؤَدَّبوا الأدب الذى يردعهم ويردع أمثالهم حتى يرعَوُوا؛ فإما أن يتوبوا ويرجعوا إلى صـفوف الجمـاعة إن كانـت فيهـم صلاحية للبقاء، وإما أن تفرغ الجماعة من أمرهـم وتَنبِذهـم نبـذ الغُثَاءِ فلا هم منها ولا هـى منهـم .. "فـالذين يَضـعُفون ويتخلفون يجب نبذهم بعيدًا عن الصـف، وقـايةً لـه مـن التخلخل والهزيمة. والتسامح مع الذين يتخلفون عن الصف فى ساعة الشدة ثم يعودون إليه فى سـاعة الـرخاء، جنـاية علـى الصف كله، وعلى الدعوة التـى يـكافح فى سـبيلها كفـاحه المرير"[1].

كانت حملة القرآن قاسية على الذين قعدوا عن الخروج لنكولهم عن أداء أقدس واجب

من أجل ذلك حمل القرآن الكريم على الذين تخلفـوا فى هذه الغزوة حملة شديدة، وقسا عليهـم قسـوة بـالغة، فـلامهم

(١) فى ظلال القرآن.

ووبخهم، وقرعهم أشد التقريع، وفضحهم أشد الفضيحة، وطعنهم فى أعز ما يعتز به الرجال ذوو الكرامة والحسيس.. وصفهم بالخسة وسقوط الهمة وتفاهة الغرض، وأنهم لا ينشطون إلا للمنافع العاجلة والأغراض الزائلة؛ أما جلائل الأعمال وعظائم الأمور، فليسوا من أهلها ولا طلابها ﴿لَوْ كانَ عَرَضًا قريبًا وَسَفَرًا قاصِدًا لاتَّبَعُوك ولكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّة وسيحْلِفُون بالله : لو اسْتَطَعْنا لخَرجْنَا معَكُم يُهْلِكُون أنفسَهُمْ والله يَعْلَمُ إنَّهُمْ لكَاذِبون *.... ومِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فى الصَّدَقاتِ فَإنْ أُعْطُوا مِنها رَضُوا وإنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إذَا هُمْ يَسْخطُون﴾[1].

وعيرهم بالجبن والخَوَر والعجز والخمول، وأنهم ليسوا من ذوى الغَناء عند الشدة، ولا من أولى النجدة عند الخطر، يُشفقون من المتاعب وينفرون من الجهد، ويؤثرون الراحة الرخيصة على الكدْح الكريم، ويفضلون السلامة الذليلة على الخطر العزيز : ﴿ويحْلِفُون بالله إنَّهُمْ لَمنْكُمْ ومَا هم مِنْكُمْ ولَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ * لَوْ يجدُون مَلْجَأً أَوْ مغارات أَوْ مُدَّخَلاً لَوَلَّوْا إلَيْهِ وهُمْ يَجْمَحُونَ *... وَإذا أُنْزلَتْ سُورةٌ أن آمِنُوا بالله وجاهِدُوا مع رسُوله اسْتأْذَنك أُولُوا الطَّوْل منهم وقَالُوا ذَرْنَا نكُنْ

(١) سورة التوبة الآيات ٤٢ - ٥٨.

مَعَ القاعِدِين * رضُوا بِأنْ يكُونُوا مع الخوالِف وطُبِعَ علَى قُلُوبِهِمْ فهم لَا يَفقهُون﴾[1].

وبيّن للجماعة أنهم فيها فساد ورجس، وأن قعودهم كان خيرًا لها من خروجهم، وأن سلامتها فى أن تطهر صفوفها منهم، لأنهم لا يؤمنون بأهداف الجماعة ولا يشاركونها مشاعرها، ولأنهم فيها من عوامل الهدم لا من عوامل البناء : ﴿ولَوْ أرَادُوا الخُرُوج لأعَدُّوا لَهُ عُدَّة وَلكِنْ كَرِه الله انْبعاثَهم فثبطَهُمْ وقِيل اقْعُدُوا معَ القاعِدينَ * لَوْ خرجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكمْ إلَّا خَبالا ولأَوْضَعُوا خلالَكُمْ يبْغونَكُمُ الفتْنَة وَفِيكُمْ سمَّاعُونَ لَهُمْ، وَالله عليمٌ بالظَّالِمينَ * لقدِ ابْتغَوُا الفتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وقلَّبُوا لَك الأمُورَ حتَّى جاء الحقُّ وظهَر أمْرُ الله وهُمْ كارهُون * ومِنهُمْ مَنْ يقُولُ ائْذَنْ لى ولا تفْتِنِّى ألا فى الفتْنَةِ سقَطُوا وإنَّ جهَنَّمَ لمحيطَةٌ بالْكَافرين * إن تُصبْك حسنةٌ تسَؤْهُمْ وَإنْ تُصبْك مُصيبةٌ يقُولُوا قَدْ أخذنَا أمْرنا مِنْ قَبْلُ ويَتَولَّوْا وهُمْ فَرِحُونَ.. سيحْلِفُون بالله لكمْ إذا انْقلَبْتُم إلَيْهم لِتُعْرضُوا عنْهُم فأَعْرضُوا عنْهُمْ إنهم رجس ومَأْوَاهُم جهنمُ جزاءً بما كَانُوا يكْسِبُونَ * يحْلِفُون لكُمْ لِترْضَوْا عنُهم فإنْ ترْضَوْا عنْهُم فإنَّ الله لا يرْضَى عن الْقوْمِ الفَاسِقِين﴾[2].

(١) سورة التوبة الآيات ٥٦ - ٨٧. (٢) سورة التوبة الآيات ٤٦ - ٩٦.

هكذا كان شأن القرآن مع المنافقين وطلاب المنفعة، من المتخلفين عن صفوف الجماعة.. حقَّرهم وهوَّن من شأنهم، ووضعهم حيث وضعوا أنفسهم مع الخوالف من النساء والصغار والعجزة والضعفاء، وكشف أمرهم للجماعة وحذرها من أخاديعهم، وأمرها بالإعراض عنهم.. فلما جاءوا إلى رسول الله ﷺ يعتذرون أعرض عن عتابهم، وقبل منهم ظاهر عذرهم، ووكل سرائرهم إلى الله سبحانه.

أما الذين قعدوا فتورًا وكسلا فقد قبل الله توبتهم

أما الذين ركنوا إلى التراخى واستناموا إلى الفتور، كسلا وميلا إلى الدعة، واسترواحًا للظلال فى حر الهجير، لم يدفعهم إلى ذلك شك ولا ارتياب، ولم يَدْعُهم إليه كيد ولا نفاق.. فهؤلاء قَبِل الله توبتهم، وأذن لرسوله فى العفو عنهم، وأمره أن يتقبل منهم بعض أموالهم، تطهيرًا لنفوسهم، وإيذانًا بقبولهم فى صفوف الجماعة، وأن يُطَمْئِنَ خوفهم بدعواته لهم، ويسكِّن نفوسهم بصلواته عليهم، ويرجوع من الله العفو عنهم والمغفرة لهم: ﴿وآخَرون اعْترفُوا بذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عملاً صَالِحًا وآخَرَ سَيِّئًا عسى الله أن يَتُوبَ عليهِمُ إنَّ الله غَفُورٌ رَحِيمٌ * خذْ مِنْ أمْوالِهِمْ صَدَقَةً تُطهِّرُهُمْ وتُزكِّيهمْ بِها، وصلِّ علَيْهِمْ إنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَالله سمِيعٌ عِليمٌ * أَلَمْ يعْلمُوا أَنَّ الله هُوَ يقْبَلُ

التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ ويـأْخُذ الصَّـدقاتِ وَأَنَّ اللهَ هُـو التَّـوَّابُ الرَّحِيمُ * وقُلِ : اعْمَلُوا فسَيَرَى اللهُ عملَكُمْ ورسُولُهُ والمُؤمِنُونَ وستُرَدُّون إلَى عالِمِ الغَيْبِ والشَّـهادةِ فيُنبِّئُـكُم بِمَـا كُنتُـمْ تَعْمَلُونَ﴾[1].

توبة كعب بن مالك وصاحبيه

وكان من المتخلفين ثلاثة صدَقوا رسول الله ﷺ فلم يختلقوا أعذارًا ولم يزيفوا قولا، فأرجأ النظر فى أمرهم حتى يقضى الله فيهم بما يشاء: هم هلال بن أمية، ومُرارة بن الربيع، وكعب بن مالك. وفى قصة كعب بن مالك - كما رواها عنه غير واحد من الرواة - صورة بالغة من النفس الحساسة المؤمنة فى صدقها وصراحتها، وفى ضيقها وحيرتها، وفى نجاتها وفرحتها، وفى إخلاصها وتوبتها؛ وصورة أخرى من المجتمع الإسلامى فى ارتقاء وعيه وسمو إدراكه، وشدة إحساسه بذنب المذنب وتوبة التائب.

كعب يخلد إلى الراحة

قال كعب بن مالك : « ... كان من خبرى حين تخلفت عن رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك، أنى لم أكن قَطُّ أقوى

(1) سورة التوبة الآيات ١٠٢ - ١٠٥.

ولا أيسَرَ منى حين تخلفت عنه فى تلك الغَزَاة : والله ما جمعتُ عندى قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما فى تلك الغزوة. ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا وَرّى بغيرها، حتى كانت تلك الغزوة، فغزاها رسول الله ﷺ فى حر شديد، واستقبل سفرًا بعيدًا ومَفاوِز وعدوًّا كثيرًا، فجلًّى للمسلمين أمرهم ليتأهّبوا أُهْبةَ غزوهم، أخبرهم بوجهه الذى يريد. والمسلمون مع رسول الله كثير، ولا يجمعهم كتاب حافظ - يريد الديوان - فما رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أنه سيخفى له ذلك، ما لم ينزل فيه وحى من الله عز وجل.

وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال.. وتجهز رسول الله ﷺ والمسلمون معه، فَطَفِقت أغدو لكى أتجهز معهم فأرجع ولم أقض شيئًا، فأقول فى نفسى : أنا قادر على ذلك إن أردت. فلم يزل يتمادَى بى حتى شَمّر بالناس الجِدّ[1]، فأصبح رسول الله ﷺ غاديًا والمسلمون معه ولم أقض من جهازى شيئًا؛ فقلت : أتجهز بعده بيوم أو يومين ثم ألحق بهم. فغدوت بعد أن فَصَلوا لأتجهز فلم أقض شيئًا، ثم غدوت ثم رجعت ولم أقض شيئًا؛ فلم يزل يتمادى بى حتى أسرعوا

---

(١) شمر الجدّ : فرغوا من استعدادهم وتأهبوا للسير.

وَتفرَّط الغزو[1]، وهممت أن أرتحل فأدركهم - وليتنى فعلت - فلم يُقدّر لى ذلك؛ فكنت إذا خرجت فى الناس بعد خروج رسول الله ﷺ أحزننى أنى لا أرى لى أُسوةً إلا رجلا مغموصًا[2] عليه فى النفاق، أو رجلا ممن عذَر الله من الضعفاء. ولم يَذْكُرْنى رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس فى القوم بتبوك: «ما فعل كعب بن مالك»؟ فقال رجل من بنى سَلَمة: "يا رسول الله، حبسه بُرداه ونظره فى عِطفَيْه"[3] فقال معاذ بن جبل: "بئس ما قلت! والله يا رسول الله ما علمنا عنه إلا خيرًا"! فسكت رسول الله، صلى الله عليه وسلم.

قال كعب: فلما بلغنى أن رسول الله ﷺ توجه قافلا من تبوك، حضرنى همى، وطَفِقْت أتذكر الكذب وأقول: بماذا أخرج من سَخَطه غدًا؟ واستعنت على ذلك بكل ذى رأى من أهلى.. فلما قيل إن رسول الله ﷺ قد أظل[4] قادمًا راح عنى الباطل، وعرفت أنى لم أنْجُ منه أبدًا بشىء فيه كذب، فأجمعت صِدْقَه. وأصبح رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قادمًا؛ وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين، ثم جلس

---

(١) بمعنى ضاعت الفرصة فى تداركه.

(٢) مغموصًا عليه: متهمًا بالنفاق.

(٣) اى شغله إعجابه بنفسه عن الخروج.

(٤) اظل: قرب.

للناس. فلما فعل ذلك جاءه المخلَّفون، فطفِقوا يعتذرون إليه ويحلفون له، وكانوا بضعة وثمانين رجلا فقبل منهم رسول الله عَلانِيَتَهم، وبايعهم واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله.. حتى جئت.

كعب يصدق النبي فى اعتذاره

فلما سلمت عليه تبسم تبسُّمَ المُغْضَب، ثم قال: «تعال».. فجئت أمشى حتى جلست بين يديه. فقال لى: «ما خلَّفك؟ ألم تكن قد اشتريت ظهرك»؟ قلت: "بلى والله، وإنى - والله يا رسول الله - لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أنى سأخرج من سَخَطه بعذر، ولقد أُعْطِيتُ جَدَلا[1] ولكنى - والله - علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عنى، لَيُوشِكَنَّ الله أن يُسْخطكَ علىَّ؛ ولئن حدثتك حديث صدق تَجِد[2] علىّ فيه، إنى لأرجو فيه عُقْبَى الله[3].. ولا - والله - ما كان لى من عذر! والله ما كنت قَطُّ أقوى ولا أيسرَ منى حين تخلفت عنك"!

فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «أما هذا فقد

---

(١) أعطيت جدلا: قدرة على سبك الكلام وحسن التخلص.

(٢) تجد: تغضب.

(٣) عقبى الله: عفوه ومغفرته بعد.

صدق، فقم حتى يقضى الله فيك». فقمت؛ وبادرنى رجال من بنى سلمة واتبعونى، فقالوا لى : "والله ما علمناك كنت أذنبت ذنبًا قبل هذا؛ لقد عجزت ألَّا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر به المخلَّفون؛ فلقد كان كافيك من ذنبك استغفار رسول الله، صلى الله عليه وسلم"، فوالله ما زالوا يُؤنِّبوننى حتى أردت أن أرجع إلى رسول الله فأكذِّب نفسى؛ ثم قلت لهم : "هل لقى هذا معى أحد"؟ قالوا : "نعم، رجلان قالا مثل ما قلت، فقيل لهما مثل ما قيل لك". فقلت : "من هما"؟ قالوا : "مرارة بن الربيع العَمْرى، وهلال بن أمية الواقِفى". فذكروا لى رجلين صالحين قد شهدا بدرًا، لى فيهما أسوة. فمضيت حين ذكروهما لى..

تأديب وتقويم

قال : ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا - أيها الثلاثة - من بين من تخلف عنه؛ فاجتنبَنا الناسُ وتغيروا لنا، حتى تنكرت فى نفسى الأرض فما هى بالأرض التى أعرف، فلبثْنَا على ذلك خمسين ليلة.. فأما صاحباى فاستكانا وقعدا فى بيوتهما، وأما أنا فكنت أشبَّ القوم وأجلدَهم، فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين، وأطوف فى الأسواق، فلا يكلمنى أحد. وآتى رسول الله فأسلم عليه وهو فى مجلسه بعد الصلاة،

فأقول فى نفسى : "هل حرك شفتيه برد السلام أم لا" ثم أصلى قريبًا منه وأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتى نظر إلىّ، فإذا التفتُّ نحوه أعرض عنى. حتى إذا طال علىّ ذلك من جفوة الناس، مشيت حتى تَسَوَّرْت[1] حائط أبى قتادة - وهو ابن عمى وأحب الناس إلى - فسلمت عليه، فوالله مارد علىّ السلام؛ فقلت له : "يا أبا قتادة، أُنْشُدُك الله تعالى[2] : هل تعلم أنى أُحب الله ورسوله"؟ فسكت؛ فعدت له فنَشَدتُه فسكت؛ فعدت له فنشدته فقال : "الله ورسوله أعلم". ففاضت عيناى[3] وتَوَلَّيْت حتى تَسوَّرت الجدار.

الروم يحاولون استغلال الفرصة للتفريق بين الرسول وأصحابه

قال : فبينا أنا أمشى بسوق المدينة إذا نَبَطِىّ من أنباط الشام - ممن قَدِم بطعام يبيعه بالمدينة - يقول : "من يدل على كعب ابن مالك"؟ فطفق الناس يشيرون إلَّى؛ حتى إذا جاءنى دفع إلى كتابًا من ملك غسان، فقرأته فإذا فيه : "أما بعد فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلْك الله بدار هوان ولا مَضْيَعة،

---

(١) تسورت : اقتحمته من فوق السور.

(٢) أنشدك الله : بمعنى أستحلفك بالله.

(٣) فاضت عيناى : انهلت دموعى.

فالْحقْ بنا نُواسك". فقلت حين قرأتها : وهذه أيضًا من البلاء ! فتيَمَّمْت بها التَّنور فسَجرْتُه[1] بها.. حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين، إذا رسولُ رسول الله ﷺ يأتينى فقال : «إن رسول الله يأمرك أن تعتزل امرأتك». فقلت : "أطلقها أم ماذا أفعل" ؟ فقال : «لا، بل اعتزلها ولا تقربها». وأرسل إلى صاحبَيَّ مثل ذلك. فقلت لامرأتى : الحقى بأهلك فكونى عندهم، حتى يقضى الله فى هذا الأمر.

قال كعب : فجاءت امرأة هلال بن أمية رسولَ الله، صلى الله عليه وسلم، فقالت : "يا رسول الله، إن هلال بن أمية شيخ ضائع[2] وليس له خادم، فهل تكره أن أخدمه" ؟ فقال : «لا، ولكن لا يَقْرَبنَّك». قالت : إنه - والله - ما به من حركة إلى شيء؛ والله ما زال يبكى مذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا". فقال لى بعض أهلى : "لو استأذنت رسول الله فى امرأتك، فقد أذِن لامرأة هلال بن أمية أن تخدُمَه" ! فقلت : "والله لا استأذن فيها رسول الله، صلى الله عليه وسلم؛ وما يدرينى ما يقول إذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب" ؟

---

(١) سجرته : أشعلت بها النار فى الفرن، يعنى أنه أحرقها فيه.

(٢) ضائع : عاجز عن خدمة نفسه.

بشائر التوبة

قال : فلبثنا بعد ذلك عشر ليال، حتى كملت لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله ﷺ عن كلامنا. ثم صليت صلاة الفجر صُبْحَ خمسين ليلة وأنا على ظهر بيت من بيوتنا؛ فبينا أنا جالس على الحال التى ذكر الله : قد ضاقت علىَّ نفسى، وضاقت علىّ الأرض بما رَحُبَت.. سمعت صارخًا أوْفى[1] على «جبل سَلْع» يقول بأعلى صوته : "يا كعب بن مالك، أبشر"!.. فَخَررْت ساجدًا، وعرفت أن قد جاء الفرج. وآذَن[2] رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر، فذهب الناس يبشروننا.. رَكَضَ[3] رجل إلَّى فرسًا، وسعى ساع من أسلم فأوْفى الجبل، فكان الصوت أسرع من الفرس. فلما جاءنى الذى سمعت صوته يبشرنى نزعت ثوبىَّ فكسوته إياهما ببشارته؛ والله ما أملك غيرهما يومئذ! واستعرت ثوبين فلبستهما، وانطلقت إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وتلقانى الناس فوجًا فوجًا يهنئوننى بالتوبة، يقولون : "لِيَهْنِكَ توبةُ الله عليك"!.. حتى دخلت المسجد، فإذا رسول الله ﷺ جالس وحوله الناس، فقام

(١) أوفى علىَّ : بمعنى جاء مسرعًا.
(٢) آذن : أعلنها للناس.
(٣) ركض : أسرع بها نحوى.

إلَىَّ طلحة بن عبيد الله يُهرْوِل حتى صافحنى وهنأنى، والله ما قام إلَىَّ رجل من المهاجرين غيره؛ ولا أنساها لطلحة!..

قال كعب: فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال وهو يَبْرُق وجهه من السرور: «أبشر بخيرِ يومٍ مر عليك منذ ولدتك أمك».. ! قلت: "أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله"؟ قال: «لا، بل من عند الله»..

وكان صلى الله عليه وسلم إذا سُرَّ استنار وجهه حتى كأنه قطعةُ قمر، وكنا نعرف ذلك منه. فلما جلست بين يديه قلت: "يا رسول الله، إن من توبتى أن أنخلع من مالى صدقَةً إلى الله ورسوله"! فقال صلى الله عليه وسلم: «أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك». قلت: "فإنى أُمسك سهمى الذى بخيبر". ثم قلت: "يا رسول الله، إن الله إنما نجانى بالصدق، وإن من توبتى ألا أحدِّث إلا صدقًا ما بقيت"..

قال كعب: فوالله ما أعلم أحدًا من المسلمين أبلاه الله فى صدق الحديث أحسن مما أبلانى؛ ما تعمدت منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومى هذا كذبًا، وإنى لأرجو أن يحفظنى الله فيما بقى!.. وأنزل الله تعالى على رسوله، صلى الله عليه وسلم: ﴿لَقدْ تابَ الله عَلَى النَّبِيِّ والمُهاجِرِينَ وَالأنصَار الَّذين اتَّبَعُوهُ فى ساعة العُسْرةِ مِنْ بعْدِ ما كَادَ يزيغُ قُلُوبُ فريقٍ مِنْهُم ثُمَّ تَاب

عليْهم إنَّهُ بِهِمْ رءُوفٌ رحيم * وعلَى الثَّلاثةِ الَّذِينَ خُلِّفوا حتَّى إذَا ضاقَت علَيْهِمُ الأرْضُ بما رحُبتْ وضاقَتْ علَيْهِمْ أنفُسُهُمْ وظَنُّوا ألَّا ملْجَأ مِن الله إلَّا إليْهِ ثُمَّ تاب علَيْهِمْ لِيتُوبوا إنَّ الله هُوَ التَّوَّابُ الرَّحيمُ * ياأيُّها الَّذِين آمنُوا اتَّقُوا الله وكُونُوا مع الصَّادِقِينَ﴾[1].

"هذه هى قصة الثلاثة الذين خُلِّفوا كما رواها أحدهم كعب بن مالك، وفى كل فقرة منها عبرة؛ وفيها كلها صورة بارزة الخطوط من المجتمع الإسلامى ومتانة بنائه وصفاء عناصره، ونصاعة تصوره لمعنى الجماعة، ولتكاليف الدعوة، ولقيمة الأوامر، ولضرورة الطاعة...

صورة من روح المجتمع الإسلامى

بمثل هذه الروح انتصر الإسلام، وبمثل هذه الروح عزت كلمته.. فلننظر أين نحن الآن من هؤلاء السلف، ولننظر أين روحنا من روح تلك العصبة، ثم لنطلب النصر والعزة إن استشعرنا من أنفسنا بعض هذه المشاعر؛ وإلا، فلْنُسَدِّدْ ولْنُقارِبْ، ولنحاول جُهد طاقتنا، والله المستعان"[2].

(1) سورة التوبة الآيات ١١٧ - ١١٩، وقد اخترنا فى سرد هذه القصة رواية النويرى نهاية الأرب مع الاستعانة فى بعض العبارات بالروايات الأخرى.

(2) فى ظلال القرآن، مع بعض التصرف.

براءة

الحق الطبيعي لكل أمة أن تحمي شعبها من كل ما يعارض عقائدها وتقاليدها وأن تطهر أرضها من كل أعدائها

أيجوز أن تقيم فى أرض الدولة طوائف من الناس لا يخضعون لسلطان الدولة؟ أم يجوز أن تعيش دولة فى قلب دولة أخرى بحيث تتعارض قوانين هذه مع قوانين تلك، وبحيث تتضارب العقائد والتقاليد فى كلتا الدولتين؟

إن الأساس الطبيعى فى تكوين الدول أن يكون لكل أمة وطنها الخاص بها، وأن يكون هذا الوطن ملكًا خالصًا لأبنائها، يعيشون فيه أحرارًا، لا يعارضهم معارض فى عقائدهم ولا فى تقاليدهم.

على هذا الأساس الطبيعى قامت دولة الإسلام فى جزيرة العرب، فقد أخذت - بعد أن خضعت لها مكة أم القرى، وبعد أن دانت لها العرب سكان الجزيرة - تتخذ الجزيرة قاعدة

لها، وتفرض عليها مبادئها وقوانينها، وأصبح من حقها - بل من واجبها - أن تحمى شعبها من كل ما يعارض هذه المبادئ والقوانين، وأن تطهر أرضها من كل من يخالفها فى العقيدة والتقاليد.

وعقيدة الإسلام هى الإيمان بالله وحده لا شريك له، وعقيدة المشركين هى الإيمان بالله وبغيره من الشركاء والأنداد. والإسلام إنما جاء لإبطال هذه العقيدة من أساسها، وإبطال ما يقوم عليها من تقاليد؛ فكان بقاء أى أثر من آثارها أو من تقاليدها فى قلب الوطن الإسلامى شيئًا غير طبيعى، وأمرًا يعتبر السكوت عليه فى الوضع الدولى شذوذًا لا يقره قانون ولا يقبله منطق.

وكان من عادة العرب فى الجاهلية أن يأتوا إلى البيت ليحجوا، وكان من تقاليد حجهم أن يطوف رجال منهم عراة ليس على أحد منهم ثوب يستره.. يعظمون بذلك حرمة البيت، ويقول أحدهم : أطوف بالبيت كما ولدتنى أمى، ليس علىّ شىء من الدنيا خالطه الظلم. وهو أمر لا يتفق مع مبدأ الإسلام من ضرورة سترة العورات، وحماية الإنسان من كل مظاهر الإباحية والتبذل. كذلك كان البيت الحرام - وهو البيت الذى بنى لعبادة الله وحده، والذى كان أول بيت وضع للناس على أساس

التوحيد الخالص - لا يزال يحج إليه من لا يؤمن بالله وحده، ولا يزال يطوف به من يشرك بالله غيره من الأنصاب والأزلام، ومن لا يزال يؤمن بعقائد الجاهلية وتقاليدها.

فكان من غير الطبيعى أن يتقاسم التوحيدُ والشركُ هذا البيت، وأن يطوف به المسلمون والمشركون فى وقت معًا؛ كما كان من غير الطبيعى أن يعيش فى الوطن الإسلامى طوائف من الناس لا يؤمنون بمبادئه ولا يخضعون لسلطانه؛ كذلك كان من غير الطبيعى أن تظل هذه الطوائف مقيمة فى أرض الإسلام وهى عناصر معادية للإسلام وأهله، ظلت دهرَها تناصب المسلمين العداوة، وتتحين فيهم الفرصة، ولا تزال تتربص بهم الدوائر حتى يردوهم عن دينهم إن استطاعوا.

كان بقاء هذه العناصر فى أرض الإسلام أمرًا غير مأمون العواقب، كما كان فى الوقت نفسه شيئًا غير طبيعى فى تكوين الأمم؛ فكان لا بد من تصحيح هذا الوضع حتى يتفق مع الوضع الطبيعى، فإما أن تؤمن هذه الطوائف بمبادئ الإسلام وتخضع لسلطانه، وإما أن تخرج إلى أرض غير أرضه؛ فإن لم يؤمنوا أو يخرجوا كان لدولة الإسلام أن تنذرهم، وكان لها بعد إنذارهم أن تستعمل حقها فى استخدام القوة، حتى تخضعهم لسلطانها أو تخرجهم من أرضها؛ وهذا ما كان من موقف

الإسلام مع شراذم العرب الذين ظلوا على شركهم فى جزيرة العرب.. ذلك أن قبائل العرب أخذت - بعد عودة رسول الله ﷺ من غزوة تبوك - تفد على المدينة من أنحاء الجزيرة معلنة إسلامها وانضواءها تحت راية الإسلام، حتى أسلمت الجزيرة كلها، فلم يبق على شركه فيها إلا شراذم قليلة، وأوْزاعٌ متفرقة فى نواحيها.

لم يكن من الطبيعى أن تتضارب العقائد حول البيت الحرام وأن يظل المشركون يحجون إليه

فلما أقبل موسم الحج من السنة التاسعة، اجتمع المسلمون والمشركون حول البيت يؤدون مناسك الحج، وكانوا يجتمعون منذ فتح مكة فى كل موسم، وكل يؤدى مناسكه بحسب تقاليد عقيدته؛ المسلمون يؤدونها كما علمهم الإسلام، والمشركون يؤدونها على تقاليد الجاهلية الأولى.. المسلمون يطوفون مستورين، متجملين بكل ما يليق بقداسة المكان وكرامة الإنسان؛ والمشركون يطوفون مكشوفين، متحللين من الأوضاع الكريمة والآداب اللائقة.. المسلمون يلبون قائلين: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك»، والمشركون يلبُّون قائلين: «لبيك لا شريك لك، إلا شريكًا هو لك، تملكه وما ملك».. المسلمون يهللون ويكبرون، والمشركون يصفقون ويَصْفِرون..

عقائد متضاربة، وتقاليد متناقضة، وفوضى لا تليق بكرامة دولة، ولا تناسب وحدة أمة، ولا تتفق مع الغرض الأساسى من حج هذا البيت، وهو اجتماع الناس فى هذا المكان الواحد، على أساس من المحبة والألفة والوفاق، يعبدون ربًّا واحدًا، وينْسِكُون نُسُكًا واحدًا، ويدينون بدين واحد؛ وتجمع بينهم مظاهر الوحدة فى العقيدة والشعور، وفى المظاهر والأشكال، وفى العادات والتقاليد.. إنه الاجتماع الموسمى الذى تعقده أمة الإسلام فى عاصمة الإسلام، لتدعيم الروابط بين جماعاتها وطوائفها، ومزج عناصرها المختلفة فى مزاج يوائم بينها، ويجعلها أمة واحدة متماسكة البنيان وثيقة العرى.. فكيف يمكن أن يتسنى لها ذلك وبين ظهرانيها هذه العناصر الغريبة؟

كان من الضرورى إذن لأمن الدولة وسلامة أغراضها، أن تحدد موقفها إزاء هذه العناصر الغريبة عنها، وأن تصحح وضعها معها على النحو المألوف فى كل دولة.. فلما كان موسم الحج من هذه السنة، نزل الوحى على رسول الله ﷺ بصدر سورة «براءة» يحدد موقف المسلمين من بقايا المشركين فى جزيرة العرب، ويضع الحد الفاصل بين هؤلاء وهؤلاء.

الوحى يحسم الموقف بنزول سورة براءة

قال الله تعالى : ﴿براءَةٌ مِن الله ورسُولِه إلى الَّذين عَاهدْتُم مِن المُشْرِكِينَ * فَسِيحُوا فى الأرضِ أرْبعةَ أَشهُر وَاعلَمُوا أنَّكُمْ غَيْر مُعْجزى الله وأَنَّ الله مُخْزى الْكافِرين * وأَذَانٌ مِن اللهِ وَرَسُولِهِ إلَى النَّاسِ يوْمَ الحجِّ الأَكْبر أَنَّ الله بَرِىءٌ مِن المُشْرِكِينَ ورَسُولُه فَإنْ تُبْتُمْ فهو خيْرٌ لكُمْ، وَإن تولَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيرُ مُعْجزى اللهِ وبشِّرِ الذِين كفرُوا بِعذَاب أليم * إلاَّ الَّذين عاهدْتُمْ مِنَ المُشْرِكين ثُمَّ لمْ ينقُصُوكُمْ شَيْئًا ولَمْ يُظَاهِرُوا علَيْكُم أَحدًا فَأتمُّوا إِلَيْهِمْ عهْدَهمْ إلَى مُدَّتِهِمْ إنَّ الله يُحِبُّ المُتَّقِين * فإذا انْسلخَ الأشْهُرُ الحرُمُ فاقْتُلُوا المُشرِكِين حيْثُ وَجَدْتموهُمْ وخذُوهمْ واحْصُرُوهُمْ واقعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَد فإنْ تَابُوا وأَقَامُوا الصَّلاة وآتَوُا الزَّكَاةَ فخلُّوا سبيلَهُمْ إن الله غفُورٌ رحيم * وإنْ أَحدٌ مِن المُشرِكين اسْتجارك فأجِرْهُ حتَّى يَسْمعَ كَلام الله ثم أَبْلِغْهُ مأْمَنهُ، ذلِك بأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يعْلمُونَ*

﴿كيْفَ يكُونُ لِلمُشْرِكين عَهْدٌ عِنْدَ الله وعِنْد رسُوله ؟ إلاَّ الذين عاهدْتُمْ عِنْد المَسْجدِ الحرام فَما اسْتَقَامُوا لكُمْ فاسْتقِيمُوا لهُمْ، إن الله يحِبُّ المُتَّقِين * كيْف وإنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يرْقُبُوا فِيكُمْ إلاَّ ولاذِمَّة يُرْضُونَكُمْ بأفْواهِهِمْ وتَأْبَى

قُلوبُهُمْ وأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ * اشْتَرَوْا بآياتِ الله ثَمنًا قليلاً فَصَدُّوا عنْ سبيلِهِ إنَّهُمْ ساءَ ما كانُوا يعْملُونَ * لاَ يرْقُبُونَ فى مُؤمن إلاًّ وَلاَ ذِمَّةً وأولئك هُمُ المعْتدُون * فَإنْ تَابُوا وأقَامُوا الصَّلاة وآتَوُا الزَّكَاةَ فَإخوانُكُمْ فى الدِّين ونُفصِّلُ الْآياتِ لِقوْمٍ يعْلمُون * وإنْ نَكثُوا أَيْمانَهُمْ مِنْ بعْدِ عهْدِهِمْ وطَعَنوا فى دِينِكُم فقَاتِلُوا ائِمَّةَ الْكُفْرِ إنَّهُمْ لاَ أيْمانَ لَهُمْ، لَعَلَّهُمْ ينْتَهُون *

﴿ألاَ تُقاتِلُونَ قَوْمًا نكَثُوا أيْمَانهُمْ وهمُّوا بإخْرَاجِ الرَّسُول وَهُم بَدَءُوكُمْ أوَّل مرَّة أتَخْشَوْنَهُمْ فالله أَحقُّ أنْ تَخشَوْهُ إنْ كُنْتُمْ مؤمِنين * قَاتِلُوهُمْ يُعذِّبْهُمُ الله بأيْدِيكُم ويخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ علَيْهِمْ ويَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤمِنين * ويُذْهِبْ غَيْظَ قلُوبِهِمْ؛ ويَتُوبُ الله علَى مَنْ يشَاءُ والله علِيمٌ حَكيمٌ * أَمْ حسِبْتُمْ أنْ تُتْرَكُوا ولمَّا يعْلمِ الله الَّذين جَاهدُوا مِنكُمْ ولَمْ يتَّخِذُوا مِنْ دُون الله ولا رسولِهِ ولاَ الْمُؤمِنين ولِيجةً والله خبيرٌ بِما تَعْملُون *

﴿مَا كان لِلْمُشْرِكين أنْ يعْمُروا مساجدَ الله شاهِدين علَى أنفُسِهِمْ بالْكفر أولَئكَ حَبطتْ أَعْمالُهمْ وفى النَّار هُمْ خالِدون * إنَّما يعْمُر مساجدَ الله منْ آمن بالله واليْومِ الآخِر وأقَامَ الصَّلاةْ وآتى الزَّكاةَ ولَمْ يَخْشَ إلا لله فعسى أولئك أنْ يكُونُوا مِن الْمُهتدِين * أَجعَلْتُمْ سِقايةَ الحاجِّ وعمارَةَ المسْجدِ الحرام كمَنْ آمنَ بالله والْيوْمِ الآخِر وجاهد فى سبيل الله لاَ يسْتَوُون عِنْد الله

والله لَا يهْدِى القوْمَ الظَّالمين * الَّذين آمنُوا وهاجرُوا وَجـاهدُوا فى سَبيلِ الله بِأمْوالِهِمْ وأنفُسِهِمْ أعظمُ درجـةً عِنْـد الله وَأُولئـك هُمُ الفائزُونَ * يُبشِّرهم ربُّهُمْ برَحْمَةٍ منْهُ ورِضوَانٍ وجنَّاتٍ لَهُـمْ فِيهَا نَعيمٌ مُقِيم، خالِدِين فِيها أَبَدًا إنَّ الله عنْدَهُ أجْرٌ عَظِيم *

﴿يَا أيُّها الَّذين آمنُوا لَا تتَّخِذوا آباءكُمْ وإخْوانَكُمْ أَوْلياءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ علَى الإيمان ومنْ يتـوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فـأُولئك هُـمُ الظَّالِمُون * قُلْ : إنْ كان آباؤُكمْ وأبْنَاؤُكُمْ وإخْوانُكُمْ وأزْواجُكمْ وعشيرتُكُمْ وأَمْوالٌ اقْترفْتمُوها وتجارةٌ تخْشـوْن كسـادَها ومَسـاكِنُ تَرْضوْنها أحبَّ إلَيْكمْ مِـن اللهِ ورسُـولِه وجهـادٍ فى سـبيلِه فتربَّصُوا حتى يأتِىَ الله بِأمْرِهِ والله لا يهْدِى الْقوْم الفَاسِقِين *

﴿لقد نصرَكُم الله فى مـواطِن كَثِيـرَةٍ، ويـوْمَ حُنَيْـن إذ أعْجبتْكُم كثْرتُكُمْ فَلمْ تُغْنِ عنكمْ شيْئًا وضـاقَتْ علَيْكُم الأرْضُ بِماَ رحُبتْ ثُم وَلَّيْتُمْ مُدبِرين * ثـمَّ أنـزل الله سـكِينَتَهُ علـى رسوله وعلَى المُؤْمِنينَ، وأنزلَ جَنودًا لَـمْ تَـروْهَا وعـذَّب الَّـذينَ كَفرُوا وذلِكَ جزاءُ الكَافِرينَ * ثُـمَّ يتُـوبُ الله مِـنْ بعْـدِ ذلِك علَى منْ يشاءُ والله غفُورٌ رحِيم *

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِين آمنـوا إنَّمـا المُشْركُون نجَسٌ فـلَا يَقْـرَبُوا المسْجدَ الحَرامَ بَعْد عامِهِمْ هذَا وإنْ خِفتمْ عَيْلةً فَسوْف يُغْنِيكُم

الله مِنْ فَضلِهِ إن شَاءَ إن الله عَلِيمٌ حَكيمٌ﴾[1].

وفى هذه الآيات يعلن الوحى براءة الله ورسوله من هؤلاء المشركين، وينذرهم بنبذ ما بينَهُم وبين المسلمين من عهود الأمان والسلام، ويترك لهم المهلة الكافية ليتدبروا أمرهم ويحددوا موقفهم؛ فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتَوا الزكاة فهم إخوان المسلمين، لهم ما لهم وعليهم ما عليهم، وإن أصروا على الشرك وهم فى أرض الإسلام؛ فالويل لهم والخزى والعذاب الأليم؛ وعلى المؤمنين أن يملئُوها عليهم خيلا ورجالا، وأن يشُنُّوها عليهم حربًا شعواء لا هوادة فيها ولا رحمة، وأن يقطعوا كل ما بينهم وبينهم من صلات المودة ووشائج القربى، لأنهم عناصر فوضى واضطراب، وأهل غدر وخيانة، يشهد ماضيهم على أعمالهم ويدل على نواياهم، فليسوا أهلا لأن يؤْمَنُوا على الإقامة بين المسلمين، ولا أن يَعْمُروا مساجد الله وهم كافرون.. ﴿إنما يعمُر مَسَاجدَ الله مَنْ آمنَ بالله واليَومِ الآخرِ وأقام الصَّلاة وآتى الزَّكاة، ولم يَخْشَ إلا الله﴾.

وتمضى الآيات فى تحريض المسلمين على جهاد

---

(1) سورة التوبة الآيات ١ - ٢٨.

المشركين، وتذكرهم بمواقف النصر التى أيدهم الله بها، ثم تنتهى بهذا القرار الحاسم الجازم.. ﴿يٰأَيُّها الذينَ آمنُوا إنما المشركونَ نَجَسٌ فلا يقرَبُوا المسْجِد الحرام بعد عَامِهِم هذا﴾. وينتهى تحديد العلاقة بين المعسكرين تحديدًا فاصلا واضحًا لا رجعة فيه ولا تردد.

أمير الحج ينادى بها فى الناس

وكان رسول الله ﷺ قد بعث أبا بكر أميرًا على الحج فى هذا الموسم؛ فلما نزلت هذه الآيات عليه بعد انصراف أبى بكر، بعث فى أثره بها عليًّ بن أبى طالب، ليعلنها على الناس فى يوم الحج الأكبر.

روى محمد بن إسحاق أنه «لما نزلت «براءة» على رسول الله، صلى الله عليه وسلم - وكان بعث أبا بكر ليقيم الحج للناس - دعا عليًّا فقال: «اذهب بهذه القصة من سورة براءة، وأذِّنْ فى الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنًى، أنه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان؛ ومن كان له عهد عند رسول الله فهو إلى مدته».. فخرج علىّ على ناقة رسول الله العضباء، حتى أدرك أبا بكر فى الطريق؛ فلما رآه أبو بكر قال: «أمير أو مأمور»؟

فقال : « بل مأمور ». ثم مضيا، فأقام أبو بكر للناس الحج في تلك السنة، على منازلهم من الحج التي كانوا عليها في الجاهلية؛ حتى إذا كان يوم النحر قام علي بن أبي طالب فأذَّنَ في الناس، بالذي أمره رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقال : « ياأيها الناس، إنه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عند رسول الله عهد فهو إلى مدته ».. فلم يحج بعد ذلك العام مشرك، ولم يطف بالبيت عريان، ثم قدما على رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فكان هذا براءةً فيمن كان من أهل الشرك من أهل العهد العام، وأهل المدة إلى الأجل المسمى ».

ترك الإسلام للمشركين الفرصة الكافية بعد إنذارهم

« لقد اختير يوم جامع حافل - يوم النحر بمنى - حيث يجتمع الحجيج من كل فج، ويتلاقى الناس من كل واد.. اختير هذا اليوم الجامع الحافل، ليعلن الإسلام على رءوس الأشهاد نبذ عهود المشركين إليهم، وإعلان الحرب العامة عليهم؛ فلم يُبَيِّتهم الإسلام غدرًا، ولم يأخذهم بغتة، ولم يجازهم على نقض عهودهم معه بأخذهم على خلسة وهم غافلون، إنما أنذرهم علانية ثم أعطاهم مُهلة كافية.. أربعة

أشهر لمن كان له عهد عام غير محدد، ونهاية الأجل لمن كان له عهد معلوم.. أربعة أشهر يسيحون فيها فى الأرض ينظمون أمورهم ويدبرون أحوالهم؛ من كانت له تجارة صفاها، ومن كان له دَيْنٌ تقاضاه، ومن كانت له صلات دبرها، ومن كان مسافرًا عاد، ومن كان يهم بسفر حسَب حساب الحالة الجديدة فى العلاقات.. إنه العدل مع الخصوم والشرف مع الأعداء، والنظافة والنصاعة، والأفق الكريم الوضىء الذى لم يبلغه إلا الإسلام..

«كان ذلك فيما يتعلق بمشركى الجزيرة وحدها، باعتبارها مهد الإسلام ومَحْضنَه، وقاعدة الدعوة ومثابة العقيدة؛ فأما المشركون خارجها، فالأمر بينهم وبين الأمة المسلمة ألا يقفوا بالقوة فى سبيل الدعوة الإسلامية، وألا يفتنوا المسلمين عن دينهم؛ وألا يقاتلوا المسلمين أو يظاهروا عليهم أو يخرجوهم من ديارهم»[1] ».

موقف الإسلام من أهل الكتاب

وكما حدد الوحى موقف المسلمين من المشركين الذين يعيشون فى أرض الإسلام حدده كذلك من أهل الكتاب الذين

---

(١) فى ظلال القرآن.

يعيشون فيها أو يحيطون بأطرافها؛ فأما المشركون فليس لهم أن يساكنوا المسلمين فى مساكنهم أو يعاشروهم فى أوطانهم، ولا بد للمسلمين أن يقاتلوهم حتى يسلموا أو يُقتلوا أو يخرجوا من الأرض؛ وأما أهل الكتاب فلا بأس من أن يساكنوا المسلمين فى أوطانهم ويخالطوهم فى معايشهم، على أن يكون الأمر بينهم وبين المسلمين قائماً على السلم والأمن ورعاية حق للجوار، فإن بدا للمسلمين منهم ريح غدر أو محاولة فتنة أو اعتداء، كان لهم أن يقاتلوهم حتى يَخْضُدوا شوكتهم ويخضعوهم لسلطانهم..

وفى ذلك يقول الله تعالى: ﴿قاتِلُوا الَّذِين لا يُؤمِنُون بالله ولا بِالْيوم الآخر ولا يحرِّمُون ما حرَّم الله ورسولُهُ ولا يَدينُونَ دينَ الحق من الَّذِين أُوتُوا الْكِتَابَ حتَّى يُعْطُوا الجِزْية عنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾[1].

«فوصف أهل الكتاب الذين بيَّن حكم قتالهم بأربع صفات سلبية، هى علة عداوتهم للإسلام ووجوب خضوعهم لحكمه فى داره، لأن إقرارهم على الاستقلال وحمل السلاح يُفضى إلى قتال المسلمين فى دارهم، أو مساعدة من يهاجمهم فيها،

---

(١) سورة التوبة الآية ٢٩، والجزية: ضريبة مالية تفرض على الأشخاص لا على الأرض.

كما فعل يهود المدينة وما حولها بعد تأمين النبى إياهم ومحالفته لهم..

«وبيَّن الغاية التى ينتهى بها القتال إذا كان الغَلَب للمسلمين فقال: ﴿حَتَّى يُعْطُوا الجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾، أى قاتلوهم عند وجود ما يقتضى وجوب القِتال، كالاعتداء عليكم أو على بلادكم، أو اضطهادكم وفتنتكم عن دينكم، أو تهديد أمنكم وسلامتكم - كما فعل الروم فكان سببًا لغزوة تبوك - حتى تأمنوا عدوانهم بإعطائكم الجزية فى الحالَين اللذين قُيِّدَتْ بهما.. فالقَيْد الأول لهم، وهو أن تكون صادرة عن يد: أى عن قدرة وسعة فلا يُظلَمون ولا يُرْهَقون؛ والثانى لكم، وهو الصَّغار المراد به خَضْدُ شوكتهم والخضوع لسيادتكم وحكمكم... وبهذا يكون تيسير السبيل لاهتدائهم إلى الإسلام، بما يَروْن من عدلكم وهدايتكم، وفضائلكم التى يرونكم أقرب بها إلى هداية أنبيائهم منهم. فإن أسلموا عم الهدى والعدل والاتحاد، وإن لم يسلموا كان الاتحاد بينكم وبينهم بالمساواة فى العدل، ولم يكونوا هم حائلا دونهما فى دار الإسلام..

«ومتى أعطوا الجزية وجب تأمينهم وحمايتهم والدفاع عنهم، وحريتهم فى دينهم بالشروط التى تعقد بها الجزية،

ومعاملتهم بعد ذلك بالعدل والمساواة كالمسلمين؛ ويحرم ظلمهم وإرهاقهم بتكليفهم مالا يطيقون كالمسلمين؛ ويسمَّوْن أهل الذمَّة، لأن كل هذه الحقوق تكون لهم بمقتضى ذمة الله ورسوله »[1].

* * *

هكذا حدد الإسلام موقفه من المشركين ومن أهل الكتاب، الذين يعيشون فى أرض الإسلام أو يلاصقونها؛ فهل يعتبر هذا تعسفًا من الإسلام، يريد به أن يتحكم فى حرية الناس، أو يرغمهم على اعتناقه؟ أم هو نوع من الاحتياط الواجب، الذى تقوم به كل دولة لحماية أرضها والذود عن مبادئها؟

---

(١) تفسير النار.

حجة الوداع

وفود العرب تفد على المدينة

كان للصيحة التى نادى بها علىّ يوم الحج الأكبر أثرها الطبيعى فى بقايا المشركين من العرب فى الجزيرة العربية، فقد أحس هؤلاء بعد أن أسلمت الجزيرة أنهم أصبحوا كالشَّجَا فى الحَلْق، أو كالشذوذ فى القاعدة، وأنهم إن ظلوا مقيمين على شركهم فلابد أن تكتسحهم قوة الإسلام كما يكتسح السيل الغُثاءَ، وأن من الخير لهم أن يدخلوا مع الداخلين تحت راية الإسلام، فَيحْقِنوا بذلك دماءهم ويحموا مصالحهم، ويستمتعوا بما يستمتع به أتباع هذا الدين من مظاهر الرحمة الشاملة، التى لا يستمتع بها فرد دون فرد، ولا يحتكرها قوى دون ضعيف.

كذلك أحس أهل الكتاب من نصارى العرب بما أحسَّه هؤلاء المشركون ورأوا أن من الخير لهم أن يستظلوا براية الإسلام ويحتموا بحمايته، فأقبلت الوفود من هؤلاء وهؤلاء على

المدينة، تعلن خضوعها للإسلام ودخولها تحت لوائه.. فأما المشركون فأسلموا ودخلوا فى زمرة المسلمين، وأما أهل الكتاب فمنهم من أسلم فدخل فى زمرة المسلمين، ومنهم من بقى على دينه ورضى بأن يدفع الجزية، فدخل بذلك فى أمان المسلمين وحمايتهم.

الرسول يكرم الوفود ويجاريها فى بعض عاداتها

وكان رسول الله ﷺ يستقبل هؤلاء الوفود مغتبطًا بمَقْدَمِها، فيضيِّفها ويكرمها، ويُنزْلها على الرحب والسعة فى دُور الضيافة بالمدينة، ويبسط لها كل ما تريد أن تقف عليه من أمور الإسلام، ثم يترك لها الخيار فى أن تُسْلم أو لا تسلم. فإذا أسلمت بايعها على الإسلام، وأقْطَعها أرضها وبلادها، وأمَّر عليها واحدًا منها أو رد عليها أميرها إن كان أهلا للإمارة، حتى إذا ما آذنت بالرحيل إلى بلادها أجازَها وودعها، وبعث معها رسولا يفقِّهها فى دينها، أو كتب لها كتابًا بما لها وما عليها، وما ينبغى أن تعلمه من شرائع الإسلام وسُنَنِه.

وكان صلى الله عليه وسلم يتلطف مع الوفود فيجاريها فى بعض عاداتها، ويتجاوز عما يبدر من بعض هفواتها التى يدفع إليها جفاء البداوة وخشونة الجاهلية؛ فقد جاءه وفد تميم فى وقت

الظهيرة، وكان صلى الله عليه وسلم قائلا[1] فى بيت من بيوته، فوقفوا فى المسجد ينادونه من وراء الحجرات : « يامحمد، اخرج إلينا ». . وظلوا يصيحون به حتى آذاه صياحهم، ولكن ذلك لم يمنعه أن يخرج إليهم، وأن يسايرهم فيما طلبوا إليه من المفاخرة - جريًا على عادة العرب - فأذن لخطيبهم وشاعرهم أن يقولا، ثم رد عليهما بشاعر وخطيب من المسلمين حتى أفحمهم، وحتى قال قائلهم : « إن هذا الرجل لَمُؤْتَى له. . لَخطيبُه أخطبُ من خطيبنا، ولشاعره أشعر من شاعرنا، ولأصواتهم أعلى من أصواتنا، ولهم أحْلم منا ». . ثم لم يمنعه ذلك أن يُجيزهم[2] عند رحيلهم كما كان يجيز غيرهم من الوفود.

الرسول لم يكن يتسامح فى شىء قط مما يعارض مبادئ الإسلام أو تقاليده

على أن رسول الله - وإن تجاوز عن كثير من هفوات الوفود - لم يكن يسمح قط بأن يتعارض هذا التجاوز مع مبادئ الإسلام وعقائده؛ فقد أراد وفد ثقيف أن يعفيهم رسول الله ﷺ من أداء الصلاة، فأبى عليهم ذلك كل الإباء، فقبلوا أن يؤدوا الصلاة على أن يترك لهم « اللات » لا يهدمها ثلاث

(١) القائل : المستكن من الحر فى وقت القيلولة.

(٢) يجيزهم : يعطيهم الجوائز.

سنين، فأبى عليهم، فقالوا: سنة.. فأباها عليهم، فما برحوا يسألونه حتى سألوه شهرًا واحدًا، فأبى أن يدعها لهم أجلا مسمًّى. فلما رأوا إصراره على هدمها سألوه أن يكفيهم مئونة هدمها بأنفسهم، فقال صلى الله عليه وسلم: «أما كسر أوثانكم بأنفسكم فسنُعْفيكم منه، وأما الصلاة فلا خير فى دين لا صلاة فيه». ثم وجه معهم أبا سفيان بن حرب والمغيرة بن شُعبة، فقاما بهدم اللات بين صراخ النساء وبكائهن.

وجاء وفد بنى حنيفة ومعهم مُسَيْلِمة الكذاب يدعى النبوة ويقول: «إن ترك لى الأمر من بعده اتبعته». فأقبل رسول الله ﷺ وفى يده قطعة من جريدة حتى وقف على مسيلمة فى أصحابه فقال له: «إن سألتنى هذه القطعة ما أعطيتكها». فلما عاد مسيلمة إلى بلاده كتب إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يقول: «من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله. سلام عليك، أما بعد، فإنى قد أُشْرِكت فى الأمر معك، وإن لنا نصفَ الأرض ولقريش نصفها، ولكن قريشًا قوم يعتدون».. فكتب إليه رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب. السلام على من اتبع الهدى. أما بعد، فإن الأرض لله يُورثُها من يشاء من عباده، والعاقبة للمتقين».

كذلك جاءه وفد من نصارى نجران يجادلونه فى شأن عيسى عليه السلام، فجعل رسول الله ﷺ يناقشهم ويبسط لهم ما أنزل الله تعالى عليه فى شأن عيسى. فلما رأى أنهم لا يبغون إلا الجدل دعاهم إلى المباهلة، وخرج إليهم ومعه ابنته فاطمة وزوجها على وابناهما الحسن والحسين، وطلب إليهم أن يأتوا بأبنائهم ونسائهم، ثم يقفوا جميعًا، ويبتهلوا إلى الله أن يجعل لعنته على الكاذبين من الفريقين. فلما رأوا منه ذلك خافوا على أنفسهم أن تنزل بهم نقمة الله فتستأصلهم، لأنهم يعلمون أن محمدًا على الحق وأنهم على الباطل، وصالحوه على أن يدفعوا الجزية، ويظلوا على دينهم.. وفى ذلك يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كمثلِ آدمَ خَلقَه مِنْ تُرابٍ ثم قَال لَهُ كُنْ فيكُونُ * الحقُّ مِنْ ربِّك فلا تَكُنْ مِنَ المُمْتَرِين * فمَن حاجَّك فيه من بعدِ ما جاءك من العلم فقُل تعالَوْا ندْعُ أَبنَاءَنا وأَبْنَاءَكُمْ ونِساءَنا ونِساءَكُم وأَنفسَنا وأَنْفُسَكُم ثُم نَبْتَهِلْ فنجعلْ لعْنَةَ اللهِ على الكاذِبين﴾[1].

وكما لم يتجاوز رسول الله ﷺ عن شيء مما يعارض عقيدة الإسلام، لم يتجاوز عن هفوة مما يعارض تقاليده، فقد جاءه وفد كِنْدَة فى ثمانين راكبًا، فدخلوا عليه المسجد وقد رجَّلوا

(١) سورة آل عمران الآيات ٥٩ - ٦١.

لِمَهم[1] وتكحلوا ولبسوا ثياب الحرير. فلما رآهم رسول الله ﷺ في هذا المظهر الناعم قال لهم: «ألم تسلموا»؟ قالوا: بلى. قال: «فما هذا الحرير في أعناقكم»؟ فشقوه وطرحوه عن أجسامهم.

وهكذا كان صلى الله عليه وسلم يعالج فساد التقاليد والعادات، كما يعالج فساد العقائد، حتى يكون المسلم مثلا كاملا في ظاهر أمره وباطنه.

رسل النبي إلى القبائل

وظلت الوفود طَوالَ السنة العاشرة تفد على المدينة من أنحاء الجزيرة، فتعلن دخولها في الإسلام أو تعلن ولاءها ورغبتها في أن تستظل بظله. فيبايع رسول الله ﷺ من يسلم منهم على الإسلام، ويتقبل ولاء من يوالي الإسلام ويدخل في حمايته من أهل الكتاب؛ ويبعث الرسل من أصحابه إلى القبائل في منازلها، يفقهونهم في الدين ويعلمونهم السنن والشرائع، كما يبعث معهم المصَدِّقين يجمعون الصدقات من المسلمين ويجمعون الجزية من أهل الذمة.

وانقضت السنة العاشرة في استقبال الوفود، ومضت أيامها

---

(١) اللمة: مجتمع شعر الرأس. وترجيل الشعر: تسريحه.

هادئة لا يعكر صفوها شغَب ولا نزاع. إلا ما كان من قبيلة باليمن ظنت أنها تستطيع أن تقاوم التيار، فأرسل إليها رسول الله ﷺ من أخضعها من أصحابه. وهكذا جاء نصر الله والفتح، ودخل الناس فى دين الله أفواجًا وتمت كلمة ربك الحسنى على جزيرة العرب، فصارت أرضها مباءة الإسلام ومَحْضَنَه، وصارت عاصمتها كعبة المسلمين وقبلتهم.

اجتماع المسلمين من أنحاء الجزيرة ليأتموا بالرسول فى مناسك الحج

كان لابد - وقد خلصت مباءة الإسلام للإسلام - أن يجتمع المسلمون من أقاصى الجزيرة وأدانيها فى عاصمتهم، ليعقدوا أول مؤتمر خالص لهم. وكان لابد أن يكون هذا المؤتمر الجامع تحت زعامة رسولهم ومرشدهم، ليهتدوا بهديه، ويستضيئوا بنوره، ويأخذوا عنه مناسكهم، وليكون هذا المؤتمر نموذجًا لهم يسيرون على منهاجه، فيما يعقدون بعد ذلك من مؤتمراتهم حول البيت العتيق، وفيما يعقدون عدا ذلك من مؤتمرات أخرى فى غير هذا المكان، لتوحيد كلمتهم، وجمع شتاتهم، وسد ما تحدثه الفتن والأيام من ثَغَرات فى صفوفهم.

كان لابد للمسلمين من هذا الاجتماع، وكان لابد أن يَتَلقَوْا

أصوله وقواعده عن رسول الله ﷺ وأن يسمعوا منه كلمة جامعة عن هذا الدين الذى جاءهم به، يتعرّفون بها حقائقه ويتفهمون أغراضه، ويتخذونها دستورًا لهم فى حياتهم، وجُنَّة يعتصمون بها عند الزلل، ويسترشدون بها عند الضلال.

من أجل ذلك عزم رسول الله ﷺ على أن يحج بالمسلمين فى عامه ذاك. فلما أهل ذو القَعدة أذَّن فى الناس بالحج وأخذ يتجهز له، فأخذ الناس يتجهزون ويفدون على المدينة من كل صَوْب، حتى اجتمع بها خلق كثير لا يكاد يحصيهم العد، قيل: إنهم تسعون ألفًا، وقيل: مائة وأربعة عشر، وقيل: أكثر من ذلك. وقد أقبل هذا العدد الكثير من مشارق الأرض ومغاربها، ومن أقاصى الجزيرة وأدانيها، ليأتموا برسول الله ﷺ ويأخذوا عنه مناسك حَجهم وعُمرتهم. وكان هناك فى مكة جموع من المسلمين لا يقلون فى عددهم عن جموع المدينة، ينتظرون كذلك أن يأتموا برسول الله ويعملوا بعمله.

فلما تجهز رسول الله، صلى الله عليه وسلم، خرج من المدينة ظهر يوم السبت، لخمس ليال بَقِينَ من ذى القعدة سنة عشر، ومعه أزواجه وأهل بيته وعامة المهاجرين والأنصار، ومن شاء الله من قبائل العرب وأخلاط الناس، وساق من الهدى مائة بَدَنَة. فلما وصل إلى ذى الحُلَيْفة صلى بها العصر صلاة

المسافر، وأحرم بالحج والعمرة فى إزار ورداء صُحاريَّين[1] - وقيل: أحرم بالحج مفرَدًا - ثم دعا بالهَدْى فأشْعَره وقلَّده، وأمر من كان معه هدى أن يُهِلّ كما أهَلّ[2]، ففعل الذين ساقوا الهدى معهم كما فعل رسول الله، صلى الله عليه وسلم.

ركب السلام

وركب رسول الله ﷺ ناقته، فلما استوى عليها وهمت به قائمة أهل ملبِّيًا: «لَبَّيكَ اللهم لبيك.. لبيك لا شريك لك لبيك.. إن الحمد والنعمة لك والملك.. لا شريك لك»!! فصاح الناس يلبون عن يمينه وشماله ومن بين يديه ومن خلفه، وتجاوبت الأصداء بأصواتهم تدوى فى الفضاء الواسع، وانطلق الحشْد الكبير يقطع الصحراء سعيًا إلى مكة، وسالت الأودية والروابى بجموع لا يحدها الطَّرف، يحدوها الشوق ويدفعها الحنين إلى البيت العتيق. وكلما صعدوا شَرَفًا من الأرض أو هبطوا واديًا، أو نزلوا منزلا، أو صلَّوْا صلاة، أو لَقُوا ركبًا، أو رأوْا

---

(١) نسبة إلى صُحار، إحدى بلاد اليمن. وقد يكون نسبته إلى الصُّحْر، وهو غُبْرة فى بياض يميل إلى الحمرة كلون «الدمور» الآن.

(٢) أصل الإهلال أن يرفع الحاج صوته بالتلبية، ثم استعمل بمعنى الإحرام بالحج أو بالعمرة، وذلك لأن المحرم يرفع صوته بالتلبية بمجرد إحرامه.

مظهرًا من مظاهر الطبيعة.. انطلقت أصواتهم تَعِجُّ بالتلبية وتُهل بالتوحيد.

هكذا انطلق الركب العريض يسير سير المطئن الآمن، الذى يبغى الطمأنينة والأمن لكل شيء، وينشدُ السلام والوئام لكل حى.. انطلق يسير وشعاره الأمان والسلام لكل ما فى الوجود، فهو لا ينوى غدرًا بأحد، ولا يضمر شرًّا لمخلوق وهو من أجل ذلك لا يحمل سلاحًا، ولا يؤذى حيوانًا ولا يَهِيج طيرًا، ولا يَعْضُد[1] شجرًا، ولا يتلف زرعًا، ولا ينال أحدًا من خلق الله بالأذى والشر.

هذا ركب السلام فى الأرض، يسير فيها آمنًا مطمئنًا، وينشد الطمأنينة والأمن لكل ما حوله، فالحيوان حوله آمن، والطير حوله آمن، والشجر حوله آمن، والناس حوله آمنون.. والهدف الذى يرمى إليه هو الأمان والسلام، والغاية التى يسعى إليها هى التضامن والوئام، والطابع الذى يَتّسم به هو الأخوة المتجانسة، التى تساوت فيها الرءوس، وتجاوبت النفوس، وتوحدت الأهداف، وتماثلت المقاصد.. هو الأخوة الكريمة، التى تجردت عن نوازع الشهوات، وترفعت عن فوارق الطبقات، فلا

---

(١) لا يعضد: لا يقطع.

رفَث ولا فُسوق، ولا جدال ولا خصام، ولا أسود ولا أبيض، ولا غنى ولا فقير. . هو الأخوة الخالصة فى الله، أساسها المحبة، وزادها التقوى، وغايتها رضوان رب العالمين.

* * *

على هذا الأساس ظل الركب يسير، وإلى هذه الغاية ظل يسعى، حتى قطع الطريق إلى مكة، فوصلها فى غروب اليوم الرابع من ذى الحجة، فبات رسول الله بذى طُوًى، ثم أصبح فاغتسل ودخل مكة نهارًا. فلما رأى رسول الله البيت رفع يديه ثم قال: «اللهم زدْ هذا البيت تشريفًا وتعظيمًا ومهابة. وزد من عظّمه - ممن حجه واعتمره - تشريفًا وتعظيمًا وتكريمًا ومهابة وبرًّا»!! ولما دخل المسجد بدأ بالطواف حول البيت فطاف على راحلته سبعًا، ثم انتهى فصلى ركعتين خلف المقام، ثم خرج على راحلته فسعى بين الصفا والمروة؛ فلما انتهى من الطواف والسعى، أمر من لم يسق الهدى من المسلمين أن يتحلل من إحرامه إلى يوم التَّروية، وهو اليوم الثامن من ذى الحجة، ثم يُهل بالحج من ذلك اليوم عند خروجه إلى «مِنًى».

خطبة الوداع

وأقام صلى الله عليه وسلم بمكة حتى يوم التروية. فلما زاغت

الشمس[١] فى ذلك اليوم ركب إلى منى فبات بها، ثم أصبح فصلى بها الصبح، ثم سار إلى «عرفة» حين رأى الشمس قد طلعت فلما صار ببطن عرَفة وقف على راحلته فخطب فى الناس خطبته الجامعة، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال[٢] :

«أيها الناس، اسمعوا منى أبين لكم، فإنى لا أدرى : لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف أبدًا..

حرمة الدماء والأعراض والأموال

«أيها الناس، أتدرون فى أى شهر أنتم، وفى أى يوم أنتم، وفى أى بلد أنتم»؟ قالوا : "فى يوم حرام، وشهر حرام، وبلد حرام" قال : «فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام، إلى أن تلقَوْا ربكم، كحرمة يومكم هذا، فى شهركم هذا، فى بلدكم هذا. وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم.. ألا هل بلغت»؟ قالوا : "نعم". قال : «اللهم اشهد»!..

حرمة الربا والأخذ بالثأر

«ألا ومن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها.

---

(١) زاغت الشمس : مالت عن الظهر إلى ناحية الغرب قليلا.

(٢) لاءمنا بين الروايات فى تجميع هذه الخطبة، ولم نخرج فى مجموعها عن نص كلامه، صلى الله عليه وسلم.

ألا وإن كل ربًا فى الجاهلية موضوع، وإن لكم رءوس أموالكم لا تَظلِمون ولا تُظلَمون؛ قضى الله أنْ لا ربا، وإن أولَ ربًا أبدأ به ربًا عمى العباس بن عبد المطلب.. وإن دماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أبدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث[1].. ألا هل بلغت»؟ قالوا: «نعم». قال: «اللهم اشهد»!.

حرمة الأشهر الحرم

«أيها الناس، إنما النَّسِىءُ[2] زيادة فى الكفر، يُضَلُّ به الذين كفروا، يُحِلونه عامًا ويحرمونه عامًا ليُواطِئُوا عدة ما حرم الله، فيحلوا ما حرم الله؛ ألا وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السمٰوات والأرض، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرًا، منهاأربعةٌ حُرُم، ثلاثة متوالية وواحد فرد: ذو القَعدة وذو الحِجة والمحرم، ورجب - الذى بين جمادى وشعبان - ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم، ولا ترجعوا بعدى كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض.. ألا هل بلغت»؟ قالوا: «نعم». قال: «اللهم اشهد»!

---

(١) كان مسترضعًا فى بنى ليث فقتلته هذيل.

(٢) كان العرب يبادلون بين الأشهر الحرم، فيحلون بعضها عامًا ويحرمونه عامًا، تبعًا لأهوائهم.

حقوق النساء

« أيها الناس، إن لنسائكم عليكم حقًّا، وإن لكم عليهن حقًّا.. فعليهن ألا يُوطِئنَ فُرُشَكم أحدًا، ولا يُدخلن بيوتكم أحدًا تكرهونه إلا بإذنكم، فإن فعلْن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن فى المضاجع، وأن تضربوهن ضربًا غير مبرح، فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف. وإنما النساء عندكم عوَانٍ لا يملِكْن لأنفسهن شيئًا، وإنما أخذتموهنّ بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمات الله. فاتقوا الله فى النساء واستوصوا بهن خيرًا.. ألا هل بلغت »؟ قالوا: « نعم ». قال: « اللهم اشهد »!..

أخوة ووحدة ومساواة

« أيها الناس، إنما المؤمنون إخوة، ولا يحل لامرئ مال أخيه إلا عن طيب نفس منه.. أيها الناس، إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد؛ كلكم لآدم، وآدمُ من تراب، وإن أكرمكم عند الله أتقاكم. ليس لعربى فضل على عجمى إلا بالتقوى.. ألا هل بلغت »؟ قالوا: « نعم » قال: « اللهم اشهد »!..

ضرورة الاعتصام بالكتاب والسنة

« أيها الناس، إن الشيطان قد يئس أن يُعبَد بأرضكم هذه، ولكنه قد رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقِرونه من أعمالكم، فاحذرُوهُ على دينكم.. وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدًا، أمرًا بَينًا : كتاب الله وسنة نبيه.. وإنكم ستُسألون عنى، فما أنتم قائلون »؟ قالوا : « نشهد أنك قد بلّغت وأدّيت ونصَحت ».. فجعل يشير بأصبعه السبابة إلى السماء ثم إلى الناس وهو يقول : « اللهم اشهد!.. اللهم اشهد »!..

ثم قال : « فلْيبلِّغ الشاهدُ منكم الغائب، فلعل مَن يبلغه يكون أوعى له من بعض من سمعه ».

وكان ربيعة بن أمية بن خلف واقفًا تحت صدر الناقة، يردد قول رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وكان صَيِّتًا جهير الصوت، كلما قال رسول الله ﷺ كلمة صرخ بها ربيعة فى الناس.

مناسك الحج

فلما انتهى رسول الله ﷺ من خطبته أمر بلالا فأذن

للصلاة، وجمع رسول الله بين الظهر والعصر جمع تقديم، ثم ركب ناقته حتى وقف بها عند الهضاب من عرفة، وظل يدعو ويستغفر حتى غابت الشمس وذهبت صفرتها من السماء. ثم أفاض من عرفات، وأفاض الناس معه إلى «المُزْدَلِفة»[1]. وكان صلى الله عليه وسلم يوصى الناس بالسكينة والرفق فى السير، وألا يغلب قويُّهم ضعيفَهم.

فلما وصل إلى المزدلفة جمع بها المغرب والعشاء جمع تأخير، ثم بات بها، ثم أصبح فصلى بالناس صلاة الفجر، ثم ركب ناقته وأتى «المشعر الحرام»[2] فوقف يدعو ويكبر ويهلل حتى أسفر الصبح وبان النهار، ثم دَفَع[3] من المشعر الحرام إلى منى قبل أن تَشرُق الشمس، وهنالك استقبل «العَقَبة الكبرى»[4] فرمى بها سبع حَصيَات كان قد جمعها من المزدلفة. ثم ذهب إلى المَنْحَر[5] فنحر بيده من الهدى ثلاثًا وستين بَدَنة، وأمر على بن أبى طالب فنحر باقيهَا.

ثم أَحَلَّ صلى الله عليه وسلم من إحرامه، فحلق رأسه،

---

(١) المزدلفة : مكان بين عرفات ومنى.

(٢) المشعر الحرام : مكان بين المزدلفة ومنى.

(٣) دفع : خرج.

(٤) العقبة : مكان رمى الجمار وهى ثلاث عقبات : الكبرى والوسطى والصغرى

(٥) المنحر : المكان الذى يذبح فيه الهدى.

وقص أظفاره، وتطيَّب[1]، ولبس ثيابه، وعاد إلى كل ما كان فيه من الحل قبل إحرامه، ونادى مناديه فى الناس: «إنها أيام أكل وشرب وحِلّ».. واستمر صلى الله عليه وسلم يرمى الجمار عند زوال الشمس من كل يوم، حتى مرت أيام التشريق[2] الثلاثة. ثم حَدَر[3] إلى مكة فودع البيت، ثم انصرف راجعًا إلى المدينة.

بهذه الحجة كمل دين الله وتمت نعمته على عباده

كانت هذه الحجة هى الحجة الأخيرة التى ودع فيها رسول الله ﷺ الناس، وسميت من أجل ذلك «حَجة الوداع»، وقد سميت كذلك «حجة البلاغ، وحجة الإسلام، وحجة التمام»؛ لأنه ﷺ لم يحج من المدينة غيرها، ولأنه ذكر للناس فيها ما يَحِل وما يَحْرُم، وبلّغهم شرع الله فى الحج قولا وفعلا، ولم يكن بقى من دعائم الإسلام وقواعده شىء إلا وقد بيّنه؛ فلما بين لهم شريعة الحج ووضحه وشرحه كمُل بذلك دين الله وخُتمت رسالاته. فأنزل على رسوله وهو واقف بعرفة قوله

---

(١) تطيب: تعطر برائحة طيبة.

(٢) أيام التشريق: هى اليوم الثانى والثالث والرابع من أيام عيد الأضحى.

(٣) حدر: نزل.

تعالى : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وأَتْمَمْتُ علَيْكُم نعمتِي ورضِيت لَكُم الإِسْلام دِينًا﴾[1].

وبهذا تمت كلمة الله عز وجل، وانتهت مهمة رسوله، صلى الله عليه وسلم، فأشهد الناس فى خطبته الأخيرة على أنه قد أدى الأمانة، وبلغ الرسالة.. وأوصاهم أن يبلغ الشاهد منهم الغائب، ليكونوا شهداء على الناس يبلغونهم ما بلغهم رسولهم، كما كان الرسول شهيدًا عليهم يبلغهم ما يوحى إليه من ربه.

وأصبحت الدعوة أمانة فى أعناق المسلمين

وهكذا وضع الرسول ﷺ رسالته أمانة فى أعناق المسلمين، يتناقلونها فيما بينهم جيلا بعد جيل، ويتواصَوْن بالمحافظة عليها والعمل بها والجهاد فى سبيلها، حتى تعم جميع أقطار الأرض وتشمل كل أرجائها، ويجتمع البشر كله على الدين الكامل، ويتحقق الغرض الذى أراده الله لعباده من الرسالة الخاتمة، فيعيش الناس فى ظلها آمنين، وهو ما ترمى إليه الآية الكريمة من قوله سبحانه :

﴿يَأَيُّها الَّذِين آمنُوا اركعُوا واسْجُدوا واعْبُدُوا ربَّكُمْ وافْعَلُوا الخَيْر لعلكمْ تُفلحُون * وجاهِدُوا فى الله حقَّ جِهادِهِ هو

(١) سورة المائدة الآية ٣.

اجْتَباكم وما جَعل عَليكمْ فى الدين مِنْ حَرَج مِلَّةَ أَبيكُمْ إبْرَاهِيمَ هو سَمَّاكمُ المسْلمِين مِنْ قَبْلُ وفى هذَا لِيكونَ الرَّسُولُ شَهيدًا علَيْكُمْ وتكُونُوا شهداء علَى النَّاسِ؛ فأَقيمُوا الصَّلاَة وآتُوا الزَّكاة واعْتَصِمُوا بالله هُو موْلاَكُمْ فنعْمَ الموْلَى ونعْم النَّصِيرُ﴾[1].

(١) سورة الحج آيتا ٧٧، ٧٨.

إلى الرفيق الأعلى

دنو أجل الرسول

كان كل شيء بعد حجة الوداع يوحى بأن أجل رسول الله ﷺ قد دنا، وأن حياته وشيكة الزوال، وكان صلى الله عليه وسلم يحس ذلك، فكان كلامه فى خطبته يشير إلى ذلك فى كثير من عباراته. وقد أدرك عمر بن الخطاب هذه الإشارة من قوله تعالى: ﴿اليومَ أكملتُ لكم دينَكم وأتممْتُ عليْكُم نعْمَتى ورضيتُ لَكمُ الإسْلامَ دِينًا﴾، فبكى حين نزلت هذه الآية، فإنه ليس بعد الكمال والتمام شيء يراد. وما كانت مهمة الرسول ﷺ فى هذه الدنيا إلا أن يبلغ رسالة ربه إلى الناس، فأما إذ بُلغت الرسالة، وأُديت الأمانة، وكمل الدين وتمت به نعمة الله على عباده، فقد انتهت المهمة وتحقق الغرض، وأصبح رحيل رسول الله ﷺ عن هذه الدنيا أمرًا مترقَّب الوقوع فى كل وقت.

إعداد جيش أسامة بن زيد

وقد صدَّقت الأيام هـذه الحقيقـة، فـإن رسـول الله ﷺ لم يمكث بعد نزول هذه الآية سوى واحد وثمـانين يـومًا، ولم يـنزل عليه بعدها حلال ولا حرام؛ وقد مرت هذه الفـترة هـادئة، لم يشغله فيها من أمور المسلمين أمـر ذو بـال، إلا مـا كان مـن إعداد جيش أسامة ليسير إلى الشام. فقـد أمـر صلى الله عليـه وسلم فى أواخر صفر من السنة الحادية عشرة (مـايو سـنة ٦٣٢) بإعداد جيش كبير، وأمَّر عليه أسامة بن زيد، وقال لـه: «سر إلى موضع قتل أبيك فأوْطِئهم الخيل، فقد وليتك هـذا الجيش. فأغِرْ صباحًا على أهل «أُبْنَى»[1]، وحـرِّقْ عليهـم، وأسرِع السـير لتسبق الأخبار. فإن أظفرك الله بهم فأقِلَّ اللُّبْـث فيهـم. وخـذ الأدلّاء وقدم العيون والطلائع معك».. وكان كبار الصحابة مـن المهاجرين والأنصار فى جيش أسامة، ولم يكن أسـامة قـد جـاوز السابعة عشرة.

ويذهـب رواة السيرة القدماء، وبعض كتـابها مـن المحـدثين، إلى أن السبب فى إعداد هذا الجيش هـو الثـأر لقتـل زيـد وأصحابه فى واقعة مؤتة، ولكن الدكتور هيكل فى كتـابه «حيـاة

---

(١) أبنى: محل قريب من مؤتة على حدود الشام.

محمد » يذهب إلى سبب أشمل من هذا، فيقول : "إن رسول الله كان يحسُب لناحية الروم حسابها، ويرى ضرورة توطيد سلطان المسلمين على حدود الشام، ويخشى أن تثور الذكريات بُحماة المسيحية من الروم، فيعلنوا الحرب على من طاردوا النصرانية فى بلاد العرب". ويذهب الأستاذ محمد الغزالى فى كتابه « فقه السيرة » إلى سبب لا يتعارض مع اتجاه الدكتور هيكل، ولكنه يعتبر سببًا مباشرًا لإعداد هذا الجيش، فيقول : "إن فَرْوَة بن عمرو الجذامى كان واليًا من قبل الروم على « مَعَان »[1] وما حولها من أرض الشام، فاعتنق الإسلام وبعث إلى النبي ﷺ يخبره بذلك. وغضب الرومان على فروة فجردوا عليه حملة جاءت به، وألقى فى السجن حتى صدر الحكم بقتله. فضرب عنقه على ماء لهم يقال له « عفراء » بفلسطين، وتُرِك هناك مصلوبًا ليرهب غيره ممن يريد أن يسلك مسلكه. وقيل : إنه لما قدم إلى القتل قال :

بَلِّغْ سَرَاة المسلمين بأننى   سِلْمٌ لربى أعظُمى ودمائى

فأعد رسول الله ﷺ هذا الجيش، وأمَّر عليه أسامة بن زيد، وأمره أن يوطئ الخيل تُخوم « البلقاء والداروم[1] » من أرض

---

(١) هذه كلها مدن فى أطراف الشام من ناحية الحجاز.

فلسطين، يبغى بذلك إرهاب الروم وإعادة الثقة إلى قلوب العرب الضاربين على الحدود".

وسواء أكان السبب المباشر لإعداد هذا الجيش هو فكرة الثأر لمقتل زيد وأصحابه، أم كان هو قتل فروة بن عمرو بعد إسلامه، فإن الأمر فى مرماه لا يخرج عن العمل على توطيد سلطان المسلمين على حدود الشام، بإرهاب الروم من ناحية، وإعادة الثقة إلى قلوب العرب الضاربين على الحدود من ناحية أخرى.

مرض رسول الله

وعلى كل حال فإن هذا الجيش لم يُقَدَّر له الخروج فى حياة النبى، صلى الله عليه وسلم، فإنه بعد أن أمر بإعداد هذا الجيش وأخذ الجيش يتأهب للخروج، مرض النبى، صلى الله عليه وسلم، وجعل المرض يشتد به يومًا بعد يوم حتى شُغل الناس بأمره عن أمر الجيش.

وقد ذكر ابن إسحاق أن رسول الله ﷺ قد استبطأ الناس فى بعث أسامة وهو فى وجعه، وبلغه أن ناسًا تكلموا فى شأن أسامة وقالوا: "أمَّر غُلامًا حدثًا على جِلَّة[1] المهاجرين والأنصار".. فخرج عاصبًا رأسه حتى جلس على المنبر، فحَمِد

(١) جلتهم : كبارهم.

الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: «أيها الناس، أنْفِذوا بَعْث أسامة، فلعمرى لئن قلتم فى إمارته لقد قلتم فى إمارة أبيه من قبله، وإنه لخليق بالإمارة، وإن كان أبوه لخليقًا بها»! ثم نزل صلى الله عليه وسلم.. وجَدَّ الناس فى جَهازهم، فخرج أسامة وخرج جيشه معه، حتى نزل بالجُرْف على فرسخ من المدينة، فعسكر هناك، وجعل الناسُ يتلاحقون به حتى تَتَامُّوا[1]. ولكن رسول الله ﷺ ثَقُل واشتد به المرض، فأقام أسامة والناس لينظروا ما الله قاض فى رسوله، صلى الله عليه وسلم.

عن أسامة بن زيد قال: "لما ثقل رسول الله، صلى الله عليه وسلم، هَبَطْتُ وهبط الناس معى إلى المدينة، فدخلت على رسول الله وقد أُصْمِتَ لا يتكلم، فجعل يرفع يده إلى السماء ثم يضعها علىّ، فأعرِفُ أنه يدعو لى".

تمريضه فى بيت عائشة

واستأذن رسول الله ﷺ أزواجه فى أن يمرَّض فى بيت عائشة، فأذِنَّ له، فخرج يمشى بين الفضل بن عباس وعلى بن أبى طالب، عاصبًا رأسه وقدماه تخُطَّان فى الأرض، حتى دخل بيت عائشة، فظل يمرَّض به حتى انتقل إلى جوار ربه.

---

(١) تتاموا: تكاملوا.

وكان صلى الله عليه وسلم حريصًا على أن يصلى بالمسلمين كلما حضرت الصلاة، وأن يعظهم ويَتْعَهَد إليهم كلما وجد من نفسه قوة. فحضرت الصلاة ذات يوم وقد غُمِر رسول الله ﷺ واشتد به وجعه، فقال «هَرِيقُوا[1] علَىَّ سبع قِرَب من آبار شتى، حتى أخرج إلى الناس فأعْهَد إليهم».

قالت عائشة: فأقعدناه فى مِخْضَب[2] لحفصة بنت عمر، ثم صببنا عليه الماء حتى طفق يقول: «حَسْبُكم، حَسْبُكم[3]»!

ثم خرج رسول الله ﷺ عاصبًا رأسه حتى جلس على المنبر، فكان أول ما تكلم به أن صلى على أصحاب أُحد فأكثر الصلاة عليهم، واستغفر لهم ثم قال: «إن عبدًا من عباد الله خَيَّره الله بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ما عند الله».. ففهمها أبو بكر وعرف أنه يريد نفسه، فبكى وقال: "بل نحن نفديك بأنفسنا وأبنائنا".. فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «على رِسْلك يا أبا بكر، لا تبك».. ثم قال: «أيها الناس، إن أَمَنَّ الناس[4] علَىَّ فى صحبته وماله أبو بكر، ولو

(١) هراق الماء: صبه.
(٢) المخضب: إناء واسع كالطست.
(٣) حسبكم: كفى كفى.
(٤) أمنّ الناس: أكثرهم فضلا.

كنت متخذًا من الناس خليلا لاتخذت أبا بكر خليلا.. ولكن صحبةٌ وإخاءُ إيمان حتى يجمع الله بيننا عنده».

ولم يزل صلى الله عليه وسلم حريصًا على أن يصلى بالناس حتى غلبه المرض وأثقله عن الخروج، فقال: «مروا أبا بكر فَلْيُصَلِّ بالناس».. فجعل أبو بكر يصلى بالناس حتى صلى بهم سبع عشرة مرة. وكان صلى الله عليه وسلم يحلو له أن ينظر إلى الناس وهم يصلون خلف أبى بكر، فيسره ما يراه من اجتماعهم وألفتهم، حتى كان هذا المنظر الحبيب إلى نفسه آخر منظر وقعت عليه عينه.

انتعاش الرسول يوم وفاته

ذكر ابن إسحاق فى رواية له عن أنس بن مالك، أنه لما كان يوم الاثنين الذى قُبِض[1] فيه رسول الله، صلى الله عليه وسلم، خرج إلى الناس وهم يصلون الصبح، فَرُفِعَ له الستر وفتح الباب، فقام على باب عائشة ينظر إلى المسلمين وهم يصلون. فكاد المسلمون يَفْتَتِنُون فى صلاتهم، فرحًا برسول الله ﷺ حين رأوه، وتفرَّجوا[2]؛ فأشار إليهم أن: «اثبُتوا فى

(١) قبض: مات.

(٢) تفرجوا: أفسحوا له.

صلاتكم». . وتبسم صلى الله عليه وسلم سرورًا بما رأى من هيئتهم فى صلاتهم، ثم رجع. . وانصرف الناس وهم يرون رسول الله قد خَفَّ من وجعه، ورجع أبو بكر إلى أهله بالسُّنْح من ضواحى المدينة.

وذكر فى رواية أخرى عن أبى بكر بن عبد الله بن أبى مُلَيكة، أن رسول الله ﷺ فى ذلك اليوم دخل المسجد حتى جلس إلى جنب أبى بكر، فصلى عن يمينه قاعدًا. فلما فرغ من صلاته أقبل على الناس فكلمهم، رافعًا صوته حتى خرج من باب المسجد. . فلما فرغ من كلامه قال له أبو بكر: "يا نبى الله، إنى أراك قد أصبحت - بنعمة من الله وفضل - كما نحب". واستأذنه فى أن يزور أهله بالسُّنْح، حين رأى دلائل العافية بادية عليه.

وسواء أكانت الرواية الصحيحة هذه أم تلك، فإن رسول الله ﷺ كان بادى النشاط والصحة فى ذلك الصباح، حتى ظن الناس أنه قد أبَلَّ من مرضه، وانصرفوا وهم مطمئنون إلى سلامته، ولم يدْرِ بخَلَد أحد أنها كانت صحوة الموت، ووَمضَة السراج حين يريد أن ينطفئ.

وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم

عن عائشة قالت: "رجع إلَّى رسول الله ﷺ فى ذلك اليوم حين دخل المسجد، فاضطجع فى حجرى، فدخل رجل من آل أبى بكر وفى يده سواك أخضر، فنظر رسول الله إليه فى يده نظرًا عرفت أنه يريده. فقلت: يا رسول الله، أتحب أن أعطيك هذا السواك؟ قال: «نعم». فأخذته فمضغته حتى لَيَّنته، ثم أعطيته إياه، فاستَنَّ به كأشدِّ ما رأيته يستن بسواك قط، ثم وضعه. ووجدت رسول الله ﷺ يَثْقُل فى حجرى، فذهبت أنظر فى وجهه فإذا بصره قد شَخَص وهو يقول: «بل الرَّفِيقَ الأعلى من الجنة».. ! فقلت: خُيِّرتَ فاخترت، والذى بعثك بالحق!.. وقُبض رسول الله، صلى الله عليه وسلم".

كان موته حدثًا أذهل العقول

وكان موت رسول الله ﷺ حدثًا أذهل العقول، وفَزَّع القلوب، وروّع الأنفس، وبدا الناس فى شأنه حيارى حتى كأنه شيء لا يمكن أن يكون، فقد كان صلى الله عليه وسلم ملء القلوب والنفوس والأبصار والأسماع، وملء الدنيا بأسرها.. فلما مات كان الفراغ الذى تركه شيئًا لا يتصوره عقل ولا يُحدّه

إدراك، وكان وقعه على الناس أشد من أن يُحتَمل، حتى كان من أصحاب رسول الله ﷺ من أُقْعِد[1]، ومن أُخْرِس عن الكلام فما تكلم إلا من الغد، لما راعه من موت رسول الله، صلى الله عليه وسلم؛ وحتى قام عمر بن الخطاب ثائرًا فى الناس، يتوعد من يقول: إن رسول الله قد مات!

ثورة عمر على الناس

عن أبى هريرة قال: «لما توفى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قام عمر بن الخطاب فقال: "إن رجالا من المنافقين يزعمون أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قد توفى.. وإن رسول الله - والله - ما مات، ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة، ثم رجع إليهم بعد أن قيل: قد مات.. والله ليَرْجَعَنَّ رسول الله كما رجع موسى، فليقطِّعنّ أيدى رجال وأرجلَهم زعموا أنه ماتَ".. !

أبو بكر يرد الناس إلى صوابهم

(قال): وأقبل أبو بكر حتى نزل على باب المسجد - حين بلغه الخبر - وعمر يكلم الناس، فلم يلتفت إلى شىء حتى دخل

(١) أقعد: عجز عن الحركة.

على رسول الله ﷺ فى بيت عائشة، ورسول الله مُسَجًّى فى ناحية البيت، عليه بُرْدُ حِبَرة[1]، فأقبل حتى كشف عن وجهه، ثم أقبل عليه فقبَّله ثم قال: "بأبى أنت وأمى! أما المَوْتة التى كتب الله عليك فقد ذقتَها، ثم لن تصيبك بعدها موتة أبدًا.. !" ثم رد البُرد على وجه رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ثم خرج وعمر يكلم الناس فقال: "على رسلك يا عمر، أنْصِتْ.." فأبى ألا أن يتكلم. فلما رآه لا يُنصت أقبل على الناس، فلما سمع الناس كلامه أقبلوا عليه وتركوا عمر؛ فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: "أيها الناس، إنه من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت".. ثم تلا هذه الآية: ﴿وَما مُحَمَّدٌ إلا رَسولٌ قَدْ خلتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ؛ أفإنْ مات أوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ على أعْقَابِكُمْ ومنْ ينْقلِبْ عَلى عَقِبَيْهِ فَلنْ يَضرَّ الله شيْئا وسيجْزِى الله الشَّاكِرِينَ﴾[2].

فوالله لكأن الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت حتى تلاها أبو بكر يومئذ، وأخذها الناس عن أبى بكر فإنها هى فى أفواههم..

---

(١) برد حبرة: نوع من ثياب اليمن.

(٢) سورة آل عمران الآية ١٤٤.

قال أبو هريرة: قال عمر: "فوالله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعُقِرت[1]، حتى وقعتُ إلى الأرض ما تحملنى رجلاى، وعرفت أن رسولَ الله، صلى الله عليه وسلم، قد مات".

هكذا ذهب الحادث بألباب الناس حتى أذهلهم، وحتى ذهب الظن بعمر بن الخطاب أن رسول الله ﷺ لم يمت، وأنه سيبق فى أمته حتى يشهد عليها بآخر أعمالها. ولكن كلمة أبى بكر ردت عمر إلى صوابه، وكشفت للناس عن حقيقة ماكانوا ليجهلوها، لولا أن عِظَم المصيبة بفقد رسول الله أذهلهم، حتى نسُوا أن رسول الله ﷺ بشرٌ من الناس، يجوز عليه ما يجوز على الناس من الحياة والموت، وأنه، صلى الله عليه وسلم، لم يمت حتى أدى رسالة ربه خير أداء، وبينها أحسن بيان، وترك أمته على المحجَّة البيضاء[2] ليلُها كنهارها.

تجهيز الرسول والصلاة عليه

وكانت وفاته، صلى الله عليه وسلم، فى يوم الاثنين، حين اشتد الضُّحى، لاثنتى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول،

---

(١) عقرت: دهشت وتحيرت.

(٢) المحجة البيضاء: الطريق البين الواضح.

من السنة الحادية عشرة (٩يونية سنة ٦٣٢)، وعمره ثلاث وستون سنة.. وغُسِّل، صلى الله عليه وسلم، فى يوم الثلاثاء، وكُفِّن فى ثلاثة أثواب: ثوبين صُحَاريَّين، وبُرْدِ حِبَرة أدرج فيه إدراجًا.

فلما فُرِغ من جَهازه، صلى الله عليه وسلم، وُضع على سريره، ثم دخل الناس يصلون عليه أرْسالا[1].. دخل الرجال فصلَّوْا عليه صفًّا صفًّا، حتى إذا فرغوا أُدخل النساء، حتى إذا فرغ النساء أُدخل الصبيان.

ولما أرادوا دفنه، صلى الله عليه وسلم، قال بعض المسلمين: ندفنه فى مسجده؛ وقال بعض المسلمين: ندفنه مع أصحابه، فقال أبو بكر: إنى سمعت رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يقول: «ما قُبض نبى إلا دفن حيث قبض».. فَرُفع فراش رسول الله ﷺ الذى توفى عليه، فحُفِرَ له تحته، ثم دُفن صلى الله عليه وسلم ليلة الأربعاء، فى بيت عائشة، رضى الله عنها. وهو المكان الذى أقيم عليه ضريحه الطاهر، ورفعت عليه القبة الخضراء فى مسجده الشريف بالمدينة المنورة، طيَّب الله ثَرَاها، وعطَّر ذكرها وذكراها!!.

---

(١) أرسالا: جماعات يتلو بعضهم بعضا.

ذكر البَيْهقى عن الواقدى، عن موسى بن محمد بن إبراهيم ابن الحارث التيمى، قال: «وجدت هذا فى صحيفة بخط أبى.. لما كُفن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ووضع على سريره، دخل أبو بكر وعمر فقالا: «السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته!».. ومعهما نفر من المهاجرين والأنصار قدر ما يسع البيت، فسلموا كما سلم أبو بكر وعمر، وصفُّوا صفوفًا لا يَؤُمهم عليه أحد. فقال أبو بكر وعمر وهما فى الصف الأول حيالَ رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «اللهم إنا نشهد أنه قد بلَّغ ما أنزل إليه، ونصح لأمته، وجاهد فى سبيل الله حتى أعز الله به دينه، وتمت كلماته، فأُومن به وحده لا شريك له فاجعلنا يا إلٰهنا ممن يتبع القول الذى أنزل معه، واجمع بيننا وبينه، حتى يعرفنا وتُعرِّفه بنا، فإنه كان بالمؤمنين رءوفًا رحيما!».. فيقول الناس آمين، آمين!»[1].

وأنا أقول معهم: «آمين، آمين! اللهم آمين!».. وأصلى وأسلم على محمد رسول الله وخاتم النبيين، وعلى آله وصحبه أجمعين؛ وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

(١) نهاية الأرب ج ١٨.

ملحق (١)
الإسراء والمعراج

اختلاف الناس فى شأن الإسراء والمعراج

لعل الناس لم يختلفوا فى شىء قط كما اختلفوا فى شأن الإسراء والمعراج، ولم يتجادلوا فى شىء قط كما تجادلوا فى أمرهما. فمن الناس من صدَّق بهما جميعًا، ومن الناس من كذب بهما جميعًا، ومنهم من صدق بالإسراء وكذب بالمعراج؛ ومنهم من قال بأن الإسراء كان بالروح والجسد معًا، ومنهم من قال بأنه كان بالروح دون الجسد؛ ومنهم من قال إنه كان فى اليقظة، ومنهم من قال إنه كان فى المنام.

وهكذا لم يزل الناس منذ حدث هذا الحادث العظيم يختلفون فيه؛ ولا يزال كل فريق يحاول أن يؤيد رأيه بكل ما يبدو له من الحجج وما يرجح عنده من البراهين. وصدق الله العظيم إذ يقول فى شأن هذا الحادث : ﴿وما جعلنا الرؤيا

التى أَرَيْناك إلاّ فِتْنَةً للناس﴾[1].

ولعل السبب فى هذا الاختلاف أن الناس يأبَوْن إلا أن يحكموا فيه العقل ولا يرضَوْن حَكَمًا؛ فهل العقل يصلح أن يكون حَكَمًا فى هذا الأمر الخطير؟.. وقبل أن نقرر ما إذا كان العقل يصلح أو لا يصلح أن يكون حكمًا فى مثل هذا الأمر، ينبغى لنا أن نعرف ما هو العقل، وما وظيفته، وما مقدرته، وما حدوده، ومن أين يستمد العقل عمله ومعارفه.

هل العقل يستطيع أن يكون حكماً فى شأن الإسراء والمعراج

العقل هو قوة الفهم فى الإنسان، فهو الذى به يستطيع أن يميز ويقدر، ويقيس ويوازن، ويستنبط النتائج من مقدماتها، ويكوِّن الكليات من جزئياتها، ويصدر الأحكام على كل ما تمده به الحواس، فيحكم - مثلاً - بأن هذا أحمر وهذا أبيض، وهذا حلو وهذا مر، وهذا ناعم وهذا خشن، وهذا طيب وهذا خبيث، وهذا بعيد وهذا قريب، وهذا صعب وهذا سهل، وهذا ممكن وهذا مستحيل.. وهو فى كل ما يُصدر من هذه

---

(١) سورة الإسراء الآية ٦٠.

الأحكام متأثر بما تمده به الحواس؛ فما من حُكم يستطيع أن يصدره العقل إلا وللحواس فيه أثر، إما مباشر وإما غير مباشر والحواس إنما تستمد معلوماتها من عالم الحس الذى يحيط بها، ولا تستطيع بحال أن تتجاوز هذا العالم إلى ما وراءه لتستمد منه شيئًا..

فالأذن لا تستطيع أن تسمع إلا مايَصُكُّ مِسْمَعها من الأصوات، والعين لا تستطيع أن ترى إلا ما يقابلها من المناظر، والأنف لا يستطيع أن يشُم إلا ما يمر به من الروائح، واللسان لا يستطيع أن يذوق إلا ما يلمسه من الطعوم، واليد لا تستطيع أن تمسك إلا ما يقع فى قبضتها من الأجسام. وهكذا كل حاسة من الحواس لا تستطيع أن تدرك إلا ما يقع فى دائرة حسها من الأشياء؛ ثم هى ترسل بهذا الإدراك إلى العقل، فيفسره العقل بأنه صوت أو منظر أو رائحة أو جسم، ويحكم عليه بأنه لطيف أو عنيف، جميل أو دميم، طيب أو خبيث، كبير أو صغير.

فكل ما يصدره العقل من أحكام إنما هو قائم على ما تدركه الحواس، وكل ما تدركه الحواس إنما هو مستمد من عالم الحس الذى تعيش فيه؛ ولن تستطيع الحواس بأى حال أن تستمد شيئًا من غير هذا العالم. فالمسموع والمنظور والمشموم

والمذوق والملموس، لا بد أن تكون كلها واقعة تحت إدراك الحواس، حتى تستطيع أن تدركها، وأن تؤدى إدراكها هذا إلى العقل الذى يفسره ويصدر حكمه عليه. وتفسير الشيء والحكم عليه هو « الفهم ». والفهم هو وظيفة العقل؛ وهو فرقُ ما بين الإنسان والحيوان الأعجم.

العقل يعتمد على الحواس فى مدركاته

نستطيع إذن أن نخرج من هذا البيان بنتيجة: هى أن العقل لا يمكن أن يفهم إلا ما تمده به الحواس، لأن الحواس هى روافده التى تمده بالمعلومات عن كل ما يقع تحت حسها؛ وما دامت هذه الروافد عاجزة عن أن تستمد مدركاتها من عالم آخر غير عالم الحس، فلا يمكن أن تُوَصِّل إلى العقل عِلمًا من غير عالمها.. فهل الكون كله هو عالم الحس وحده؟ هل الكون كله هو هذه المحسوسات التى نراها بأعيننا، ونسمعها بآذاننا، ونذوقها بألسنتنا، ونشمها بأنوفنا، ونلمسها بأيدينا؟.. وبعبارة أخرى: هل نحن فى الواقع نرى بأعيننا كل شيء فى هذا الكون، ونسمع بآذاننا كل صوت، ونشم بأنوفنا كل ريح، ونلمس بأيدينا كل جسم؟.. لا شك أن هناك أشياء كثيرة لا تدركها حواسنا هذه؛ لأنها إما بعيدة عن منالها، وإما خارجة

عن دائرة إدراكها؛ وهى فى كلتا الحالتين تعتبر «غَيْبًا» لا تستطيع حواسنا أن تصل إلى إدراكه.

هل كل ما غاب عن حواسنا غير موجود

فهل نستطيع إذن أن ندَّعى أن كل ما غاب عن حواسنا غير موجود؟ لا شك أننا لا نستطيع أن ندعى ذلك، ولا نستطيع كذلك أن ندعى أن كل ما غاب عن حواسنا غير معقول أن يكون موجودًا، لأن العقل فى هذا المجال لا يستطيع أن يحكم، إذ الحواس التى يستمد منها معلوماته، والتى يعتمد على إدراكها لذلك الغيب، لم تصل بعد إلى ذلك الغيب، أو هى بطبيعتها لا تستطيع الوصول إليه. فوسائل العلم إذن بهذا الغيب ستظل مفقودة حتى تصل الحواس إلى إدراكه، فإذا استطاعت الحواس أن تصل إليه فأدركته، استطاع العقل أن يفهمه ويصدر حكمه عليه؛ أما إذا ظلت الحواس عاجزة عن الوصول إليه، فإن العقل كذلك يظل جاهلاً به، فلا يستطيع أن يفسره ولا أن يحكم عليه؛ فإذا تصدى للحكم كان حكمه خطأ، لأنه حكم قائم على غير علم.

ولنضرب لذلك مثلاً من الواقع.. لو أن قائلاً قال للناس قبل مائة عام مثلاً : إن هناك فى الكون سرًّا عجيبًا، يكون فى بعض الأجسام نورًا، وفى بعضها قوة، وفى بعضها حرارة، وفى

بعضها برودة، وفى بعضها صوتًا، وفى بعضها صورة؛ وأحيانًا يكون دواء ناجعًا، وأحيانًا يكون موتًا صاعقًا.. فهل كانوا يصدقونه فيما يقول؟ وهل كانت عقولهم تؤمن بوجود هذا السر؟ فلما أن كشف العلم سر «الكهربا» ولمس الناس آثارها، وأدركتها حواسهم على ضوء التجربة والواقع، صدقوا وآمنت عقولهم بوجود هذا السر. فهل كانت الكهربا معدومة ثم وجدت حين اكتشفها العلم؟.. لا؛ بل كانت موجودة فى الكون منذ خلق الله الكون، ولكن العقل لم يكن يعرفها لأن الحواس لم تكن تدرك آثارها، فلما أدركتها الحواس عرفها العقل؛ وكذلك الشأن فى كل ما كشف العلم الحديث من أسرار هذا الكون وعجائبه.

وقديمًا عجب بعض الناس من أن عمر بن الخطاب نادى وهو على المنبر فى المدينة: «يا سارية الجبلَ، الجبل!!» يحذر قائد جيشه بالشام من كمين أعده له العدو وراء الجبل، فسمع سارية النداء فأخذ حِذْره من ذلك الكمين؛ ولكننا أصبحنا الآن بحيث لا نعجب من مثل هذا، بعد أن كشف العلم لنا ما كشف من أسرار الصوت فى الراديو. إذن فهناك فى الكون أسرار لم تزل خافية على العقل، ولا يستطيع العقل أن يحكم بأنها مستحيلة أو ممكنة، لأنها لم تصل إلى عمله بعد، أو لأنه

غير قادر على أن يصل إلى علمها بوسائله. وإن فيما يشكف العلم لنا من هذه الأسرار لدليلاً على أن هنالك أسرارًا لم تُكشف لنا بعد؛ ولقد يكون ما نجهله من هذه الأسرار أكثر بكثير مما نعلمه؛ وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وما أوتيتم من العِلْم إلا قَليلًا﴾(1).

ويعجبنى فى هذا المجال تصوير لأحد العلماء الأجانب شبه فيه العلم - أو العقل فيما يكتشفه من أسرار هذا الكون - برجل جلس على شاطئ البحر، فجعل ينظر إلى البحر مبهورًا بعظمته، متطلعًا إلى ما فيه من أسرار، فبينما هو كذلك إذ قذف البحر له سمكة، فصاح مسرورًا: لا شك أن فى هذا البحر سمكًا. ثم قذف له البحر مَرْجانة، فصاح مبتهجًا: ولا شك أن فيه مرجانًا. ثم قذف البحر له لؤلؤة، فعرف أن فيه لؤلؤاً كذلك.. وهكذا، كلما رمى البحر له شيئًا ظن أنه كشف سرًّا من أسرار هذا البحر. لكن هل يستطيع أن يحيط بكل ما فى البحر من أسرار؟ لا شك أنه لا يستطيع، ولو قضى عمره على شاطئ البحر.. وهو تشبيه صادق وتصوير بليغ لموقف العقل من أسرار هذا الكون.

---

(1) سورة الإسراء الآية ٨٥.

العقل لا يستطيع أن يحيط بكل ما فى الكون من أسرار

نستطيع أن نصل من هذا إلى نتيجة أخرى؛ هى أن العقل لم يحط بكل ما فى الكون من أسرار، وأنه ما دام لا يستطيع أن يحيط إلا بما تمده به الحواس، فإن حكمه على ما لا سبيل للحواس إليه، إنما هو رَجْم بالغيب وخَبْط فى الظلام؛ وما دام الأمر كذلك فكل ما لا تدركه الحواس لا يمكن أن يحكم فيه العقل. والحواس بطبيعتها مادية لا تدرك إلا ما تحسه من عالم المادة؛ أما ما وراء عالم المادة - وهو عالم الغيب - فإنها لا يمكن أن تدرك منه شيئًا. فعلم العقل بما وراء المادة عن طريق الحواس أمر غير ممكن، وحكمه عليه لا يمكن أن يكون صادقًا أبدًا. ومن أجل هذا كان العقل غير صالح لأن يحكم فى مسألة « الإسراء والمعراج »، لأنها من عالم الغيب الذى لا تدركه الحواس.

السمع وحده هو طريق الاتصال بعالم الغيب

من أى طريق - إذن - يأتى للعقل علم ما وراء المادة؟ لا يمكن أن يكون ذلك إلا من طريق « السمع ».. من طريق السمع وحده لا من طريق غيره؛ وذلك بأن يتلقى الخبر عنه من

صادق أمين، له قدرة على الاتصال بما وراء المادة، أى « بعالم الغيب ». وهذا لا يتأتى إلا للأنبياء والرسل؛ والأنبياء والرسل صادقون فيما يبلغون من هذه الأخبار، لأنهم يتلقونها بطريق الوحى الإلهى عن الله وهو أصدق القائلين. فليس هنا مجال للشك فى صدق الحقيقة التى يخبر بها الرسول والأنبياء عن عالم الغيب؛ وليس للعقل أن يقول فى هذا المجال شيئًا، لأنه خارج عن نطاق إدراكه.

وربما ظن بعض الناس أن العلم بما وصل إليه من الوسائل الحديثة يستطيع أو يمكن الاستعانة به أو الاعتماد عليه فى علم ما وراء المادة. ولكن العلم الحديث بكل وسائله لا يستطيع ذلك، لأن وسائله كلها مادية قائمة على التجربة والملاحظة، وهما لا تقومان إلا على ما تدركه الحواس؛ والحواس بطبيعتها لا تدرك ما وراء المادة.

فالسمع - إذن - هو وحده الطريق الذى يستمد العقل منه معلوماته عما وراء المادة، أو عن عالم الغيب وما فيه من الجنة والنار، والملائكة والجن، والحشر والحساب، وما إلى ذلك من « السَّمْعِيَّات » التى لا يمكن أن تأتينا أخبارها إلا من طريق السمع وحده.

« والإسراء والمعراج » من هذه السمعيات.. فليس للعقل

مجال فى الحكم عليها بالصدق أو بالكذب، وبالجواز أو بالاستحالة، لأنها غير داخلين فى نطاق علمه؛ فإذا تصدى للحكم عليها فقد تصدى للحكم فيما ليسَ له به علم فليس للعقل - إذن - إلا التصديق بما ورد عنها عن لسان الصادق الأمين، وهو رسول الله، صلى الله عليه وسلم. وليس له أن يسأل عن إمكان ذلك أو كيفيته، لأن ذلك شيء ليس فى طاقة العقل أن يفهمه، لأنه من عالم الغيب الذى لا يدخل فى دائرة إدراكه. أما الذى يستطيع العقل أن يسأل عنه فهو الحكمة فى ذلك الإسراء والمعراج.

حكمة الإسراء والمعراج

أما حكمة الإسراء فقد أجملها الله سبحانه فى قوله : ﴿لِنُرِيه مِنْ آياتِنَا﴾ وذلك حيث يقول عزّ وجل من سورة الإسراء : ﴿سُبْحَان الذى أسْرى بعَبْده ليلاً من المسْجد الحرام إلى المسجد الأقْصَى الّذى باركْنا حوله لنُريَه من آياتنَا إنَّه هُو السَّميع البَصيرُ﴾[1] وأما حكمة المعراج فقد أجملها الله سبحانه فى قوله ﴿لقد رأى من آيات ربه الكبرى﴾؛ وذلك حيث يقول عز وجل من سورة النجم : ﴿ولقد رآه نَزْلةً أخرى * عنْدَ سِدْرَة

(١) سورة الإسراء الآية ١.

الْمُنْتَهى ❁ عندها جنَّةُ المأْوَى ❁ إذ يغْشَى السدرةَ ما يغشَى ❁ ما زاغ البصرُ وما طغَى ❁ لَقَدْ رأى من آياتِ ربِّه الكُبْرى﴾[1].. وذلك فى رأى من يقول بأن هذه الآيات نزلت فى شأن المعراج.

فالغرض الذى كان من أجله الإسراء وكان من أجله المعراج، هو أن يُرِىَ الله رسوله ما شاء من آيات قدرته، وعجائب صنعه، وعظيم ملكه؛ ليطمئن قلبه، وتستنير بصيرته، ويزداد يقينه.

درجات المعرفة

ويقول العلماء : إن المعرفة درجات ثلاث: علم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين. فعلم اليقين هو المعرفة التى تقوم على الخبر الصادق، وعين اليقين هو المعرفة التى تقوم على المشاهدة؛ وحق اليقين هو المعرفة التى تقوم على التجربة والممارسة.. فأنت إذا سمعت عن بلد من البلاد من أمين صادق لا تشك فى خبره، فذلك علم اليقين؛ فإذا أنت رأيت هذا البلد بعينيك، فذلك عين اليقين؛ فإذا أنت عشت فى هذا البلد فعاشرت أهله وعرفت أموره ودرست أحواله، فذلك حق اليقين. كذلك إذا

---

(١) سورة النجم الآيات ١٣ - ١٨.

سمعت عن شخص، ثم رأيته، ثم خالطته وجربته، فقد تدرجت فى المعرفة به درجة بعد درجة؛ من علم اليقين، إلى عين اليقين، إلى حق اليقين، وهى الدرجة التى ليس بعدها درجة فى العلم ولا فى المعرفة.

تطلع النفس إلى الترقى فى درجات المعرفة

"والرسل والأنبياء، صلوات الله وسلامه عليهم، قد تلقوا عن الله تعالى السمعيات، أو أنباء عالم الغيب، بإيمان وتصديق ويقين لا يقبل الشك، ولكن منهم من استشرف إلى الترقى فى المعرفة من درجة «علم اليقين» إلى درجة «عين اليقين»؛ فقد حكى الله عن نبيه عُزَيْر أنه ﴿مَرَّ على قَرْيَة وهى خاوية عَلى عرُوشِهَا، قالَ أنَّى يُحيى هٰذه الله بعْد موتها فأماتَهُ الله مائَةَ عامٍ ثمَّ بعثَهُ قالَ كَم لبِثْتَ قال لبثْتُ يَومًا أو بَعْضَ يومٍ قال بَل لبِثْتَ مائة عامٍ فانْظُر إلى طَعامك وشَرابك لم يَتسنَّه[1] وانظُرْ إلى حِمارِك ولِنَجْعلك آية لِلنَّاسِ، وانظُرْ إلى العظَام كيْف نُنشِزُها[2] ثم نكسُوها لحمًا فلما تَبيَّن لَهُ قَالَ أعْلم أنَّ الله عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدير﴾[3]. . وحكى عن خليله إبراهيم أنه قال: ﴿ربِّ أرِنى

---

(١) لم يتسنّه: لم تغيره السنين.

(٢) ننشزها: نعيد تركيبها ونضعها فى مواضعها.

(٣) سورة البقرة الآية ٢٥٩.

كيفَ تُحيي المَوْتى قال أوَ لَمْ تُؤمن قال بلى ولكن ليطمئنَّ قلبي قال فَخُذ أربعةً من الطَّير فصرهُن إليك[1]، ثم اجعلْ على كل جبلٍ منهن جُزءًا ثم ادْعُهنَّ يأْتينَك سعْيًا واعلم أن الله عزيز حكيم﴾[2]..
وحكى عن رسوله موسى أنه قال: ﴿ربِّ أرِنِى أنْظُر إليك قال لنْ تَرانِى ولَكِن انْظُرْ إلى الجَبَل فإنِ استَقَرَّ مَكَانَه فَسوفَ تَرانى؛ فَلمَّا تجلَّى ربُّه لِلْجَبل جَعَلَهُ دكًّا وخَرَّ موسىٰ صَعِقًا[3] فَلمَّا أفاقَ قالَ سُبْحانَك تُبْتُ إليكَ وأنا أوَّل المؤمنين﴾[4]..

«ومحمد، صلى الله عليه وسلم، سيد الأنبياء وخاتم الرسل، وأكرم خلق الله على الله، فكان من كرامته عليه - سبحانه - أن خصه بتلك الرحلة المَلَكُوتية العجيبة، ليريه من آياته ما استشرف غيره إلى رؤية بعضه، ليرقى به من منزلة «علم اليقين» إلى منزلة «عين اليقين». فكان صلى الله عليه وسلم هو الرسول الوحيد الذى يخبر أمته بخبر السمعيات وما وراء المادة عن عيان ومشاهدة، لا عن مجرد الخبر السماوى فحسب. ولذا كان ﷺ واضح البيان فى تعليمه، يكثر من التشبيهات وضرب

---

(١) صرهن إليك: أى أجمعهن فى يديك لتستوثق من حياتهن.

(٢) سورة البقرة الآية ٢٦٠.

(٣) سقط صريعًا من هول ما رأى.

(٤) سورة الأعراف الآية ١٤٣.

الأمثال وأنواع الاستعارة، ليقدم للناس تلك الحقائق الكونية الخفية، مصوَّرة بصورة ما يشبهها من الأمور الواقعية المعهودة. وتلك منزلةٌ من سمع ورأى، لا من سمع فقط.

« ولقد كان الوحى ينزل عليه بخبر تلك الحقائق والآيات الغيبية، فيخبر مثلا عن الذين يأكلون الربا بأنهم ﴿لا يقُومُون إلا كَما يقوم الذى يَتَخَبَّطُهُ الشيطانُ من المَسّ﴾[1]؛ وعن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلمًا بأنهم ﴿إنما يأكُلونَ فى بطُونهم نارًا﴾[2]؛ ويخبر عن آل فرعون فى حياة البرزخ بقوله: ﴿النَّارُ يُعْرَضُون عليها غُدُوًّا وعَشِيًّا﴾[3].. وهكذا وهكذا مما نزل به الوحى على قلبه، صلى الله عليه وسلم. وتلك معارف جليلة كان يستشرف لرؤيتها أكابر الأنبياء والرسل، ويتشوفون إلى درجة فى المعرفة أعلى من الدرجة التى هم عليها. ولا شك أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، كان يتشوف كما يتشوفون، ولكنه لم يطلب من الله كما طلب غيره، تأدُّبًا معه، سبحانه وحياء منه؛ فأكرمه الله، سبحانه، بتلك الرحلة ليريه من آياته ما يشاء، ويطلعه من عجائب كونه على ما يريد، وليفضى إليه بما يشاء

(١) سورة البقرة الآية ٢٧٥.

(٢) سورة النساء الآية ١٠.

(٣) سورة غافر الآية ٤٦.

من أسراره جل شأنه»[1].

ولقد يحلو لبعض المعاصرين منا أن يشبه ذلك بما يحدث الآن فى الدول الكبرى، حيث تستدعى الدولة سفيرها فتفضى إليه بما تشاء من أسرارها الخطيرة، وترسم له الخطة كما ينبغى أن تكون. وهو مَنْزَعٌ شعْرى جميل، ولكنه تشبيه مع الفارق العظيم؛ ﴿ولله المَثلُ الأعْلَى وهُو العزيزُ الحكيمُ﴾[2].

هل لله مكان؟

وهنا يستشكل الأمر على بعض الناس فيقولون: وهل لله، عز وجل، مكان حتى يَعْرُج إليه فيه رسوله؟.. لقد نستطيع أن نسلم بأن الإسراء به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ممكن، لأننا الآن نرى الطيارات تقطع هذه الرحلة ذهابًا وإيابًا فى بضع ساعات؛ وقد نستطيع أن نسلم بأن رسول الله ﷺ عُرج به إلى السماء، لما نراه الآن من محاولات العلم الحديث فى الوصول إلى الكواكب؛ وقد نستطيع كذلك أن نسلم بأن ما رآه رسول الله من حياة البرزخ[3]، ومن صور الأعمال، ومن عجائب

---

(١) منبر الإسلام عدد رجب ١٣٧٤: مقال للأستاذ البهى الخولى مع بعض تصرف.

(٢) سورة النحل الآية ٦٠

(٣) البرزخ: هو فترة ما بين الموت والنشور. وهو الفترة التى يقضيها الموتى فى قبورهم حتى يبعثوا يوم القيامة.

الكون حق، لأن خبره صادق لا يقبل الشك.. ولكن كيف نستطيع أن نسلم بمثوله فى حضرة ربه ذى الجلال، عند سدرة المنتهى؟ أليس معنى هذا أن لله، جل جلاله، مكانًا، وأنه - سبحانه - فى السماء السابعة أو فيما وراءها؟..

والأمر فى حقيقته غير مُشْكل، ولكننا نحن الذين أشكلناه على أنفسنا، لأننا أخضعناه لمدركاتنا الحسِّية، وحكَّمنا فيه العقل الذى ليس من شأنه أن يحكم فى مثل هذا الأمر. فالله، سبحانه وتعالى، ليس بعيدًا عن رسوله حتى يقطع للقائه هذه الأبعاد الشاسعة فى السموات العلى، بل هو معه حيثما كان، وهو أقرب إليه من حبل الوريد؛ بل هو قريب من عباده جميعًا، يسمعهم إذا دعوا، ويجيبهم إذا سألوا، ويكون معهم أينما كانوا: ﴿مَا يكون مِنْ نَجْوَى ثلاثة إلاَّ هُوَ رابِعهُمْ، ولاَ خَمْسَةٍ إلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ، وَلاَ أدْنَى مِنْ ذٰلكَ وَلاَ أكْثَر إلاَّ هُو مَعَهُمْ أيْنَمَا كانُوا﴾[1]؛ والذى يقول لرسوله: ﴿وإذا سَألَكَ عِبَادِى عَنِّى فإِنِّى قَرِيب أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إذَا دَعانِ﴾[2] وقد نهى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، المؤمنين أن يبالغوا فى رَفْع أصواتهم، حين رأى جماعة منهم يجأرون بالتكبير يوم خيبر، فقال: «ارْبَعُوا على

---

(١) سورة المجادلة الآية ٧.

(٢) سورة البقرة الآية ١٨٦.

انفسكم[1]، فإنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائبًا، إنكم تدعون سميعًا قريبًا، وهو معكم».

فلم يكن الغرض من العروج - إذن - أن يلقى محمد ربه فى مكان بعينه؛ إنما كان ذلك ليرى من ملكوت الله ما شاء الله أن يرى، وليطَّلع من عجائب صنعه على ما شاء الله أن يطلع، وليشهد من سعة ملك الله وجلال سلطانه وعظيم قدرته ما يزيده يقينًا على يقين، وإيمانًا على إيمان؛ وليستشعر المنزلة الكريمة والدرجة الرفيعة التى أعدها له ربه.. وإلا؛ فقد كان فيما يوحى إليه ربه على لسان أمينه جبريل كفايةٌ وغناء.

العلم لم يكتشف بعد حقيقة السموات

على أن العلم لم يكتشف بعدُ حقيقة السموات، ولا يزال من أمرها يخبط فى مَتَاهة عمياءَ على رغم ما بلغه من تقدم وما بذله من جهود.. يقول الأستاذ حنفى أحمد فى كتابه «معجزة القرآن فى وصف الكائنات» ص٥٠ : «إن استعمال المراقب الحديثة فى الكشف قد أثبت بما لا يقبل الشك أن المجموعة الشمسية التى تتكون من الشمس وتوابعها من السيارات التى تدور حولها. تسبح فى حَشْد عظيم من النجوم، تظهر فى

---

(١) أى ارفقوا بأنفسكم ولا تبالغوا فى رفع أصواتكم.

صورة نقط صغيرة من الضوء متميز بعضها عن بعض، وأن هذه المجموعات تعرف الآن باسم « السديم أو مجموعة المجرَّة ».. وأن هناك - عدا هذه الآلاف المؤلفة من النجوم التى تُرى فى المجرة - أجسامًا أخرى ترى على هيئة سُحب مضيئة قليلا، ولكن لا تظهر فيها نقط متميزة، وقد أطلق عليها اسم « الجزائر الكونية »، وهى السُّدمُ العظمى أو المجرات الخارجية، وهى عبارة عن حشود هائلة من النجوم لم تستطع المراقب الحديثة توضيحها على رغم ما بلغت من قوة[1]، نظرًا لأبعادها الساحقة. وقد دلت المشاهدات الدقيقة على وجود ملايين من هذه المجرات الخارجية منتشرة فى الفضاء.. فى طبقات متتالية يبلغ متوسط البعد بين بعضها والبعض الآخر مليونًا ونصف مليون من السنين الضوئية، أى بمقدار مسافة يقطعها الضوء فى مليون ونصف مليون من هذه السنين، على حين هو يقطع فى السنة الواحدة نحو ستة ملايين مليون من الأميال »[2].

ثم يقول فى ص ٥٤ : « وقد دل الحساب الرياضى من المشاهدات الدقيقة على أن أبعاد المجرات الخارجية عن المجرة مذهلة، إذ وُجد أن أقربها - ويدعى « سديم أندرو ميدا

(١) بلغت قوة مرصد « مونت ولسن » بأمريكا أن تدخل فى العين من الشعاع ٢٥٠ ألف مرة قدر ما تدخله العين البشرية.

(٢) تبلغ سرعة الضوء فى الثانية الواحدة نحو ١٨٦ ألفًا من الأميال.

العظيم» - يبعد عنها بنحو ٦٨٠ ألف سنة ضوئية، أى بنحو سبع مرات قدر قطرها، ثم تزيد أبعاد المجرات بعد ذلك إلى ملايين، ثم عشرات الملايين، ثم مئات الملايين من السنين الضوئية».

ثم يقول بعد ذلك فى ص٦٢ : «وقد دلت البحوث الدقيقة من التحليل الطَّيْفى للمجرات الخارجية.. على أنها تتباعد عنا كما يتباعد بعضها عن بعض باستمرار، وبسرعات عظيمة جدًا تقدر بآلاف الأميال فى الثانية الواحدة؛ فاستدلوا بحركاتها على أن الفضاء بين المجرات يتمدد ويتسع باستمرار. ويقول السير جينز : إنهم قدروا هذا التمدد بنحو مائة وخمسة أميال فى الثانية الواحدة لكل بعد قدره مليون سنة ضوئية؛ وإن حجم الفضاء العالمى الآن يبلغ عشرة أمثال حجمه منذ بدأ تمدده، أى إن كل بعد من أبعاده الثلاثة قد زاد قليلا على ضعف قدره الأصلى».

ويؤكد الأستاذ حنفى أحمد فى ص٥٤ - على لسان السير جينز العالم الفلكى الإنجليزى - «أن الخطأ المحتمل فى تقدير الأبعاد العظيمة للأجرام السماوية بالطرق المعتمدة لا يزيد على عشرة فى المائة».

هكذا يقول العلم، أو هكذا تقول التجارب التى قام بها

العلم حتى الآن. فإذا نحن سايرنا العلم فى نظرياته فماذا عسى أن تكون سعة هذا الكون العجيب؟ وأين تبدأ حدوده وأين تنتهى؟ وأين تقع السموات السبع من هذه العوالم التى لا يدرك العقل كنهها، ولا يعرف العلم مداها؟ وكيف يكون الصعود فيها، وكيف يكون الهبوط، وكيف يكون الاستواء؟ أليس الأمر - إذن - أوسع من أن يَحُدَّه العلم، وأعظم من أن يحكم فيه العقل، وأعمق من أن تحيط به الأفهام؟.. ﴿سُبْحانَ رَبِّ السَّمٰواتِ والأَرْضِ رَبِّ العَرْشِ عمَّا يَصِفُونَ * .... وهُوَ الَّذِى فى السَّماءِ إلٰهٌ وَفى الأَرْضِ إلٰهٌ وَهُو الحَكِيمُ العَلِيمُ * وتَبارَكَ الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمٰواتِ والأَرْضِ ومَابيْنَهُمَا وعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ، وإليهِ تُرْجَعونَ﴾[1].

البقعة المباركة

وبعد، فقد وقع الإسراء والمعراج فيما بين السنة العاشرة والحادية عشرة من البعثة، وهى الفترة التى يئس فيها رسول الله ﷺ من إيمان قريش، فذهب إلى ثقيف فردته أقبح رد، فعاد مكلوم الفؤاد واهن القوة، يضرع إلى الله ويستعينه، ويشكو إليه ما يلاقى من صدود الناس عنه وسُخْرهم به وجرأتهم عليه؛ فلعله كان من تطمين الله له ومن رحمته به أن هيأ له هذه

(١) سورة الزخرف الآيات ٨٢، ٨٤، ٨٥.

الرحلة الملكوتية، ليطمئن قلبه، وليعلم أنه بعين الله دائمًا أبدًا، وأن الله لن يتخلى عنه ولن يخلفه ما وعده من النصر، وإن تراكمت أمامه العقبات، واحْلَوْلَكت حوله الظلمات.

لقد كان الإسراء رحلة مباركة فى الأرض، بين المسجد الحرام الذى بناه إبراهيم وإسماعيل، والمسجد الأقصى الذى بناه داود وسليمان؛ وهما البيتان اللذان باركهما الله تعالى وبارك ما حولهما، فكانا مقر عبادة الله وتوحيده، وكانا مهبط الوحى على رسله وأنبيائه. وقد مر، صلى الله عليه وسلم فى رحلته هذه بالبقعة المباركة التى كلم الله فيها موسى، عليه السلام، وهى «طورسينا»، فصلى بها ركعتين؛ ومر بالبقعة المباركة التى ولد فيها عيسى عليه السلام، وهى «بيت لحم» فصلى بها ركعتين؛ ثم وصل إلى بيت المقدس فوجد فيه إبراهيم وموسى وعيسى فى حشد من الأنبياء والرسل، فصلى بهم جميعًا؛ ثم عُرج به إلى السماء، فرأى من آيات ربه الكبرى ما شاء الله أن يرى.

حياة البرزخ

وقد فصلت الأحاديث بعض ما رأى من هذه الآيات؛ فقد رأى صلى الله عليه وسلم حياة «البرزخ»، وهى فترة ما بين الموت وقيام الساعة؛ فرأى الأنبياء، صلوات الله عليهم، ورأى منازلهم ودرجاتهم؛ ورأى نفوس بنى آدم بعد موتها، يتلقاها آدم

أبو البشر فيفرح بطيبها ويحزن لخبيثها. ورأى حقائق الأعمال مصوَّرة فى صورها المحسوسة كما أراد الله أن تكون؛ فرأى آل فرعون ومَن على شاكلتهم من الطغاة والظَّلمة، يُعرَضون على النار غُدُواً وعَشِيًّا؛ ورأى الذين يأكلون أموال اليتامى ظلمًا، لهم مشافر كمشافر الإبل، وبأيديهم قطع من النار كالحجارة يقذفونها فى أفواههم فتهوى إلى بطونهم، ورأى الذين يأكلون الربا يُوطَئون بالأقدام فلا يستطيعون القيام، كلما هموا لينهضوا سقطوا؛ ورأى الزُّنَاة يتركون لحمًا طيبًا سمينًا، ويأكلون لحما مُنْتِنًا خبيثًا؛ ورأى اللاتى يُدخلن على أزواجهن غير أولادهم معلَّقات بثُديِّهنَ؛ ورأى الذين يغتابون الناس ويقعون فى أعراضهم لهم أظفار من نحاس يخمشون بها وجوههم وصدورهم..

ورأى الجنة والنار ووعد الآخرة؛ ورأى الملائكة حافِّين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم؛ ورأى غير ذلك من آيات الله وعجائب قدرته، مما لم يكن يتسنى لأحد أن يراه إلا أن يكون من سمو الروح وصدق اليقين فى الدرجة التى كان هو، صلى الله عليه وسلم، فيها.. وتلك درجة رفيعة، ومنزله خصه الله تعالى بها دون سائر خلقه، ودون سائر أنبيائه ورسله الذين هم صفوة خلقه جميعًا.

وفى حضرة القُدُس الأعلى فرضت عليه الصلاة؛ ولعلها

كانت هى هى السر العظيم الذى أفضى به الملك الجليل إلى عبده ورسوله؛ فإن الصلاة هى الصلة الدائمة بين العبد وربه، وهى لب العبادة وجوهرها، وعماد الدين ورِكازُه.

الغلطة الشائعة

ثم عاد صلى الله عليه وسلم إلى مكة، فأخبر بما كان من أمره فى تلك الليلة المباركة؛ فكذبته قريش، واستفظع الناس الخبر حتى افتُتن به بعض من آمن. أما الذين رسخت عقيدتهم وصدق إيمانهم فلم يروا فى الأمر عجبًا، فهذا الوحى ينزل عليه من السماء كل يوم؛ فأى فرق بين أن ينزل عليه جبريل بالوحى، وبين أن يذهب به إلى حيث شاء الله أن يذهب، ليتلق من الوحى ما شاء الله أن يُلْقِى إليه، وليرى ما شاء الله له أن يرى.

وهكذا كان هذا الحادث فتنة للناس؛ تبين به إيمان الصادقين وغير الصادقين. ولا يزال الناس إلى يومنا هذا، وإلى ما شاء الله أن يكون، يخوضون فى شأن «الإسراء والمعراج»، فنهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به. والغلطة الشائعة بين الجميع أنهم يحكِّمون فيه العقل، وليس للعقل طاقة بالحكم فيما ليس له به علم. ولو أنهم وقفوا بالعقل عند حدوده، وأبعدوه عما ليس

من شأنه، لما كان فى الأمر لبس ولا إشكال. وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿هَاأَنْتُمْ هؤُلاء حاجَجْتُمْ فيما لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ، فلِمَ تُحَاجُّون فِيمَا لَيْسَ لكُمْ بِهِ عِلْمٌ والله يعْلَمُ وأنْتُمْ لاَ تعْلمُون﴾[1].

(١) سورة آل عمران : ٦٦.

ملحق (٢)
الإنسان الكامل

عداوة الشيطان لآدم وبنيه

ما مهمة الإنسان فى هذه الأرض؟ وما منزلته بين الخلائق التى خلقها الله عز وجل فى هذا الوجود؟ يقول الله تعالى فى سورة الإسراء: ﴿ولقد كرَّمْنا بنى آدَمَ وحَمَلناهُم فى البرِّ والبَحْرِ، ورزقْناهُم من الطَّيباتِ وفضَّلْناهم على كَثيرٍ ممنْ خلقْنا تفضيلا﴾[1]. وفى سور كثيرة من القرآن الكريم ذكر، الله عز، وجل أنَّه حين خلق الإنسان الأول - وهو آدم أبو البشر - أسكنه الجنة، وأمر الملائكة أن يسجدوا له فسجدوا، إلا إبليس فإنه أبى واستكبر وقال: ﴿أنا خيرٌ منه خَلقْتنى من نارٍ وخَلقْتَه من طين﴾[2]؛ فكان جزاؤه أن طرده الله من الجنة،

---

(١) سورة الإسراء الآية ٧٠.

(٢) سورة ص الآية ٧٦.

وتوعده بالعقاب الشديد، فخرج منها وهو يضمر العداوة لآدم، وآلَى على نفسه أن يفسد عليه وعلى بنيه حياتهم، وأن يُغْوِيَهم ويستَهوِيَهُم بكل أساليب الخداع والمكر، حتى ينحرف بهم عن طريق الخير إلى طريق الشر، ويَعْدِل بهم عن أسباب السعادة إلى أسباب الشقاء؛ وتمنى على الله أن يؤخره إلى يوم القيامة، حتى يؤدى هذه المهمة التى رصدَ حياته لها، وعاهد نفسه عليها. فأجابه الله، عز وجل، إلى ما تمنى، وقال: ﴿اذهَبْ فمَنْ تَبِعَك مِنْهُمْ فإنَّ جَهَنَّم جَزاؤُكُم جَزاءً مَوْفُورًا * واسْتَفْزز مَن اسْتَطعْت مِنهُم بصَوْتِك وأجْلِبْ عَلَيْهِمْ بخَيْلِكَ ورَجلِك وَشَارِكْهُم فى الأمْوال والأوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطانُ إلَّا غُرُورًا * إنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهم سُلْطان. وكفَى بِرَبك وكيلا﴾[1].

وهكذا بلغ الشيطان أمنيته فى البقاء، وأخذ يعمل فى الكيد لآدم حتى استطاع أن يخرجه من الجنة كما خرج هو منها، وهبط آدم والشيطان إلى الأرض، وكل منهما يضمر العداوة لصاحبه.

الإنسان خليفة الله فى الأرض

ماذا كانت مهمة الإنسان فى الأرض..؟ يقول الله تعالى:

(١) سورة الإسراء الآيات ٦٣ - ٦٥.

﴿وإذْ قال ربُّك للمَلائكة إنِّى جاعلٌ فى الأرضِ خليفةً قالوا : أتجعل فيها مَن يُفسِدُ فيها ويَسْفِكُ الدِّماء، ونحن نُسَبِّحُ بحمْدِك ونقدِّسُ لك قال إنِّى أعْلَمُ ما لا تعْلَمون﴾[1].

كانت مهمة الإنسان إذن أن يكون خليفة الله فى الأرض ليقيم فيها الحق والعدل، ويَعْمُرها بالخير والسلام، وكانت مهمة الشيطان أن يصرفه ما استطاع عن بلوغ هذه الغاية. ومنذ ذلك العهد البعيد والصِّراع بين الإنسان والشيطان قائم فى الأرض، لا يخلو منه مكان ولا زمان. وهى معركة الخير والشر، التى أراد لها أن تظل دائرة حتى تقوم الساعة.

عناصر التكوين فى الإنسان

قد يقول قائل : ولماذا أراد الله لهذه المعركة أن تدوم فى الأرض، ما دام سبحانه يريد أن يعمرها بالخير والسلام؟ ولماذا سلط الشيطان على الإنسان وقد اختاره ليكون خليفته فى إقامة الحق والعدل؟ ولماذا لم يذلل له الطريق ويحول بين الشيطان وبينه، حتى يتسنى له أن يصل إلى الغاية التى أرادها له؟ وإذا كان الشيطان قد سُلِّح بكل قوى الإغواء ليصرف

(١) سورة البقرة الآية ٣٠.

الإنسان عن غايته، فهل سُلِّح الإنسان بما يقاوم هذه القوى حتى يحقق الغاية من وجوده ؟

هذه أسئلة قد تدور فى الرءوس وتجرى فى الخواطر، وقد يدور غيرها وغيرها حول هذه المشكلة. ولكى نستطيع الجواب عنها ينبغى أن نقف قليلا حتى ننظر فى طبيعة الإنسان وفطرته التى فطره الله عليها.

يقول الله تعالى : ﴿الذى أحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُ وَبَدأ خلْقَ الإنْسانِ مَنْ طِين * ثُمَّ جَعَل نسْلَهُ مِنْ سُلالةٍ مِنْ مَاءٍ مَهين * ثُم سَوَّاهُ ونفخَ فِيهِ من رُوحه وجعل لكم السمعَ والأبصارَ والأفئدةَ قَليلاً مَا تَشْكرون﴾[1]

ويقول سبحانه : ﴿وعلَّمَ آدمَ الأسْمَاء كلَّها ثمَّ عَرَضَهُمْ علَى المَلاَئكةِ فَقال : أنبئُونِى باسْمَاء هؤلاء إن كنْتُمْ صَادِقِين * قَالُوا سُبْحانك، لاَ عِلم لنَا إلا مَا علَّمْتَنَا إنَّك أنتَ العليمُ الحكيمُ * قَالَ يا آدمُ أنبِئْهُمْ بِاسْمائِهمْ فَلمَّا أنبأهُمْ بأسْمَائهمْ قال ألَمْ أقُلْ لكمْ إنِّى أعْلَمُ غيْبَ السَّمٰواتِ والأرْض، وأعْلمُ ما تُبدُون وما كُنتم تكْتمُون﴾[2] ؟

---

(١) سورة السجدة الآيات ٧ - ٩.

(٢) سورة البقرة الآيات ٣١ - ٣٣.

ومضمون هذا أن الإنسان خُلق من عنصرين: عنصر أرضيّ، وهو عنصر الطين الذى يشترك فيه مع سائر الخلائق التى تدب على الأرض، من حيوان وطير وحشرات وهوام؛ وعنصر سماوى، هو هذه النفخة الروحية التى كرمه الله بها، وأوْدع فيها سر المعرفة التى امتاز بها الإنسان، وصار قادرًا على أن يدرك ما لا يدرك غيره من الخلائق التى تشاركه الحياة فى الأرض. وهو ما يشير إليه قوله سبحانه: ﴿ثم سوَّاه ونفَخ فيه من رُوحِه وجَعَل لكُم السَّمع والأبْصار والأفئدة﴾.

وقوله جل شأنه: ﴿وعلَّمَ آدمَ الأسماءَ كلَّها..﴾.

العنصر الأرضى وطبيعته

فبمقتضى العنصر الأرضى فى الإنسان رُكِّبت فيه الغرائز التى يحتاج إليها الجسم فى نموه وسلامته وصلاحيته للحياة. وهى غرائز يشترك الإنسان والحيوان فى كثير منها: فكلاهما جسم يتركب من عظم ولحم ودماء وعروق وأعصاب وغير ذلك؛ وكلاهما يحتاج إلى الغذاء الذى يقيم حياته، وإلى القوة التى يقى بها نفسه، وإلى التناسل الذى يحفظ به نوعه؛ وكلاهما يندفع بحكم غرائزه إلى السعى فى سبيل قوته، وإلى القتال فى سبيل حياته، وإلى التزاوج فى سبيل نوعه. وتحت تأثير هذه الغريزة

ينشأ ما يكون فى الإنسان والحيوان من حرص وبطش وشهوة، وما يترتب على كل ذلك من مظاهر الطمع والظلم، والشح والأنانية، والاندفاع مع الشهوة، والميل مع الهوى.

العنصر الروحى وطبيعته

فالإنسان من هذه الناحية المادية يستوى مع الحيوان فى الاندفاع الغريزى نحو الحياة. ولكن العنصر الروحى فيه يرفعه عن مستوى الحيوان، ويجعله بحيث يستطيع أن يتحكم فى غرائزه ويُهيمن عليها، وبحيث يملكها ويستخدمها على بصيرة وهدى، فى كل ما يقيم حياته على الأساس الذى يليق به كإنسان. فهو لا يندفع مع الغريزة اندفاعًا أعمى كما يندفع الحيوان، بل يستخدم كل ما وهبه الله من القوى العاقلة فى الهَيْمَنَة عليها والانتفاع بها، حتى تؤدى أغراضها فى غير ما ضررٍ به ولا بالمجتمع الذى يعيش فيه.

أسلحة الإنسان ضد عدوه الشيطان

وفى الإنسان من هذه القوى قوتان بارزتان هما « العقل والإرادة ».. فالعقل هو القوة المدركة التى يستطيع الإنسان بها أن يدرك ويَعقِل، ويميز الخير من الشر والنافع من الضار. والإرادة هى القوة العاصمة التى يستطيع بها أن يَضْبِط حركاته

وسكناته، فلا يُقْدِم ولا يُحجم، ولا يفعل ولا يترك، ولا يتكلم ولا يَصمُت إلا على هَدْى العقل وإرشاده، لا على دفع الغريزة وانطلاقها.

فالإنسان بهاتين القوتين ليس عبدًا لغرائزه، بل هو مَلِكٌ عليها، يحكمها ولا تحكمه، ويوجهها ولا توجهه، وهذا فرقُ ما بينه وبين الحيوان الأعجم؛ وبمقدار ما يحسن الإنسان من استخدام هاتين القوتين، يكون الفرق بينه وبين الحيوان.

هذا إلى قوة ثالثة كرم الله بها الإنسان وميزه على غيره: هى « الضمير ».. وهى قوة لها اعتبارها بين قوى الإنسان، لأنها قوة خيِّرة، توجه دائماً إلى الخير وتَزَعُ عن الشر، وتهيمن على الإنسان فى كل أحواله، وتراقبه فى كل أفعاله، وتَنزع به إلى الندم إذا وقع فى الإثم، وتمعن فى إيلامه وتبكيته إذا تمادى فى الغَواية. وقلَّما خلا إنسانٌ من وَخْز الضَّمير مهما كان طبعه.

فهذه القوى الثلاث إنما هى حصون حصَّن الله بها الإنسان ضد عدوه الشيطان.. فالعقل بإدراكه يميز بين الخير والشر، والضمير بحسّاسيته يدفع إلى الخير ويزع عن الشر، والإرادة بقوته تفعل أو تترك حسبما يوجهها العقل والضمير؛ وجميعها قوًى خيرة، لأنها أثر من آثار النفخة الروحية التى كرم الله بها الإنسان. ولا شك أنها أسلحة قوية يستطيع الإنسان بها أن

يتحكم فى غرائزه، ويرسم لها النهج الذى تسير عليه، حتى تؤدى وظائفها على خير وجه؛ كما أنها أجنحة قوية يستطيع بها أن يحلق فى جو السماء.. ولا نقصد بالسماء تلك الكواكب والنجوم، ولا ذلك اللون الأزرق الذى يعلو رءوسنا؛ إنما نقصد بالسماء كل أفق من آفاق السمو إلى المثل الأعلى، وكل معنى كريم من معانى الخير، وكل خُلق عظيم يسبغ على الفرد والجماعة رَوْح السعادة، من الصدق والوفاء، والعدل والأمانة، والمحبة والإخلاص، والمروءة والشجاعة، والتضحية والإيثار، والرحمة والحنان، والعفو والإحسان.. إلى غير ذلك من كل معنى فاضل تستريح إليه النفس، ويطمئن إليه الضمير.

تسخير الطبيعة للإنسان وإعدادها لمنفعته

هكذا بَرَأ الله الإنسان، فلم يجعل حياته مادية صرفة كحياة الحيوان، ولا روحية صرفة كحياة الملائكة؛ بل جعلها مزيجًا من المادة والروح، ليتلاءم وجوده من ناحيته المادية مع طبيعة الأرض التى يحيا عليها جسمه، ومن ناحيته الروحية مع طبيعة السماء التى تهفو إليها روحه. "فكان له إلى جانب بشريته ناحية روحية، تعود عليه بكل خصائص الحياة الكريمة، وتجعل له فى طبيعته مصدرًا لإلهام الخير وصفات الكمال"[1].

(١) آدم : للأستاذ البهى الخولى.

ولما كانت الخلافة ميدانها الأرض، فقد سخر الله للإنسان كل ما فيها، وكل ما يحيط بها من السموات، ومن الشمس والقمر، والكواكب والنجوم، والرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض؛ ليستخدم مواهبه فى اكتشاف أسرارها، واستخراج كنوزها، واستغلال خيراتها؛ ويعيش فيها سيدًا كريمًا، يقيم الحق والعدل فى أرجائها، وينشر الخير والسلام فى نواحيها، ويَقْمَع البغى والعدوان والظلم، ويؤدى عن الله فيها كل ما يريد لعباده من أمن وطمأنينة وسلام..

﴿الله الَّذى خَلَقَ السَّمٰوات والأرْضَ وأنْزل مِنَ السَّماء ماءً فأخْرج بهِ من الثَّمرات رزْقًا لكُمْ وسخَّر لَكُمُ الفُلْكَ لِتجْرىَ فى البحْر بأمْره وسخَّر لكُمُ الأنْهارَ * وسَخَّرَ لَكم الشَّمْسَ والقَمَر دائِبَيْن وسخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ والنَّهارَ وآتاكمْ مِنْ كل ما سألْتمُوهُ وإنْ تعُدُّوا نعْمة الله لا تُحصوها﴾[1].. ﴿ألَمْ ترَوْا أنَّ الله سَخَّر لكمْ مَا فى السَّمٰواتِ وما فى الأرْض وأسْبَغَ علَيْكمْ نِعمَهُ ظاهِرةً وباطِنةً﴾[2].

(١) سورة إبراهيم الآيات ٣٢ - ٣٤.

(٢) سورة لقمان الآية ٢٠.

مواهب الإنسان كافية لأداء مهمته على خير وجه

فهو عز وجل لم يترك الإنسان هَمَــلا، ولم يهبــط بــه إلى الأرض وهو أعزل، بل سلحه بكل قوَى الخير، كما سُلِّح عدوُّه الشيطان بكل قوى الشر؛ "وبين له سنن الكائنات التى تحكمها، وتضبط خيرها وشرها، وتنظم نفعها وضرها، وبث فيه من أسرار الفهم والاستعداد الفطرى مــا يــكشف بــه تلك النــواميس والسنن.. وجعل له من مواهبه قُــوًى تنــاسب طبيعــة العمــل الأرضى البحــت، وأخــرى ذات روح إلْهيــة لا تَمُــتُّ إلى الأرض بصلة، ولا تستمد منطقها من عالم الأرض، وإنمــا تســتمده مــن نور الله وفضله، سبحانه..

فليس فى مواهب المرء شىء يزيد مثقال ذرة أو ينقص عــن مقتضيات الوفاء بحقوق الخلافة التى أعده الله لها وكرمــه بهــا.. فإن هو أدى الذى عليه ونهض بحق ما ألقى إليه، فقــد أنصــف نفسه، وكان عند ما أراد الله له من كرامة؛ وإن أرادهــا مَلْهــاةً ومَأكَلةً وشهوة، وعطل بعض مواهبه دون بعض، فقد غير خلق الله فيه، وانسلخ مما أراد الله له من الــكرامة والخــير"[1]. وكان كما يقول سبحانه: ﴿وَاتْلُ عليْهِمْ نبَأ الَّذِى آتيْناهُ آيَاتِنا فَــانْسَلخ

---

(١) آدم، بشىء من التصرف.

مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ * وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ، فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ * سَاءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾[1].

الإنسان هو المسئول عن استخدام مواهبه

بكل هذه المواهب والقوى أمد الله الإنسان، وأعده ليكون أكمل الخلائق نشأة، وأرفعها قدرًا، وأهداها سبيلا. فما على الإنسان - وقد أُمِدَّ بكل ذلك - إلا أن يلائم بين مواهبه ويُوَائم بين قواه، حتى يسير بها فى الطريق السوِىّ، وإلا أن يراعىَ سُنَنَ الله فى الكائنات، حتى يحقق بها الخير والنفع لنفسه ولمن حوله؛ فإن الله، تبارك وتعالى، إنما خلق الأشياء كلها لخير الإنسان ونفعه، ولكنه لم يخلق شيئًا بحيث يكون نفعًا محضًا ولا بحيث يكون ضررًا محضًا، بل أودعها جميعًا قابليَّتها للنفع والضر، وجعل لكل شىء قدرًا يتحقق به نفعه وينتفى به ضرره.. فإذا استُعمِل الشىء فيما خلق من أجله، وبالقدر الذى حدد له كان خيرًا ونعمة، وإن أُسِىءَ استعماله أو تُجُووِز به

(١) سورة الأعراف الآيات ١٧٥ - ١٧٧.

مقدارُه كان شرًّا ونقمة "وأبدًا تكون الحياة من يد الله صحيحة سليمة، وإنما تفسدها يد الإنسان"[1].

وهكذا تجرى القاعدة مطَّرِدة كما بيَّنها القرآن الكريم: ﴿ما أصابكَ مِن حسنةٍ فَمِنَ الله وما أصَابك مِنْ سيِّئة فَمِن نفسك﴾[2].. ﴿فَمَنِ اهْتَدَى فإنَّما يهْتدِى لِنفْسِهِ ومنْ ضَلَّ فإنَّما يضِلُّ عليْها﴾[3].

لا يستطيع الشيطان أن يخدع الإنسان إلا من طريق غرائزه

وليس من شك فى أن الإنسان إذا لاءم بين مواهبه وقواه، فسيطر بعقله وإرادته وضميره على غرائز الجسم، وراعى سنن الله فى استخدام الأشياء، فلن يكون للشيطان عليه من سلطان ولكن الشيطان كثيرًا ما يغرِّر به ويستهويه، وكثيرًا ما يستدرجه ويستزِلُّه حتى يفسد عليه ذَوْقه ورأيه وتقديره، ويزين له سوء عمله فيراه حسنًا. وإنما يأتى الشيطان غريمه من طريق غرائزه، فلا يزال يثيرها ويستَفِزُّها ويُهْدِهدُها حتى تكون أغلب عليه من عقله وضميره وإرادته، فيندفع معها اندفاع الحيوان. ذلك أن

---

(١) العقل المؤمن : للأستاذ عبد المنعم خلاف.

(٢) سورة النساء الآية ٧٩.

(٣) سورة يونس الآية ١٠٨.

غرائز الإنسان أضعف نواحيه وأوْهاها، لأنها أرضية هابطة ترضى بالتافه من المتاع وبالدون من المنزلة، شأنها فى ذلك شأن الغرائز فى كل حيوان يدب على الأرض: "أما خصائصه الروحية فلا قِبَل للشيطان بها ولا سلطان له عليها، لأنها سرّ الله، عز وجل، فى ابن آدم، وحصنه الذى حصنه به وآواه إليه. ولا يزال المرء فى قوة ومَنَعة ما استعَزَّ بهذا السر واحتمى بهذا الحصن، فإذا غفل أو تهاون فى الركون إليه كان كمن ألقى سلاحه واستسلم لعدوه، فكان أهون شىء على الشيطان أن يُغْويه، لأنه حينذاك لا يكون إلا فى حماية غرائزه، وهى أضعف نواحيه تماسكًا وأكثرها تهالكًا وانهيارًا"[1].

وقديمًا أتى الشيطانُ آدمَ وحواء من قبل الغريزة، فعمد إلى غريزة «حب التملك»، وإلى غريزة «حب البقاء»، فاستثارهما فى نفسيهما، وقال: ﴿ما نَهاكُما ربُّكما عنْ هٰذهِ الشَّجرةِ إلا أنْ تكونا مَلكَيْن[2] أو تَكونا مِن الخالِدينَ * وقَاسمهما إنِّى لَكُما لمِن النَّاصِحِين * فَدلاَّهُما بغرُورٍ فلما ذَاقا الشجرة بدت لَهما سَوْءاتُهما وطَفِقا يَخْصِفانِ عليهما مِن وَرقِ الجنَّة وناداهما ربهما ألَم أَنهكُما عنْ

---

(١) آدم، مع تصرف كثير فى العبارة.

(٢) ملكين (بفتح اللام) هى القراءة المشهورة، أى أن تكونا من الملائكة. وهناك قراءة أخرى بكسر اللام، من الملك وهو الحكم والسلطان، كقوله تعالى حكايته عن الشيطان ﴿قال: يا آدم، هل أدلك على شجرة الخلد ومُلك لا يبلى﴾.

تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين * قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين * قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو، ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين﴾[1].. وهكذا لم يستطع الشيطان أن يخدع آدم وحواء إلا من طريق الغرائز؛ فلما تنبهت فيهما خصائصهما الروحية أدركهما الندم والألم، فسارعا بالتوبة والرجوع إلى الله، عز وجل.

الله، عز وجل، تعهد الإنسان بالتربية فوق ما وهبه من القوى الخيرة

ولقد كانت هذه الخصائص كافية وحدها لعصمة الإنسان من غواية الشيطان، لو أنه اعتصم بها واعتمد عليها فى مقاومة عدوه؛ ولكن الشيطان محتال خبيث، «يجرى من ابن آدم مجرى الدم»، ويتسرب إليه من كل مدخل خفى، حتى يلبس عليه أمره، ويعمى عليه وجه الصواب، فلا يرى الحق حقا ولا الباطل باطلا. والله، عز وجل، يريد للإنسان أن يكون أهلا لما خصه به من الكرامة، ويريد له ألا يضل فى متاهات البهيمية الحمقاء بعد ما ميزه بكل تلك الخصائص، ويريد له أن يؤدى حق الخلافة التى هيأه لها، وأعده لاحتمال تبعاتها؛ وهى

---

(١) سورة الأعراف الآيات ٢٠ ـ ٢٤.

أمر ليس بالهين، لأنها خلافة عن الله الذى يقول الحق وهو يهدى السبيل.. والله يريد لخليفته أن يتخلّق بأخلاقه، وأن يتبين الحق واضحا فى كل شىء حتى لا يُزِلَّه الشيطان عنه.

من أجل ذلك تعهده، عز وجل بالتربية منذ كان، كما يتعهد الوالد ولده العزيز عليه، حتى ينشئه على أحسن ما يريد له من طباع الخير وكريم الخصال؛ ﴿يُريدُ الله لِيُبيِّنَ لَكُمْ ويَهْدِيَكُم سُنَنَ الذين مِنْ قَبْلِكُمْ ويتوبَ عليكم، والله عليمٌ حكيمٌ * والله يُريدُ أنْ يتوبَ عليكم ويريدُ الَّذين يتبعُون الشَّهواتِ أنْ تَميلُوا مَيْلاً عظيما * يُريدُ الله أنْ يخفف عنكُمْ وخُلِقَ الإنْسانُ ضَعِيفًا﴾[1].

نعم، فقد جعل سبحانه يوصى الإنسان منذ نشأته أن يحرص على ما حصّنه به من القوى، وعلى ما رفعه إليه من المنزلة، وظل فى كل مناسبة يحذره من الشيطان أن يغلبه على مواهبه أو يخدعه عن منزلته، كما يحذِّر الوالد ولده من قرين السوء، ولم يَدَعْ فرصة تمرّ دون أن يكرر له النصيحة ويعيد عليه الوصية.

حذَّر منه آدمَ أبا البشر وهو لا يزال فى الجنة، قال:

---

(١) سورة النساء الآيات ٢٦ -٢٨.

﴿يآآدمُ إنَّ هذا عَدُوٌّ لَكَ ولزوْجِك فَلا يُخرجنَّكما مِن الجَنَّةِ فتشْقى * إنَّ لَكَ ألاّ تجوعَ فِيها ولا تَعْرَى * وأنَّكَ لا تظْمأُ فِيها ولا تَضْحىَ﴾[1].. وحذره منه بعد أن هبط به إلى الأرض: ﴿قال: اهبِطَا منها جميعًا بعْضُكم لِبعْض عدُوّ فإمَّا يأتِيَنَّكُمْ مِنى هُدًى * فمن اتَّبع هُدايَ فلا يَضِلُّ ولا يشْقى * ومَنْ أعْرض عَنْ ذِكرِى فإنَّ لهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا ونحشُرُه يوْم القِيامة أعْمى﴾[2].. وحذر منه بنى آدم، ذَكَّرهم بما كان من خداعه لأبَـوَيْهم حتى أخرجهما مما كانا فيه، فقال عز وجل: ﴿يا بَنِى آدم لا يفْتِنَنَّكُم الشَّيْطَانُ كما أخْرج أبَوَيْكم منَ الجنَّةِ﴾[3].. ﴿إنَّ الشَّيْطانَ لَكُمْ عدوٌّ فاتَّخِذُوهُ عدُوًّا إنما يدْعُو حِزْبَهُ لِيكُونُوا مِنْ أصْحابِ السعِير﴾[4].

وأرسل إليه الرسل ليعلموه كيف يكون إنسانًا كاملا

ولم يزل سبحانه يتعهد بنى آدم بالتحذير من غواية الشيطان، ويتخولهم بالنصح والإرشاد من حين إلى حين،

---

(١) سورة طه الآيات ١١٧ - ١١٩.

(٢) سورة طه آيتا ١٢٣، ١٢٤.

(٣) سورة الأعراف الآيات ٢٧.

(٤) سورة فاطر الآية ٦.

ويرسل إليهم رسله وأنبياءه، أمةً بعد أمة وجيلا بعد جيل، ومعهم الكتب والشرائع، ليبينوا لهم طريق الحق ويهدوهم سواء السبيل، وليضربوا لهم المثل بسلوكهم على أن الإنسان يستطيع بما وهبه الله من القوى أن يغالب الشيطان، وأن يقيم خلافة الله فى الأرض على خير وجه، وأن يحقق فيها كل ما يريد الله من معانى الحق.

فلم تكن مهمة الرسل والأنبياء مقصورة على تبليغ شرائع الله، بل كانت مهمتهم كذلك أن يكونوا أمثلة عملية فى تنفيذها وتطبيقها على أنفسهم، وأن يكونوا قدوة للناس فى حشد القوى الإنسانية لإقامة الحق، وفى مجاهدة الشيطان أن ينحدر بإنسانيتهم إلى درك الحيوانية الهابط. ومن أجل ذلك جعل الله الرسل والأنبياء بشرًا لا ملائكة، فيهم من الغرائز والمواهب ما فى سائر الناس، ولكنهم كانوا حكماء فى استخدامها، فلم يقتلوا غرائزهم ولم يُميتوا شهواتهم، بل حكَّموا فيها عقولهم وضمائرهم، فضبطوها وسيطروا عليها، وساروا بها على وَفْق ما أراد الله منها، ونهجوا بها المنهج الذى بلغ بهم غاية الكمال الروحى، كما بلغ بهم غاية الكمال الجسمانى، فوضعوا أنفسهم بذلك فى المنزلة الكريمة، وكانوا بما أُوتوا من الحكمة خير النماذج للإنسانية الكاملة، ﴿ومَن يُوتَ الحِكْمَةَ فقدْ أُوتِىَ خيرًا كثيرًا ومَا

يَذَّكَّرُ إلاَّ أُولُو الألْبَابِ﴾[1].

وإذا كان "المثل الأعلى - كما يقولون - هو جماع المحاسن والكمالات التى تكون عادة فى مختلف الأفراد، مجردة من شوائب النقص، بحيث يتكون منها مثال كامل للجنس"[2] .. فقد كان الرسل والأنبياء مُثلا عليا للجنس البشرى، ونماذج كاملة، فى كل زمان ومكان أرسلوا فيه؛ وكانت مهمتهم أن يعلموا الناس - بأقوالهم وأفعالهم - كيف يستفيدون بما وهبهم الله من القوى فى إسعاد الخليقة، وكيف يغالبون قوى الشر التى تريد أن تفسد الحياة فى الأرض.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الكِتَابَ وَالمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالقِسْطِ﴾[3] .. ﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[4].

كان الأنبياء مثلا عليا للناس فى كل جيل

"وقد كان كل نبى من أنبياء الله مثلا أعلى، وكان قدوة حسنة للذين أرسل إليهم، وكان يمكن أن يكون قدوة لمن جاء

(١) سورة البقرة الآية ٢٦٩.
(٢) المثل الأعلى للأنبياء.
(٣) سورة الحديد الآية ٢٥.
(٤) سورة النساء الآية ١٦٥.

بعده لو عُرف تاريخ حياته على الوجه الأكمل، وأتيحت له كافة الفرص لإظهار الفضائل التى كان يتحلى بها، ولكن أصحاب السابقين من الأنبياء لم يسجِّلوا إلا القليل من أقوالهم، ولم تُتح لبعضهم الفرصُ الكافية لإظهار فضائلهم وأخلاقهم وأفعالهم؛ كما أن الزمان ذهب بآثار الكثير منهم، فلم تبق لأحد منهم صورة كاملة من سجل حياته، ولا شخصية تاريخية واضحة المعالم يمكن الاقتداء بها والسير على هداها..

كان محمد هو الشخصية الواضحة فى تاريخ الرسل والأنبياء

"أما محمد، صلى الله عليه وسلم، فهو الشخصية التاريخية الوحيدة التى وَضحَتْ كل معالمها، والتى سجَّل معاصروها كل أقوالها وأفعالها، فلم يتركوا منها صغيرة ولا كبيرة إلا أحصَوْها.. فهو النبى الوحيد الذى يمكن أن يسمَّى شخصية تاريخية بكل ما تحمل هذه الكلمة من معان، إذ أن سيرته معروفة منذ نعومة أظفاره إلى أن اختاره الله لجواره، وسِجِلُّ حياته كامل غير منقوص، وسُنَنُه القولية والفعلية يُتمِّم بعضها بعضًا؛ وكأن كل مطلب من مطالب الحياة الإنسانية قد قُدِّر له وعُمِل حسابه، فكل ما يَعْرض للإنسان مما دَق أو جَلَّ يتجلى فى مرآة حياته..

وهو النبى الوحيد الذى مارس بالفعل كل المبادئ التى كان يلقنها للناس، ولن تجد فى القرآن حُكْماً أو أمرًا لم يعمل به النبى محمد ﷺ.

تقلب فى كل أطوار الحياة وكان فيها مثلا أعلى للإنسان الكامل

"وإذا كان القرآن الكريم يفصّل لنا الأخلاق على اختلاف أنواعها، فإن حياة النبى محمد ﷺ تصورها لنا بألوانها الحقيقية. وقد تقلب صلى الله عليه وسلم -من لَدُنْ كان يتيمًا إلى أن صار مَلِكًا[1] - فى جميع مراحل الحياة، فمارس صروفها ووفى بحقوق المراتب كلها، وبذلك صار المثل الأعلى للقدوة الكاملة.. فقد كان طفلا وشابًّا وشيخًا، ووالدًا وأخًا وزوجًا، وجارًا ورفيقًا وصاحبًا. وجنديًّا وقائدًا وفاتحًا، ومهاجرًا ومضطهَدًا ومطارَدًا، وتاجرًا وملكًا[1] وقاضيًا، ورجلا فى السراء والضراء.. وكان فى كل هذه المراتب على اختلافها هو هو لم يتغير من البداية إلى النهاية وكان مثال «الإنسان الكامل» - أو الجنتلمان كما يقول الإنجليز - ثابتًا على العهد لم يتغير طبعه ولا خُلقه، ولا اختلفت

(١) لم يكن رسول الله ﷺ «ملكًا» بالمعنى المتعارف من كلمة «ملك»، وإنما المقصود أنه صلى الله عليه وسلم، بلغ من سعة المُلْك وقوة السلطان ما يبلغه الملوك.

معاملته للناس، ولا تغير أسلوب معيشته. فإذا كان الرخاء قد أظهر منه السخاء والعفو والشهامة والمروءة، فإن الشدة قد أظهرت منه الصبر على النائبات، والثبات عند الملمات، والثقة فى خالق الأرض والسموات"[1].

وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُم فى رَسُول الله أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَنْ كانَ يَرجُو الله واليَومَ الآخِرَ وذَكَر الله كثِيرًا﴾[2].

---

(1) المثل الأعلى للأنبياء، بشىء من التصرف فى العبارة وفى الترتيب.

(2) سورة الأحزاب الآية ٢١.

خاتمة

وبعد، فإنى أحمد الله كثيرًا على أنه وفقنى إلى عرض سيرة الرسول، صلى الله عليه وسلم، فى هذه الصور، وأنه كان عونْى ورائدى فى كل خطوة خطوتها وكل منهج سلكته، كلما استعنته أعاننى وكلما استهديته هدانى، حتى انتهيت منها على خير ما كنت أرجو وأتمنى.

وأرى من الواجب أن أقرر أنى فى كل ما سطرت من هذه السيرة الكريمة، قد التزمت جانب الحرص على أن تكون الحقائق التاريخية مستمَدة من مصادرها الوثيقة، موصولة برواياتها ورُواتها بمقدار ما سمحت به طريقة العرض وطبيعة الموضوع. وقد كان من هذه المصادر ما هو قديم تُسْتَمَدُّ الحقيقةُ منه على علاتها مجردة من كل لون، ومنها ما هو حديث يلون هذه الحقيقة بلون صاحبها، ويمزجها بَخلجات نفسه واتجاهات تفكيره. وقد جَهَدْت فى أن أنتفع بهذه وتلك، وأن ألائم بين القديم والحديث فى إخراج الصورة التى أريدها، على الوجه الذى أراه أكثر نَبْضًا

بالحياة، وأقرب شبهًا إلى الطبيعة. ولم أرَ بأسًا فى أن أستفيد برأى كل ذى رأى صالح، وأن أقْبِس من حَيَوِيَّة كل ذى قلب حى؛ كما لم أتحرَّج من تعديل كل رأى لا يتفق مع منطق التاريخ، ولا يستقيم مع طبيعة الحوادث.

ومن الحق أن أعترف بأن بعض هذه المصادر كان بالغ التأثير فى نفسى، واضح الأثر فى تفكيرى وتصورى؛ فقد تأثرت فى الفصول الأولى - إلى حد كبير - بما كتبه الدكتور طه حسين فى كتابه «على هامش السيرة»، وانتفعت فيها بمنهجه وأسلوبه؛ كما انتفعت بمعلومات كثيرة قيمة أمدنى بها الأستاذ محمد عزت دَرْوَزَة فى كتابه «عصر النبى وبيئته قبل البعثة». كذلك تأثرت فى الفصول الأخيرة بما كتبه مولاى محمد على - رئيس الرابطة الإسماعيلية بالهند - فى كتابه «محمد رسول الله»، وبما كتبه الأستاذ سيد قطب «فى ظلال القرآن»؛ وانتفعت فيها بمعلومات قيمة أمدنى بها الأستاذ خ. كمال الدين فى كتابه «المثل الأعلى فى الأنبياء»، وصديق الأستاذ البهى الخولى فى كتابه «آدم عليه السلام»، وفى مقال له عن الإسراء والمعراج فى مجلة «منبر الإسلام».

ومن الحق كذلك أن أعترف بأن تشجيع الإخوان الذين

يطمئن إلى إخلاصهم قلبي، كان من أكبر العوامل فى حَفْز همتى وانشراح صدرى.

وإذا كان من حق أحد أن يشاركنى فيما بذلت فى هذه السيرة الكريمة من جُهد، فإنما هو زوجتى الحبيبة؛ فقد كان فضلها علىّ عظيما بما هيأت لى من أسباب القدرة على مواصلة العمل، وبما كان لها من ملاحظات أستنير بها كلما قرأت عليها فصلا من الفصول. فجزاها الله عنى خير ما يَجزى زوجة مخلصة، بالغة العناية بزوجها، شديدة الحرص على راحته وسعادته! وجزى الله عنى كل أخ صدوق أمدنى برأيه، أو عاوننى بجُهده، أو شد من عزيمتى بتشجيعه!

وأرجو أن أكون قد وفقت فيما قصدت إليه - مخلصًا - من عرض سيرة الرسول الكريم ﷺ فى صورة حية، يكون لها أثرها الحى فى نفوس قرائها من الشباب، بما ترسمه لهم من مُثل عالية، وما تحييه فى قلوبهم من معان كريمة.

والله أسأل أن يحقق به النفع، ويُبْلغ به القصد، ويهدى به السبيل، إنه سميع مجيب!!

وكان الفراغ من كتابة هذه الصور فى يوم الاثنين
٢٠ من جمادى الآخرة سنة ١٣٧٦، ٢١ يناير سنة ١٩٥٧
"والحمد لله أولا وآخرًا"

فهرس

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة



رقم الإيداع		١٩٨٧ / ٥٥٤٨
الترقيم الدولى	٩٧٧-٠٢-٢١٥٠-٣	ISBN

١ / ٨٧ / ٤

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)





